

عصر الذباب

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدماً.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.



❖ الكتاب: عصر الذباب

❖ المؤلف: جمال النظيفي

❖ نوع العمل: رواية

❖ الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة

❖ الناشر: ببليومانيا للنشر والتوزيع - مصر

❖ رقم الإيداع : 17452 / 2019

❖ الترميم الدولي (ISBN): 978-977-6754- 44-7

❖ الغلاف:

❖ تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببليومانيا

❖ المدير العام: جمال سليمان

❖ العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق - مول الميرياند - مصر الجديدة

❖ عنوان (2): 38 شارع عمر المختار - الأميرية - القاهرة

❖ تليفاكس: 0020226061014

❖ محمول: 00201208868826 - 00201065534541 - 00201210826415

❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: <https://www.facebook.com/bibliomania.eg/>

❖ الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة

عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببليومانيا للنشر والتوزيع



+201065534541
+201208868826



fb.com/Bibliomania



fb.com/Bibliomania.eg



fb.com/Bibliomania

Books - ببليومانيا

fb.com/groups/BibliomaniaBooks



@BibliomaniaEg

عصر الذباب

رواية

جمال النظيفي





www.bibliomania.com

2019

المقدمة

عزيزي القارئ...

اشكرك على اقتناءك رواية عصر الذباب وأتمنى من قلبي أن تستمتع بقراءتها كما استمتعت أنا بكتابتها، في بادئ الأمر لا أنصحك بتصفح قلب الرواية أو الإطلاع على صفحتها الأخيرة لكي لا تفسد على نفسك متعة أحداثها، لقد استغرقت مني معشوقتي (عصر الذباب) وقتاً لا بأس به لكي أقدمها لك في أبهى حلة، أتمنى من العلي القدير أن تنال إعجابك و أن تشاركها اصدقاءك و اقاربك المهتمين بمجال الأدب و الفلسفة و الفكر.

أحداث عصر الذباب خيالية و لكنها اقرب للواقع منها الى الخيال، ولقد كتبت فصولها على وقع مقاطع موسيقية جعلتني اعيش ما اكتب وكأنه فيلم سينمائي أو مسلسل مشوق كنت افاجأ بأحداثه كما اتمنى أن تفاجأ ايضاً.

لذلك ومن أجل المزيد من المتعة عزيزي القارئ ارتأيت أن أشاركك تجربتي بحيث تعيش الرواية كما عشتها أنا على وقع تلك المقاطع التي ترفع من وزن أحداثها، وهذا بالطبع إن كان في الاستطاعة لأن القراءة لا تحتاج بالضرورة لموسيقى تصويرية و لكن كما ذكرت فقط من أجل مزيد من المتعة.

ساقدم لك عناوين مقاطع موسيقية جعلتني أعشق ما اكتب و سارفق كل مقطع بالفصول التي يجب أن تقرأها ممزوجة بالألحان المراد سماعها أثناء

القراءة، يمكنك عزيزي القارئ تحميلها من الانترنت أو بكل بساطة سماعها مباشرة على اليوتيوب و خفض الصوت ما امكن بحيث لا تؤثر الموسيقى على تركيزك.

وإليك اسماء المقاطع مرفقة بالفصول المقصودة مع عناوينها لتسهيل عملية البحث.

الذباب/ الثقة... من هنا/ الجميلة و الوحش/ مستر
دكستر/ كوغندا/ الثورة/ القيصر/ الحزين/ السائح/ الصعلوك/

Jocelyn pook naval officer

<https://www.youtube.com/watch?v=kcer9uxalDg>

مستقبل مظلم/ البداية/ التعليمات/ العمارة/ قصر الماندرين/ كنيسة الأم
مالينا/ وداعا موناليزا/ المتنبي/ المستنقع/ نيرفانا/ كيتو/ طوكيو/ عصر الذباب/

masked ball

https://www.youtube.com/watch?v=CoZJdilo_HI

مكالمة غير منتظرة/ بومبارديلا/ كاميليا/ أنت حر/ عالم جديد/

eyes wide shute theme by dmitri

<https://www.youtube.com/watch?v=vXhYAS1Kyp8>

العقد/ بعد خمس سنوات*

Dinner waltz

<https://www.youtube.com/watch?v=YehGuJj6ftk>

أمواج حمراء/ الدار السوداء/ خصم رائع/ المرأة

الحديدية/ فانديتا/ وداعا/ شكرا فورد/

low of solipsism Death note extended

<https://www.youtube.com/watch?v=x->

xpMRCnJRE

وأخيرا عزيزي القارئ أتمنى أن تقضي لحظات ممتعة وجميلة عبر صفحات

الرواية.

قراءة طيبة.

انغمست أقدام بني البشر في وحل الخطايا و التكرار السافر لنفس الأمراض النفسية
في صور مختلف فبات الملاذ بيد ذبابة..

تفتّحت يد مبارك بوجعفر كوردة صغيرة لتحطّ على راحته ويلمس لأول مرّة
الذبابة التي رافقته في رحلته المجنونة، تذكر سرعتها يوم كان يحاول قتلها، ثم ها هي
الآن تضع مصيرها بيده بينما هو يستعد ليضع مصيره ومصير العالم بيدها.

جمال النظيفي

الجزء الأول

لا تنخدع بالبدايات فالرياضيات بدأت بتلوين التفاح والموز.....

آل باتشينو

الذبابة

لم أتخيل يوما دكتور أن بإمكان حشرة أن تغير حياة شخص ما....
 أنا مستهدف من طرف ذبابة دكتور.. إنها تزعجني بحيث لا أستطيع النوم...
 نعم ذبابة كما سمعت دكتور... ذبابة صغيرة الحجم.. بالكاد يمكنك أن تراها... إنها
 معنا الآن..

قد تقول أن الأمر مجرد تخيلات... افترضت ذلك لأني تعرضت للكثير من الضغط
 والأمراض، رغم أنني ما زلت شابا.. شاب سيئ الحظ... حتى أنني تعرضت لصعقة
 برق منذ عشرة شهور، رقدت على إثرها بالمستشفى وفقدت حاسة السمع لأيام
 معدودة.. ولكن الأمر مختلف تماما هاته المرة...

أقسم لك دكتور أنني لم أنم منذ ثلاثة أيام بسبب ذبابة، وقد حاولت مرارا وتكرارا
 قتلها دون جدوى... إنها سريعة بشكل مهول.. بعد اليوم الأول ظننت أنني جننت
 بسبب الحشيش.. صديقي إبليس رآها... لا... لا.. اسمه عاطف ولكن إبليس اسم
 الشهرة فقط... إنه ينتظرنى بالخارج... أنا هنا دكتور لتعطيني دواءً يساعدني على
 النوم... أعلم أنك لا تصدقني... أرى في عينيك دكتور أنك لا تصدقني ولم
 تصدقني أيضا وأنا أخبرك عن البرق الذي صعقني.... صديقي رآه عندما نزل من
 السماء وكهربني حتى أغمي علي... قد يكون هو السبب ولكن الذبابة تزعجني
 بشكل لا يطاق دكتور.... والحقيقة أيضا أنني أحتاج للنوم وليس لمخدر... فقط
 النوم.. ليس لكل ما أخبرتك به أهمية دكتور... المهم النوم... أريد أن أنام... لقد تخلى
 الحشيش عني..

رفع الطبيب رأسه الشائب ثم عدّل نظارته ببطء، مدّ يده على مكتبه الفسيح حيث أوراق كثيرة وأقلام وكتب صغيرة بينما كانت عيناه فارغة غير مبالية، أمسك بقلم حبر صغير وأخذ يكتب وصفته دون أن يرد بكلمة واحدة ثم دفع بها إتجاه المريض أو الذي يبدو أن الحشيش خلط الأوراق برأسه.

خرج مبارك بوجعفر من عيادة المستشفى الحكومي محمد الخامس قرب محطة المسافرين بأسفي، كان واضحا أن الطبيب لم يكتثرت لترّاهات رغم علامات التعب البادية على محياه، شعور بالدوار يلازمه منذ يومين، لقد أصبح لون بشرته شاحبا وغدت الهالات السوداء تحت عيونه ليلا مظلمًا، عانق صديقه بشدة وأجهش بالبكاء، وكأن عزيزا عليه انتقل إلى رحمة الله قبل دقائق، بعد ثلاث ليال دون نوم بدأ مبارك يدق أبواب الاكتئاب مع ردود أفعال خارجة عن إرادته ورعشة تعتربه من حين لآخر.

عرض عليه صديقه المبيت عنده ووعدته كذبا أن يتفرغ بنفسه للذبابة التي تقض مضجع المريض نفسيا على ما يبدو حتى يتمكن من النوم ولو لليلة واحدة، فإن تمكن من قتلها ولو كذبا سينتهي الأمر، وإن لم يتمكن فالنوم سيساعده على الأقل في مقاومتها اليوم التالي، فلن يستطيع الحفاظ على قواه العقلية دون نوم إذا ما استمر الأمر لأيام أخرى، لكنه رفض بعيون تملأها الدموع قبل أن يجبر صديقه على فراقه.

نزل من الدراجة النارية بيجو 103 المهترئة وعجلتها المعوجة من خلف صديقه، ورغم أن خطواته كانت بطيئة بعد أن ودّع عاطف إلا أن ضربات قلبه كانت في تسارع ثم تلاها ارتفاع لضغط الدم، كان يعلم يقينا أنه سيقع أرضا قبل الدخول للمنزل، أمسك بذراعه قبل أن يقع أرضا مراهمق أسمر أنيق بقبعة رياضية وحقبة

سفر معلقة على ظهره بدى لمبارك أنه سائح تائه، رافقه حتى أوصله باب المنزل، كابر وجاهد نفسه ليفتح الباب، كان يعلم جيداً أن العقار المنوم الذي ابتلع في الصيدلية بعد خروجه من المستشفى لم يبدأ مفعوله بعد، وأيضاً كان يعلم أنه كاذب.... فكيف يخبر صديقه بسرّه اللعين...

كيف يخبره بالحقيقة وهو يعلم أنه لن يصدقه إن ذكرها كما هي...
الأكيد أنه سيُلقي باللوم على البرق اللعين الذي صعقه وفتح له باب الجنون على مصراعيه.

كان مبارك يعلم جيداً أن عاطف لم يصدقه ولن يصدقه تماماً كما فعل الطبيب ولكنه كان يرى في عيني صديقه أنه يشفق عليه فقط، لقد عرض عليه المساعدة جهلاً بالحقيقة التي لو علمها لعرف أن العكس هو الأصح وأنه الأحق بالشفقة.
صعد درج المنزل المهترئ نحو غرفته الصغيرة التي يكتري عند العجوز البربرية مماس، رمى بالجاكيت فوق الكنبه المتسخة وألقى بنفسه فوق سريره الذي اقترب من اللون الأسود من شدة العفن، مد رجله فوق أعواد الكبريت المحترقة وأكياس البلاستيك المثقوبة، كانت أرضية الغرفة عبارة عن خليط من الأتربة المختلطة ببقايا أطعمة فاسدة قديمة، في أقصى الغرفة طاولة صغيرة عليها العشرات من علب السجائر الفارغة وممرمة بها كمّ رهيب من بقايا السجائر وقطع بلاستيكية صغيرة بها بقايا تبغ قديم وتراب الحشيش، أمسك بهاتفه ذو الزجاج المكسور وفتح ملف صور عاطف وساح فيها قبل أن يجهش بالبكاء مرة أخرى...

طرقت العجوز مماس باب الغرفة المظلمة بقوة وهي تتحدث باللهجة الأمازيغية ويبدو أنها كانت تسبّه وتنعتّه بآبن العاهرة وتطالبه بإخلاء الغرفة ما دام لا يدفع الإيجار في وقته كما تفعل ثرية جارته...

لقد قطعت حبل تفكيره بصديقه، ودّ حينها لو يقتلها، لكنه لم يكن ليفعلها، كل ما كان يستطيع أن يقوم به، هو الصراخ بصوته المبحوح المرتفع...

- لقد أخبرتك البارحة أني مريض أيتها العجوز... المال الذي كان بحوزتي اشتريت به دواء لأستطيع النوم اليوم... لو تمكنت من النوم... سأعود للعمل بسوق الخضار غدا وسأدفع الإيجار بعد يومين أو ثلاث على الأكثر.. وإذا لم أنم الليلة فمن الممكن أن أقتل نفسي وقد أقتلك قبل أن أرحل عن هذا العالم العفن...

ابتلعت العجوز مماس لسانها لأنها لم تسمع مبارك بوجعفر يهددها من قبل، انصرفت بخطوات بطيئة وظهر منحني تجر جلبابها الرث الخشن الذي يوحى بالفقر المدقع والشحاة.

اختلط الغضب مع الحزن بقلبه واعتصرت نفسه قرفا مما يحدث له، عاد لهاتفه ونزع عنه البطارية وتوقف لحظة ثم رفع رأسه للمصباح الصغير قبل أن يصرخ بقوة وهو يتلفظ كلاما غير مفهوم أمام جارته ثرية التي كانت تنظر إليه بغرابة بعد فتح الباب دون إذن بغنجها ودلالها المعهودين، الجميلة ذو الشعر الطويل الأصفر الأقرب لكساء وحبال الذرة ذو عيون كبيرة سوداء وحواجب ممتلئة تدل على قوة الدماء التي تسري في عروق الشابة ذو القوام الفاتن، كانت ثرية طويلة القامة بضّة بين السمنة والنحافة بلباس نوم أحمر حريري شفاف لا يخفي شيئا من جسمها بقدر ما يبيديه...

- لقد تعرضت للمس مبارك... أكيد... الجن هم السبب... غدا سأرافقك عند الفقيه طوطو بالمدينة القديمة قرب شارع الرباط، سيقضي عليه بعد أيام وستحسن حالتك بإذن الله..

رد قائلاً وهو يتجه نحو الباب..

لا أظن ثرية... أعلم جيداً ما بي... يجب أن أرقد الآن...

أغلق الباب بوجه الجميلة المومس بقوة وعاد لسريه وهو يخاطب المصباح بحديث غير مفهوم...

ألقي بنفسه على السرير لينام رغم أن الشمس ما زالت ترمي بسهامها على الغرفة الكوخ بسطح البيت المهترئ في أفقر حي بمدينة آسفي الساحلية بالمغرب.

دخل في بحر مظلم وغاص بعالم الهدوء بعد أن بدأ العقار يؤثر أكله، لكنه لم يكف عن التفكير بمصير صديقه حتى وهو يغط في نومه الصناعي..

اقتربت الذبابة من مبارك وحطت على شعره القصير المجعد، ثم تحركت إلى أعلى الرأس وكأنها تمص العرق المتسخ على جبهته لحظات قبل أن تعود إلى دفيء المصباح الأحمر بهدوء، لقد نام رغم الغم الذي ألمّ به في الأيام الأخيرة، لقد نام دون أن يخبر صديقه بحقيقة الذبابة.

في اليوم التالي اكتشف مبارك أنه نام أكثر من ثمان وعشرين ساعة متواصلة، كان يحس بدوار خفيف ولكنه أصبح يشعر بتحسن كبير مقارنة مع الأمس القريب، قفز نحو هاتفه بسرعة وأعاد البطارية لمكانها ليُشغله ويداه ترتعش من الخوف، حطت الذبابة على كتفه بهدوء دون أن يلتفت إليها وبعد ثواني معدودة رمى به عرض الحائط بقوة ليكسره ويتحول إلى أجزاء متناثرة هنا وهناك...

ثم صرخ وهو يبكي بحرقة... صدقت أيها اللعين... ما هذا الكابوس الذي أعيش...

لقد حدث فعلا ما كان يخشاه مبارك وما تنبأت به الذبابة اللعينة..

لقد كان يبكي صديقه قبل يوم من وفاته...

لم يخبر مبارك صديقه أن ما كان يزعمه من الذبابة حقيقة ويمنعه من النوم هو أنها تتحدث إليه...

لم يخبر مبارك صديقه المتوفي أن الذبابة تكلمه وتنبأ له بكل ما سيحدث قبل أن يحدث..

لم يخبر مبارك صديقه أن علاقته بالذبابة ليست وليدة ثلاثة أيام ولكنها أزمة شهر كامل من الأحداث الغامضة التي غيرت حياته وجعلته يشك بقواه العقلية..

كانت وفاة عاطف هي القشة التي قصمت ظهره، كما أن الذبابة ليست حشرة تافهة تزعمه، وإنما هي شيء أكبر مما يمكن تخيله...

اقتربت منه الذبابة وبدأ الحوار الذي لا يفهمه غيرهما...

- لماذا أخبرت الطبيب أنني مزعجة؟ لماذا كذبت؟

ألم تقطع على نفسك العهد في البحر قبل أن أنقذك من الغرق أنك لن تخبر أحدا عن وجودي... لماذا قلت لصديقك الحقير أنني مصدر إزعاج؟

هل تظن فعلا أنني ذبابة كباقي الذباب...

هل نسيت أنني أنقذتك...

- أعلم ذلك يا فورد وأعلم لماذا أنقذتني... لو لم تكن لديك مصلحة خلف إنقاذي لما فعلت ذلك... ولست غيبا لكي أصدق كل ما تخبرني به... لا تنسى أنني أفكر وأن لدي عقلا....

- لقد أضحككتني.... أنت... عقل... وتفكر أيضا... أي أحمق هذا الذي وصف الإنسان بأنه حيوان عاقل؟ إن هذا الوصف غير دقيق وسابق لأوانه.. أنتم مخلوقات متعدّدو الملكات ولكن العقل ليس من ضمنهم... ولنفرض جدلا أنك تفكر وأن لك عقلا كما تدعي... كم هي المدة التي استخدمت فيها ذلك العقل؟

عشر.. عشرون عاما... أنت ما زلت شابا في مقتبل العمر وقد دمرت مستقبلك بالانقطاع عن الدراسة وتعاطي المخدرات وكل ما يفسد العقل... فلو كنت تستعمله كما تدّعي لكان لك شأن آخر اليوم، وأنا أرى أن أقرانك يعملون بشركات محترمة ووظائف جيدة بالدولة وبنوك كبيرة وآخرون ناجحون بالتجارة، وحتى من لم يجد منهم عملا فهم أشخاص نزيهون يبحثون عن لقمة العيش بشرف وعفة كما يظنون....

فماذا عنك أنت؟؟؟... مجرد صعلوك لم ينجح حتى في عالم السرقة وتم القبض عليه أكثر من مرة... هل هذا هو العقل الذي تدعي؟؟؟

- أعلم أنني شخص فاشل... لا تحتاج أن تذكرني بذلك... لكني أعلم يقينا أن الحشرة التي تتكلم معي تحتاجني... لا أعلم لماذا ولا أعلم كيف يمكن لي سماعك دون الناس ولا أعلم من أين لك بتلك السرعة وكيف تتنبأ بالأحداث والمصائب قبل وقوعها... لا أعلم شيئا كما أنك ترفض الإجابة عن أسئلتني... كل ما أعرفه يا فورد

أنك ستصبح وحيدا بدوني... فلا أحد يستطيع أن يسمعك أو يكلمك... أنا الوحيد الذي يجعل منك كائنا ذو قيمة...

- جميل أن تعترف بأنك إنسان فاشل... وأن تعترف بجهلك... لكن صحيح.. الذبابة التي تتحدث معك الآن لا يسمعا شخص غيرك ومن النادر إن لم يكن مستحيلا العثور على من يسمعي بحيث قد أنتظر مائة سنة قبل ظهور شخص مثلك... وبدل الحصول على شخص مثقف يجيد الكثير من اللغات متزن ورصين ها أنا مضطر للحديث مع حشاش منحرف لم يكمل تعليمه بسواحل المحيط الأطلسي في إفريقيا الفقيرة... لكن لا يهم... الأمور دوما معقدة مع الجهل... سأجد حلاً... يوجد دائما حل لكل شيء.

لا عليك...

سأخرج قليلا ثم أعود..

سأتركك تهضم وفاة صديقك الحقير إبليس ثم سأعود لأبين لك الغرض من إزعاجي لك كما تدعي.

بعد العودة سأقدم لك عرضا سيغير حياتك إن وافقت طبعاً... أتمنى أن تكون لديك الشجاعة الكافية للمغامرة التي تنتظرك.. وإلا فإنها ستكون خسارة كبيرة لكوكب الأرض.

ضربت الذبابة فوردا بأجنحتها الصغيرة نحو نافذة الكوخ وخرجت دون أن تلتفت لدموع الصعلوك مبارك... مبارك الملقب بالغول.

قد لا أملك انتصارات مدهشة لكنني أستطيع إدهاشك بهزائم خرجت منها حيا..

أنطون تشيخوف

مستقبل مظلم

أشعل حارس بوابة المرسى المُسن سيجارته بعد أن لمح ثلاث شبان يتسلقون سور المرسى عن بعد في ذلك الليل الممطر، ثم قال بصوت خافت.
- كيف تحولت هذه المدينة العتيقة إلى ما هي عليه الآن..

قديما كانت قبلة كل بحارة أوروبا والعالم ومفخرة أهل المدينة، والآن ها هي مرتع لصوص وقطاع طرق وحشاشين لا تستطيع الاقتراب منهم ولو كنت صاحب حق.
هرول الشباب نحو المركب الصغير أقصى الميناء، كان بالكاد يمكنهم رؤيته في تلك الساعة من الليل، تقدم أطولهم قامة نحو المركب وقفز ثم أشار للثاني بالقفز أيضا وبقي الثالث متسمرًا مكانه..

التفت الشاب يمينا ويسارا مذعورا، رفع رأسه وحقق بنظره في السماء المظلمة بأعين تكاد تخرج من جمجمته ذعرا وهو يصرخ...

من... من يتحدث؟؟

ثم صرخ بصاحبيه أيضا...

هل تسمعون ما أسمع؟

بينما الشاب السمين مستغرب مما يحصل المبارك..

رد عليه الطويل الأصلع النحيف من فوق المركب..

مبارك... ما بك يا هذا؟

ما الذي تسمعه؟

نحن لا نسمع شيئا.. ماذا دهاك..

لقد سمع مبارك شيئاً أفرعه وأربعه حيث لم يستطع عقله أن يتفاعل مع بدنه بشكل طبيعي ويتحمل الصدمة، سقط مغشياً عليه من الخوف تحت الأمطار دون أن يختفي ذلك الصوت، عاد عزوز الأصلحة الطويل وعبد اللطيف السمين أصدقاء الغول في السجن إلى اليباسة ليتفقدوا حال ثالثهم الذي يسمع أصواتا غريبة والتي أفقدته وعيه، أمسك الأول بقدميه وأدخل الثاني ذراعيه تحت كتفي الغول وتحركا ببطء نحو المركب قبل أن يتنفض ويضرب ويركل برجليه بقوة ثم تلوى أرضا هربا من صديقيه وهو يصرخ..

لن أذهب معكم.. لا أريد نقودكم..

أخرج ورقتين من فئة مائة درهم ورماهما أرضا..

تساءل عزوز بغضب ونظرات حادة..

ما الذي حصل.. أين الغول الذي أعرف؟ هل أصبحت تخاف من أمواج البحر؟ استقام مبارك ونظر إلى السماء وأرخى سمعه لينصت لذلك الصوت الجوهري الرصين مرة أخرى ثم سكت برهة قبل أن يجيب صاحبي السجن..

لا.. لست خائفا من البحر ولكني قدمت هنا معكم من أجل أن نأخذ ابن العربي المسحور نحو الأمواج ليتقيا السحر الذي وضعته له زوجته بالطعام لأن البحر الهائج سيكون فرصة مناسبة للقضاء على (التوكال) الذي ابتلعه وليس من أجل أن تلقوني في البحر، ولقد علمت للتو أن ابن العربي لم يطلب منكم ذلك وأنه لم يدفع لكم المقابل الذي أخذت وأيضا علمت أن الغرض من وجودي هنا هو إغراقي في البحر لأنني جردتكما مبلغ خمسة آلاف درهم الأسبوع الماضي في القمار، ولتستردا أموالكما

قررتما قتلي غرقا ثم السطو على غرفتي لاسترداد المبلغ.. * - نوع من أنواع السحر والشعوذة*

لقد تساءلت مع نفسي كيف لابن العربي أن يدفع أربع مائة درهم مقابل أن ندخله البحر الهائج ليلا بمركب مسروق مع لصوص مثلنا رغم أن بإمكانه أن يزيد على المبلغ قليلا ويدخل مع بحار محترف، ولكنني وثقت بكما وأيضا لأنني خسرت كل ما ربحت بالحنة مع صديقي إبليس ولم يعد معي درهم واحد...

قطع الكهل حارس المرسى حديث أصدقاء السجن قائلا:

- لقد أبلغت مخفر شرطة الميناء، أظن أن عليكم المغادرة الآن قبل أن يتم القبض عليكم..

.. عليكم بالرحيل الآن..

ركض عزوز وعبد اللطيف نحو السور مباشرة بعد أن أكمل الحارس كلامه، لكن مبارك ظل واقفا متمسرا وكأنه ينصت للجن وهي ترتل عليه ترانيم سحرية قبل أن يرد على الكهل :

ليس لدي القدرة على الجري، قدماي لن تتحملا ذلك، رأسي ستنفجر من الصداق، وبي رعشة تحتاج أمعائي، سنخرج من الباب الرئيسي للمرسى يا مسعود... اسمك مسعود.. إذا استوقفنا شرطي المخفر أخبره أن اللصوص غادروا المرسى عبر السور، وإذا لم تفعل سأخبر الشرطي بالجريمة التي ارتكبتها السنة الماضية وسأخبره حتى عن مكان أداة الجريمة..

يكفي أن أخبرك أنها في كيس أحمر بالدرج السفلي الثالث على اليمين من مدخل مطبخك بالبيت لتصدقني.

هل تريد المزيد؟

انتقلت حالة الهلع إلى الحارس الكهل الذي لم ينبس بكلمة واحدة ليلتفت بهدوء ويدها ترتعشان والذعر قد تلبّس تجاعيد وجهه..

قمة الانكسار بعد هذا العمر الطويل أن يخبرك غريب بسر لا يعلمه غيرك وتظن أنك دفتته بإحكام لتكتشف في لحظة كهذه أنك مفضوح أمام شيء لا قبل ولا علم لك به. هل هذا هو الجن؟

أم هو شخص يستعين بالجن..

خرج مبارك صحبة حارس المرسى نحو أزقة المدينة القديمة دون أن ينطقا بكلمة واحدة، ثم توقف الكهل على بعد مئات الأمتار من الميناء وهو يحدق برفيقه بالسير علّه يخبره بسرّه، لم يلتفت مبارك للحارس الذي لا يعلم أنه يتقاسم معه الجهل بحقيقة ما يحصل... فهو لا يعلم من أخبره بكل تلك المعلومات ولم ير شيئاً يستطيع أن يفسر له ما حدث...

ثم عاد الصوت من جديد... 33

- قل له أنك لن تخبر أحدا عن جريمته وأن عليه أن لا يخبر أحدا بما حصل هذه الليلة وأيضاً أنه لن يراك بعد اليوم إذا نفذ الأوامر...

التفت مبارك وعيونه تكاد تتوسّل من يشاهدّها أن تنقذه....

التفت قبالة الحارس الذي تحول إلى كيان فارغ وقال بشفتيه المرتعدتين:

- لا تخبر أحدا بما رأيت الليلة ولن يعلم أحد بجريمتك كما أنك لن تراني بعد اليوم إذا حافظت على الوعد، عُد إلى عملك وانسى كل شيء يا مسعود...

تحرك بخطوات ثابتة وبطيئة لساعات من الزمن في شوارع المدينة القديمة، ظل يخطط
أزقتها إلى أن توقفت الأمطار وطلعت الشمس على غير عاداتها بعد أسابيع متتابة من
الأمطار... لقد أشرقت الشمس على مبارك وأظلمت على العالم وهو لا يعلم
لقد أشرقت الشمس أيضا على الذبابة فورد التي أنقذت الغول من الموت والسجن
لتبدأ مسيرة جديدة نحو مستقبل مظلم للإنسانية.

الأحزان الصغيرة ثرثرة، أما عظيمها فأبكم....

الفيلسوف الروماني سينيكا

أمواج حمراء

عادت الذبابة بعد خمسة أيام من دفن عاطف بمقبرة سيدي عبد الرحمن التي تهاوت بها العديد من القبور واندثرت شواهد الموتى وانتشرت الحشرات والأفاعي من شدة الإهمال، حيث أصبح مستحيلا على بعض الزوار الوصول لذويهم والتعرف على مثاويهم، فالنباتات استوطنت المكان وانهارت جنبات الكثير من أسوار القبور في مشهد يفضي إلى التساؤل عن حرمة القبور والموتى.

كان مبارك جالسا قرب قبر صديقه يدخن لفافة الحشيش التي ابتاع بالمدينة القديمة قبل دخول المقبرة، حطت الذبابة على كتفه وقالت:

- هل تبكي صديقك فعلا؟ أم تبكي لأنك لم تتخيل أنه سيموت يوما ما؟ أم أفزعك الموت وعرفت أنه مصيرك أيضا؟

ضرب على كتفه بسرعة هائلة لتختفي من عليه ثم رد قائلا بهدوء بعد أن نفّس يده وكأن الذبابة لم تفارقه لحظة وكأن الخمسة أيام كانوا مجرد دقائق معدودة وكأنه كان يعلم أن الذبابة أصبحت مصيره الذي لن يفارقه حتى الموت..

- لقد كان أخالي أكثر من صديق.. عاطف هو الشخص الوحيد الذي كنت أثق به في هذا العالم.. وبالنسبة للموت فهو لا يخيفني.. أنا متأكد أنني بعد الموت سأرحل لمكان أفضل من هنا... حتى جهنم أظنها ستكون أفضل.. لماذا سأخاف من الموت إذن؟؟؟؟؟

حطّت الذبابة فوق حشائش قبالة مبارك وهي تقول :

- مضحك أن ينطق مثلك حكمة كهذه وهو يجهل تماما ما يحدث بهذا العالم، لكن لا يهم... لدينا الوقت الكافي للكثير الكثير أيها الغول... كل من يلقبك بالغول سيعلم

يوما ما أنها لم تكن صدفة... سأجعل منك شيئا آخر إن كنت شجاعا بما يكفي للقيام بها أنت مقبل عليه.

قام مبارك ذو الثلاث وعشرين ربيعا من فوق الصخرة التي كان يجلس عليها وهو يدخن لفافته برأس منحني وأعين تحدق بالأرض وابتعد عن القبر بخطوات بطيئة وهو يتكلم مع نفسه ويلعن بكلام خافت اليوم الذي وُلد فيه واليوم الذي أصبح يسمع فيه الذباب..

طار فوردد نحو كتفه مرة أخرى وهمس في أذنه كلمات جعلته يصرخ بأعلى صوته ويخر أرضا على ركبتيه قبل أن تختفي الحشرة وتبتعد...
- ألم أقل لك أنك لا تعلم شيئا...

انتظرت الذبابة دقائق حتى يستسيغ مبارك المعلومة التي أخبرته بها ثم عادت نحوه وقالت:

- بإمكانني أن أساعدك... بإمكانني أن أنتقم لك... بإمكانني أن أجعل منك ما تشاء... ولكن بشرط أن تنفذ كل ما سأخبرك به وأن لا تتردد، ويوم ستكون على قدر المسؤولية سأترك لك حرية إتخاذ قراراتك بنفسك، لكن ليس الآن... لست أهلا للقيام بأي شيء في هذه اللحظة... أمامنا الكثير.

عاد مبارك للبكاء مرة أخرى وكأن صديقه توفي للتو بعد أن أخبرته الذبابة أن عزوز وعبد اللطيف هما من قتلا صديقه وأنه لم يمت جراء جرعة مفرطة من المخدرات كما قال الأهل والشرطة، كما أنها حضرت الجريمة ولم تخبره عنها، بل تركت صديقه عرضة للقتل وشهدت أنفاسه الأخيرة تغادره ببطء...

وقف مبارك ورفع رأسه للسماء وتساءل أمام الذبابة عن شيء في غير محله...

- من الذي سمّاك فورد؟ لقد أخبرتني أن اسمك فورد... من الذي لقبك؟
- كانت لدي العديد من الأسماء... آخرها فورد وقد اختاره لي صديقي كيتو، لكن بإمكانك أن تسميني ما تشاء...
- أظن أن اسم الشيطان يليق بك...
- أكمل مبارك خطواته بثبات نحو الباب الرئيسي لمقبرة سيدي عبد الرحمن عبر طريقها المترّب المتسخ وحشائشها وهو يقفز فوق حفر الوحل الذي خلفته الأمطار الأخيرة ثم توقف خطوة قبل الوصول إلى الباب وسأل فورد:
- لقد حاولت قتلك بكل الطرق والوسائل، لديك يا فورد قدرة خارقة على الاختفاء وسرعة لا تسمح بقتلك...
- ولكن ما دمت ستساعدني على الانتقام فهذا يكفيني الآن...
- بالطبع سأساعدك ولكن ليس من أجلك... بل من أجل كوكب الأرض... الانتقام لن يكون بدون هدف أو ثمن... إنها هو خطوة سيتبعها خطوات كثيرة ليس عليك معرفتها بالضرورة، فلست بمستوى فهمها الآن ولكنك ستستوعبها عن قريب... لطالما تساءلت عن الحكمة من هذا التكرار منذ آلاف السنين...
- لطالما حاولت أن أفهم.. لماذا تتكررون بنفس المشاكل وبنفس الغرائز وبنفس الإجماع.. لماذا؟ قلّما وجدت من يتساءل حول نفسه وأهله وأجداده وأجداد أجداده... قلّما وجدت أحدهم يبحث عن شكل سقراط أو أرسطو أو حكيم ليغيّر حياته أو موته.. قليل من يتعلم من الأذكياء والأقوام الأولين... وللأسف... عددهم غير كافٍ لتحقيق المبتغى.

معظمكم يريد أن ينتقم... أغلبكم يريد المال.. أغلبكم يشتهي السلطة... قليل من يسأل عن الأهم... قليل منكم من يشتهي الحقيقة.

قريبا سأجعل منك ما تشاء... اعتبرني مصباح علاء الدين... هل تعرف علاء الدين؟؟

- لا أعرفه ولا أريد أن أعرفه ولا أعلم عن ماذا تتحدث... لقد أخبرتك عن رغبتى...

- قريبا ستحصل على كل شيء مبارك... ستملك الدنيا..

لكن...أمامك الكثير..

العالم ينتظرك بكل جهل أيها الغول الصغير.

في اليوم التالي استيقظ مبارك على قرع الحساء ثرية للباب لتطمئن على حاله الذي ينذر بزلزال سيصيب كينونته دون أن تعلم أن الخراب القادم قد يكون من أجل الأحلام التي سيعيشها رفقته وأيضا من أظلم الكوابيس التي تنتظرها البشرية...

فكيف سيخطر ببالها أن الشاب الحشاش القصير القامة المنكوش الشعر والذي تبدو عليه سمات سوء التغذية ببنيان الذئب ووجه ممتلئ بالأخاديد والخياطة من فرط حروب العصابات بالمطاوي والذي يسكن قبالة غرفتها بالسطوح في مدينة صغيرة مهمشة على الساحل المغربي ولا يملك من المؤهلات ما يجعل حتى سكان المدينة يعلمون بوجوده وبكينونته وقد يخفي هذا المسخ الشبيه بمخلوق فرنكشتاين من هذا العالم دون أن تذرف عليه دمعة واحدة من إنسان آخر غيرها.

لم تكن تحبه ولكنها كانت تواسي نفسها بمعاناته مع الفقر والتهميش الذي طاله منذ حل ضيفا على الدنيا، فلطالما اعترف في جلساتها الخمرية بعد أن يلعب النبيذ

الرخيص بعقله ليبدأ العَرَف من معاناته ويتقيء بعضها على مسامعها علّه يتنفس الحياة التي تمنى يوما.

سألته عن حاله بعد خروجه من المستشفى بسبب ضربة البرق وعرضت عليه إن كان يود زيارة الفقيه المتخصص في الرقية الشرعية علّه يخلصه من الجن الذي يلبسه قبل أن يجيئها بهدوء هذه المرة..

- لا شكرا ثرية... ليس بي مس أو جن.. كل ما في الأمر هو أنني مرهق كثيرا وأحتاج لبعض الوقت حتى أتمكن من العودة إلى العمل لأدفع إيجار العجوز..

رن هاتفها في الغرفة قبل أن تكمل حديثها مع الغول الذي عاد ليلبس سروال الجينز الأسود والجاكيت الأحمر المدبور والمعهود به منذ سنوات، وقبل أن يصل درج المنزل المظلم المهترئ سمع ضحكات ثرية المعهودة في غرفتها مع أحد الزبائن، تلك الضحكة التي قالت عنها ثرية يوما أنها من أكثر ما يقرفها في حياتها لأنها كانت ثمنا آخر غير جسدها الرخيص في عيون الذئاب..

خرج بخطوات سريعة حتى لا تستوقفه العجوز مرة أخرى نحو سوق الخضار الشعبي في أقصى المدينة بمكان منعزل عن الشوارع الرئيسية يدعى (سوق خانز) والتي تعني السوق كرية الرائحة بالعامية المغربية حيث يمكن بيع الخضار أرضا دون إزعاج رجال المخزن والقوات المساعدة التابعة للسلطة، كان مبارك يجمع بقايا الخضار الغير صالحة في نهاية اليوم ثم يقطع الأجزاء المتعفنة ويرتبها حسب النوع ويبيعها بأقل من نصف ثمنها لمن يشكون الفقر المدقع مثله ليوفر دريهمات يدخر بعضها للإيجار والبقية للخمير والحشيش، مرت قربه عجوز منحنية الظهر تحمل قفة صغيرة بها بعض الخضار المتعفنة، سمينة بوجه شاحب وعينها اليمنى ذابت قرنيتهما

وأصبحت مع الزمن عجينة بيضاء، نفس الزمن الذي يتربص بالعين الأخرى لتتعفن، سقطت من العجوز ورقة من فئة عشرون درهم دون أن تنتبه لها... إنه يومٌ مبارك... يوم كامل من العمل وجمع العفن وبيعه... لم تكن تبدو كورقة نقدية بعيون الشاب... بل رآها قطعة حشيش في يده سيسبح بها في بحر العالم الآخر...

تحرك خطوات صغيرة خلف العجوز وانحنى بسرعة الثعلب وخطف الورقة وقبل أن يختفى في زحام السوق ويوفر على نفسه معاناة يوم طويل خال من الشجار والعويل بالسوق الكريه الرائحة، اصطدم بالسائح الأسمر الذي ساعده قبل يوم عندما أوصله إلى محل سُكناه، شاب حديث السن لم يكمل عقده الثاني بقبعة رياضية صفراء ينفجر منها شعر حريري كشلال أسود على غير عادة الأفارقة السود، كانت عيونه البنية واسعة تنبعث منها الطيبة، قال مبارك لنفسه أن لا بد وأن يكون أمريكيا، تبدو عليه السعة مقارنة بالمقهورين من بني جلدته، لاحظ أنه أقصر منه قامة قبل أن يسأله بلغة عربية مضحكة عن فندق رخيص الثمن للمبيت وقريب من السوق الكريه، لم يجب مبارك بل فكر بسرعة في العجوز التي سرق منها للتو مبلغ العشرين درهم، وتساءل هل شعرت بضياها أم لا وخشي أن يتسبب له السائح الغبي في مشكلة، ركض دون أن يلقي بالا له حتى ابتعد بعشرات الأمتار ثم التفت خلفه وقد عاد السائح لسؤال المارة نفس السؤال.

لم تمض سوى لحظات حتى كان مبارك يدق باب الرويو أحد موزعي الحشيش في ذلك الزقاق المظلم من الحي المظلم بعالمهم الحال الذي لا تضيئه سوى قطعة حشيش للحظات وتحملهم إلى شمس من صناعتهم.

سمع الذبابة تُعلّق على الموقف قائلة...

- ألا تستحي؟ كيف تسمح لنفسك بسرقة امرأة عجوز قد تبكي الليلة وأيام أخرى على دراهمها؟؟

- ابتعد عني الآن... فلست بحاجة لترهاتك أنت الآخر... لدي ما يكفيني في هذه الحياة... ثرية المهووسة بالجن والفقير النصاب والسائح الذي كاد يكشفني بغبائه ثم الحشرة التي تتحدث عن الأخلاق... أنت تعلم أنها لا توجد في هذا العالم... لقد انقرضت مع الديناصورات كما يقولون...

- كنت أمزح صديقي... لا حديث عن الأخلاق هنا... بل هي مفارقة الحيوان الناطق الذي يدعى (إنسان)... يجب أن تفهم أن قصتنا قصة جدا عن مفهوم الأخلاق والصدق والأمانة وبعيدة بسنوات ضوئية عن كل تلك الأوصاف الغبية... يجب أن تعلم أن ما يتحدث به البشر مع أنفسهم إنما هو مجموعة مصادمات عقلية لا تمت بصلة للفضيلة وأنت لم ولن تخرج عن هذه الدائرة... أنتم مجرد مخلوقات تعبت بها تلك الكومة من الكفتة داخل جماجمها...

عاد مبارك أدراجه نحو البيت بخطوات ثقيلة وهو يشم قطعة الحشيش التي ستساعده للوصول لنشوة الليل المعتادة وهو يقول...

- لا أفهم عنك ما تقول يا هذا.... لقد قلت البارحة أنك ستساعدني في الانتقام من عزوز وعبد اللطيف... وها أنت تهدي وكأنك دَخنت الحشيش قبلي.... متى ستفي بوعدك؟ متى سأنتقم من الكلاب؟

حطت الذبابة على كتفه قبل أن تحبب، بينما مبارك يضع قطعة الحشيش بجيب الجينز المتسخ ذو الثقوب الصغيرة.

- نعم سنتنقم منهم كما وعدتك، وأيضاً سأساعدك في الانتقام من شخص آخر...

- من؟؟؟ لا أريد الانتقام من أي شخص غير الكلاب التي ذكرت.. من الآخر؟

انتقل فوراً فوق رأس مبارك قبل أن يسترسل في الحديث...

- لم أكن أريد أن أشق عليك كثيراً ولكن يجب أن نبدأ... لقد انتهيت تقريباً من

التحضير، يجب أن نبدأ عن قريب، لقد حضرت إلى مدينة آسفي من روسيا،

وسعدت جداً لأنني وجدتك، لكن لسوء حظك كما تقولون وسوء حظي أيضاً أن

الوسط الذي حللت عليه حقير للغاية، لم يسمح لك بتعليم جيد كان سيجعل

مغامرتك أروع، تحرّيت عنك لمدة سنة قبل أن أقدم لك نفسي وعلمت أنك يتيم

الأب مع أم لا تعرف قيمتك بحيث تركتك لعمك الذي يتسول بأطفاله لترحل مع

عشيق أحقر من والدك الأصلي... لم يكن بوسع أحد إنقاذك من ذلك الوحش وأنت

في ذلك العمر... كما ترى أنا أعلم كل شيء عنك...

وقف مبارك فجأةً لثواني معدودة بعدما سمع من الذبابة وتسمر ينظر إلى جنبات

الشارع الساحلي، ثم استدار إلى اليمين وقفز فوق بعض الصخور والحشائش ثم نزل

إلى ساحل الشاطئ الصخري مروراً بالأوحال التي خلفتها الأمطار ثم جلس يستمع

إلى فوراً بأعين حمراء تندر بدماء كثيرة ورعب سيستقر بقلوب لظالم آذته وأخرى

نسيته... كان قلبه يسمع أمواجاً أخرى غير موج البحر.... أمواج حمراء قادمة من

بعيد... كان يراها بقلب جريح وابتسامة تحمل في طياتها الكثير من الدموع... لكنها

ستكون زلزالاً على كل من ظلمه يوماً ما...

إنه قادم.... تسونامي الغول والذبابة.

ابتسم قبل أن يلوح ببصره نحو الذبابة بهدوء... يصمت.... يفكر... ثم يقول...

- لقد فهمت الآن يا فورد... لقد فهمت... لا أظن أن لقائنا هذا كان عبثا...
أظن أن هذا الانتقام سيكون من أروع ما يكون...
أكمل صديقي فورد.

الحقيقة هي خطأ مصحح باستمرار

(غاستون باشلار)

الثقة..... من هنا

- اجلس... جيد جدا أنك فهمت أنني صديقك الحقيقي... أنت ذكي جدا مبارك لكنك حمار بالمعنى المتعارف عليه لديكم... ينقصك الكثير لتصبح مستعدا لما نحن مقبلون عليه، لا يزعجك وصف الحمار فإنه ليس غبيا بل هو من أذكى الحيوانات على الإطلاق لكن المعلوم من وصفه في ظنكم هو الغباء وهذا هو الظلم فوق الظلم... إنه حمار لأنه صبور بشكل غير طبيعي وليس لأنه غبي... وهذا ما سأقضي عليه بداخلك... لا صبر بعد اليوم... لا سكوت بعد اليوم... كان من المفروض أن تذبح عمك الذي اغتصب براءتك قديما بسكين حاف ولكنك لم تفعل... كان عليك أن تنتقم من كل من آذاك وظلمك... لم تطلب من أمك شيئا... هي من أخطأت... هي من عليها أن تتحمل مشاكك أو تقاسمك إياها على أقل تقدير... هي من يجب أن يدفع الثمن وليس أنت وحدك... ما ذنبك أنت؟

قال مبارك وهو يمسح عينه الحمراء...

- ما المطلوب مني فورد؟

- كل شيء... مطلوب كل شيء... كما ترى صديقي أنا مجرد ذبابة لا أستطيع القيام بشيء بدون تدخلك المباشر، لن أستطيع أن أحقق كل ما وعدتك به دونك، يجب أن تعلم أن القوة الحقيقية ليست عضلات مفتولة أو سلاح أو مال، إنها هي وسائل ستساعدك لتحقيق أحلامك، القوة الحقيقية أيها الغول الصغير هي

المعلومة...

تذكر أنك زعزعت كيان حارس المرسى بمعلومة استقيتها عنه خلال رحلة تعرفي حول المناخ الذي تقطن به...

بعد قدومي لمدينة آسفي تجسست على كل نسمة بها لأني كنت أعلم أنك ستحتاجها
في المستقبل القريب...

تذكر أنني أنقذتك بمعلومة...

المعلومة هي سلاحك الفتاك القادم... الانتقام يحتاج إلى تخطيط وتدير وحسن
تصرف وخبرة... أنت لا تملك من هذا كله شيئاً الآن... ولكنك تملكني أنا...

كما أنك ستحتاج لشخص آخر يساعدك في المهام التي سأוכלها إليك، صديقك
القديم لم يكن يصلح ولو علمتُ العكس لما تركت الرعاع تقتله...

قطع مبارك حديث الذبابة بنبرة حادة...

- وكيف علمت أنه لا يصلح... لقد كان صديقاً وفيًا...

- أنا أعلم ما لا تعلم... صديقك الحقيقي والذي لن يتركنا ساعة الشدة هي (ثرية)
وليس من كنت تظنه صديقك... صديقك ساعة الشدة هي ثرية وليس عاطف
الرعيد... لقد كنت أسمع دقات قلبه عندما كان يعترض سبيلكم بعض
الصعاليك قبل أن أدخل عالمك... شجاعتك هي التي كانت تنقذكم، ولو حصل
موقف واحد قدّر عليك فيه بعضهم لعرفت كم كان عاطف جباناً.... بل سنحتاج
إلى ثرية...

- ولكن كيف لثرية أن تساعدني في الانتقام... كيف ذلك... لن تقبل... إنها تبكي
عند موت أي ممثل في تلك المسلسلات الأمريكية والمصرية والتركية التي تدمن
عليها... لن توافق على مساعدتي... إنها تبكي الليل بأكمله عندما يفارق البطل
محبوبته عن سوء فهم...

بدأت الأمطار في المطول بغزارة فجأة وكأنها خيوط عنكب بيضاء عظيمة بالساحل، دخلت الذبابة فورد جيب الجاكيت الأحمر لمبارك تحت نظراته المستغربة قبل أن تقول...

- لا تتعجب... كان تسارع دقات قلبك يخبرني عن رغبتك بقتلي... لقد تغير الأمر... إنه مطمئن الآن... إنه ينتظر الكثير مني... وأنا أيضا أنتظر منك الكثير... دقات قلبك هي من ندهت علي لأختبئ قرب صدرك بالجاكيت... هذه هي البداية الحقيقية أيها الغول الصغير.... أعدك أنك ستصبح غولا كبيرا... سنلتهم العالم.. سنغير وجهه للأبد...

ابتسم مبارك وبدأت على ملامحه خسة الشياطين من الإنس لأول مرة بحياته البائسة تحت الأمطار القوية ثم عادت عيونه إلى بريقتها وقد اختفى الاحمرار الذي امتلأت به عروق قرنيته الدموية قبل أن يقفز بين الوحل والصخور الساحلية متجها نحو بيت العجوز حيث سيخبره فورد بالخطوة الأولى نحو المجد والقوة والجبروت والسطوة...

قال محدثا نفسه، الأحلام البسيطة لا تليق إلا بالبسطاء، ولا شيء أسوء من أن تكون موضع حديث الناس أكثر من أن تكون تافها بحيث لا تكون موضع أي حديث.... الأحلام التي تفوق عنان السماء وحولها تطوف أحلى الأحاديث... تذكر قول الذبابة...

- العالم كله سيتحدث عنك مبارك وعن إنجازاتك العظيمة..

اصنع لنفسك أياما جميلة ولا تنتظر جمال أيامك من أحد....

خليل جبران جبران

البداية

دخل مبارك كوخه الصغير المظلم بالسطح ورمى الجاكيت ثم جلس على سريره الوسخ بعد أن طارت الذبابة بهدوء لتحط فوق التلفاز الصغير المنكسر وبدأ يعد لفافة الحشيش قبل أن يفاجأ بالذبابة تأمره بالتوقف...

- توقف.... هل تريد أن تمتلك عشرة آلاف درهم الليلة؟

نظر اتجاهها بتعجب ودار بذهنه المبلغ الذي لم تجرباً تخيلته يوماً على التفكير فيه.... عشرة آلاف درهم.... مبلغ لم يره سوى في الأفلام المغربية وبعض دعايات البنوك بالقنوات الوطنية أحياناً، ثم أجاب بعد سهو وسباحة في الرقم الذي لم يكتبه يوماً منذ طرد من المدرسة...

- نعم... أكيد... كيف نحصل عليه؟

- ستحصل عليه الآن إذا توقفت عن تدخين ذلك السم...

ردّ بسرعة....

- نعم... سأتوقف... لن أدخن الحشيش اليوم... كيف نحصل على المبلغ؟

- لا صديقي... ليس المطلوب أن لا تدخن الحشيش اليوم... بل المطلوب أن تتوقف

نهائياً عن التدخين... سنحتاج إلى عقلك صافياً فطنا واعياً ذكياً... الحشيش يجعلك

غيباً ولن يكون لنا مستقبل مع عقل غبي...

طأطأ رأسه الى الأسفل ببطء ثم يمينا ويسارا...

جالت داخل رأسه أنه أمر صعب... حياة بدون حشيش... وبعدها يأمره بأن لا

يشرب النبيذ مع ثرية... وبعدها قد يأمره بعدم معاشره العاهرات التائهات اللاتي لا

يجدن مأوى بمحطة السفر ليلاً.... ثم ماذا بعد.. قد يأمرني أن لا أستمني حينها تكاد
مثاثتي تنفجر... ما هذا الهراء...

- كيف ذلك... ما دخل الحشيش بالمال.. ألم تقل أن ليس للأخلاق دور فيما تصبو
إليه...

- نعم لا دخل للأخلاق بما أنت مقبل عليه... لكن الحشيش سيكون عائقاً كبيراً
أمامنا... أحْتَاج لكل ذرة من كيائك وعقلك لكي ننجح... لن تتمكن من الانتقام
وأنت مخمور وأنت مغفل... لن تستطيع تنفيذ المهام التي سأوكلها لك.. اليوم
ستحصل على عشرة آلاف درهم وغداً على مائتي ألف دولار نقداً...

فتح مبارك فاه ببطء... سال منه لعبه وتساءل مرة أخرى...

- كم تساوي مائتي ألف دولار يا حشرة؟؟؟؟؟؟

- مائتي ألف دولار تعني تقريباً مائتي مليون سنتيم مغربية...

ضحك الغول ورمى ببقية جسده على السرير المتسخ الأسود وقال وهو ينظر إلى
المصباح المدهون بطلاء أحمر والمعلق بسقف الكوخ....

- مائتي مليون سنتيم... يجب أن أستشق الحشيش صديقي فوراً... أنت تضطرنني
لذلك... الحشيش هو من سيخبرني عن كيفية إنفاق هذا المبلغ...

- ولماذا لا تنفقه وأنت واع... لماذا لا تنفقه وتستمتع به مع ثرية دون حشيش...
الحشيش تدخنه لينقلك للعالم الآخر الكاذب... أنا سأنقلك لعالم حقيقي... كل ما
أطلبه منك هو الوعي..

وقف الغول بسرعة وضغط اللفافة بيده بقوة ثم بسطها ليتساقط غبار التبغ من باحته
قبل أن يقول بصوت حاد مسترسلاً.....

- موافق.... موافق.... موافق.... موافق.... أين المال... متى نبدأ؟؟؟

صمتت الذبابة ثوان معدودة بدت كساعات لمبارك ثم قالت...

- سنبدأ الليلة والآن... عليك أولاً أن تدخل غرفة ثرية الآن... إنها تبيت الليلة مع زبوننا الذي سمعتها تحدث صباحاً... مفتاح الغرفة الثانوي موجود فوق القصدير الحديدي على الباب... أحياناً وهي سكرانة بعد العودة... تخشى ثرية أن يضع منها...

- لكن ما الذي سأفعل في غرفة ثرية؟؟؟؟

- نسيت صديقي الغول الصغير أن أخبرك بالشرط الرئيسي في علاقتنا...

- أي شرط؟؟؟

- لا تسألني بعد اليوم عن أي أمر يصدر مني لأنه سيكون مضية للوقت لا غير... أنت تعلم الآن أنه من المستحيل أن أعرض حياتك للخطر مغبة أن أصير وحيداً لمئات السنين في المستقبل... يجب أن تنفذ الأوامر دون تردد صديقي... ويجب أن تعلم أن لكل شيء ثمن...

أصبح مبارك ينصت للحشرة بخشوع وكأنها خطيب جمعة.... مائتي مليون سنتيم... لقد أصبحت تدعى الذبابة فور قدس الله سرها في كيانه...

- موافق... موافق... ما المطلوب الآن؟؟؟

- تحسس القصدير... تناول المفتاح... أدخل الغرفة... ستجد على ناصية المطبخ فوق الفرن الأحمر قنينة زجاجية صغيرة عليها رسم حبوب قهوة بها مسحوق أزرق... خذها وعد...

دخل مبارك الغرفة ولأول مرة يكتشف معنى الأناقة والنظافة، لم يتجرأ على أن يطل برأسه داخلها يوما وهو يأخذ كوب الشاي الصباحي من يد ثرية، إنها غرفة جميلة وأنيقة على صغرهما... رائحتها عطرة... سرير ثرية التي تحب اللون الأحمر رائع... زهور بلاستيكية رغم ثمنها البخس فإنها تدب الحياة بالغرفة... هكذا هي النساء... لأول مرة يفهم أن حياته عفتة أكثر مما كان يتخيل... لأول مرة يعترف أنه ومعشر الذكور أقرب للقردة كَمَا وكيفا، كيف لتلك الجميلة أن تهتم به وتحذته وتسأل عن أحواله دائما... لطالما تحدث إلى ثرية ولكنه لم يرها كاليوم... الآن تبدو ثرية جميلة في عيونه... أو ربما سعادته بالمائتي مليون سنتيم لعبت بدماعه.. ربما هي سكرة المال القادم.. لكن تبقى ثرية كائن رقيق بعيد بسنوات ضوئية عن مبارك الشاب المراهق الذي يدمر حياته القذرة أصلا... لم يسبق له أن ضاجعها قط... ولو طلب ذلك لوافقت... إنه متأكد من ذلك... رغم وجهه ذو الجداول والأخاديد المرقعة، لكن ثرية تستظرفه وتحب رفقته وشرب الخمر معه، كان المتنفس الوحيد للغول هو الجنس ثم الجنس ثم الجنس.. لم يكن لديه شيء يُسعد به حياته التافهة غير الجنس مع التائهات بالمحطة الطرقية ليلا عندما يبحث عن فراش يقضين فيه الليل دون أجر... كان أجر الغرفة هو الجنس مع مبارك... لكن ثرية كانت بالنسبة له شيء آخر لا يستطيع تحديد هويته.. كما أنه كان يخشى أن يدمر الجنس علاقته معها كما حصل مع كل من رغب بصحبتهم يوما.. ورائحة غرفة ثرية ليست كرائحة النساء التائهات التي كانت تجود بها عليه المحطة الطرقية... هنا توجد نفحة من شيء لم يطرق بابه يوما... ربما هو الحب... كلمة بعيدة عن خيال مبارك بملايين الكيلومترات..

عاد إلى فوررد بعد أن أغلق غرفة ثرية وأعاد المفتاح إلى مكانه ثم سأل...

- والآن؟؟؟؟ ماذا أفعل؟؟؟

- خذ ذلك السكين الأسود الصغير فوق طاولتك...

أراد مبارك أن يسأل لماذا... لكنه تذكر الشرط...

- حاضر...

طارت الذبابة نحو الدرج المظلم ثم طلبت منه أن يتبعها بهدوء...

نزل حتى وصل إلى البيت السفلي ثم توقف أمام نافذة صغيرة على يمين الباب حيث وقفت الذبابة...

- ادفع الجهة اليسرى من باب النافذة بكلتا يديك... حاول أن لا يصدر الدفع صوتا...

همس مبارك بصوت خافت...

- إنه بيت العجوز... ماذا إن أطبقت علينا الآن؟؟؟

- ألم أخبرك بأن تنفذ الأوامر دون تردد...

دفع الجزء الأيسر من النافذة وهو يقول بصوت خافت دائما...

- حاضر... نسييت... حاضر..

كان قفل النافذة مهترئا من الجهة اليسرى، فما إن دفع مبارك بيديه حتى فتحت النافذة...

- تسلل بهدوء نحو المطبخ، ستجد ابريق حليب صغير فوق الفرن، أفرغ كل ما بالقنينة داخله... أغلقه...

- وماذا بعد؟؟؟

- نفذ ولا تسأل...

- حاضر... حاضر...

دخل بهدوء، سكب المسحوق بالإبريق وأغلقه...

- والآن؟؟؟

طارت الذبابة نحو غرفة العجوز المظلمة وحطت على السرير ثم دعت مبارك...

- إلى هنا... أخرج السكين من جيبك... ارفع السرير.. ستجد صندوقاً خشبياً صغيراً ملفوفاً بثوب أخضر مربوط بالعمود الحديدي تحت السرير... مزق الثوب بالسكين وخذ الصندوق وأعد كل شيء إلى مكانه...

نفذ مبارك كل ما أمرته الذبابة، قطع الثوب الأخضر وأمسك الصندوق الخشبي الصغير من قبضته الحديدية الصدئة ثم خرجا معاً من بيت العجوز، أغلق النافذة الصغيرة وعاد إلى غرفته وكأن شيئاً لم يكن... جلس على سريره المتسخ..

- ماذا الآن؟؟ ولا تقل لي لا تسألني... لقد نفذت كل ما أمرتني به... ولكن يجب أن أفهم ما يجري... كم بالصندوق من المال؟؟؟؟؟؟

حطت الذبابة على رأس مبارك ثم قالت...

- نعم الصندوق به المال... لكن ليس المبلغ الذي وعدتك...

- لا يهم... كم تقريباً؟؟؟

- بل مهم جداً... الصندوق يحتوي على أربعة عشر مليون سنتيم... يعني أضعاف الرقم الذي وعدتك عشر مرات وأكثر... ستأخذ منه المبلغ الذي اتفقنا عليه والباقي سنحتاجه لنتنقم لنفسك كما وعدتك...

- أربعة عشر مليون سنتيم... أستطيع أن أكتري بيتاً آخر... سأخذ ثرية معي...

- لا صديقي... لن تكتري بيتا آخر... لن تستطيع ذلك... العجوز ستموت الليلة بالسم الذي وضعته بحليها... سم فئران... وأنت وثرية ستتحولان إلى مجرمين الليلة... لقد بدأ الانتقام.... ألم تكن ترغب بقتل العجوز... لن يكتشف أحد أمرها إلا بعد أن تتعفن جثثها.. أي بعد أسبوع من الآن.. أسبوع هو الوقت الكافي لتنتقم من الصعلوكين قاتلي صديقك عاطف ثم نختم بقتل مغتصب الأطفال... عمك.... وبعدها ستحصل أنت وثرية على مائة ألف دولار دفعة واحدة... سنغادر بعدها المغرب نحو محطتنا القادمة..

تسمّر مبارك دقائق أمام كلمات الذبابة واختلطت عليه مشاعر السعادة بالمال مع الخوف من السجن والزج بشرية في دوامة الإجرام ثم تساءل مع نفسه هل هذا هو ما كان يرغب به... هل القتل والانتقام سيجعلانه سعيدا؟؟

ورغم أن موت العجوز الحتمي لم يحرك فيه شيئا لكنه تفاجئ بنفسه لأنها لم تخف بعد ما سمعته من الذبابة، اكتشف أنه لطالما رغب في ما يشاهد وأنه كان ينتظره بحركات صبيانية من سرقة تافهة هنا وهناك... قمار وحشيش وخمر... كان يسرّع وتيرة الانتقام من نفسه فقط... لكن الأمر مختلف الآن... لقد سنحت له الظروف الآن من الانتقام من الغير وليس من نفسه.... فما المانع؟

قال مخاطبا نفسه، فليذهب الجميع إلى الجحيم، فلا أحد يعرفه كما عرفه، ولا أحد عاشه معه، لماذا لا يذوقون من نفس الكأس؟؟... لماذا؟؟؟

قام مبارك وعلى شفثيه ابتسامته الجديدة قبل أن يقول...

- فلتذهب العجوز إلى الجحيم.. إنها تملك كل هذا المال ومع ذلك ما زالت تتسوّل أمام أبواب المساجد... تبا لها وللمصلين الذين يتصدقون عليها أيضا أكاد أموت

جوعا هنا لأنني أفضل أن أسرق على أن أتسوّل... تبا لهم جميعا... أتمنى أن لا نتخذلنا
ثرية... أنا معك يا فوردي وإلى الجحيم هذا العالم كله... هل يمكن أن أطلب منك
معروفا؟

استغربت الذبابة، فمبارك لم يطلب منها شيئا منذ عرفها وهذه أول مرة سيخرج ما
بصدره... ثم أجابت..

- أكيد صديقي... أنا هنا من أجل تحقيق كل رغباتك...

أغمض عيونه... هز رأسه إلى الخلف... بسط ذراعيه وكأنه المسيح على الصليب قبل
أن يقول بصوت جوهري مرتعد...

- أريد أن يكون الانتقام من الكلب عمي خارج قوانين الرحمة والزمن وكل ما تعرفه
البشرية إلى اليوم يا فوردي... أريده انتقاما أسطوريا يبقى في ذهن ملايين البشر...
أريده انتقاما مرعبا... هل هذا ممكن؟

صمت فوردي لثواني ثم قال:

- أعترف أنك فاجأتني بطلبك... نعم ممكن... ولكن... هل لك من الطاقة ما يكفي
لتكامل في هذا الطريق... إنه مؤلم وليس سهلا كما تظن

هز مبارك رأسه ببطء وهو ينظر إتجاه الذبابة مع ابتسامة تنذر بالموت وتدل على أنه
مصمم على رأيه قبل أن تعلق الذبابة...

- إذن فلتستعد إلى ما أنت مقبل عليه... يبدو أنك مبارك فعلا.. أنت هدية من
السماء..

سيستفيق العالم يوما على إحدى أجمل قصص رد الجميل... لقائنا غدا يا صديقي..
يجب جلب بعض المعلومات التي سأحتاجها لأجعل أحلامك حقيقة... لقد تأخر

الوقت... عليك بالنوم... ينتظرك الكثير من العمل غدا... نلتقي صباحا صديقي
مبارك... سيرتعد العالم تحت أقدامك أيها القيصر الأعظم..

عندما يكتمل وعي الانسان وإدراكه للحياة، إما أن يعيش في الصمت إلى الأبد، أو
يصبح نائراً في وجه كل شيء..... كل شيء....

دوستويفسكي

الجميلة والوحش

ساح مبارك في المستقبل المجهول الذي بات يرى أبوابه تفتح أمامه..
 فكر في شروط الذبابة فورد التي تقضي بتنفيذ الأوامر دون تردد..
 همس لنفسه أن كل ما كان يحلم به هو الهروب من الواقع المظني والمؤلم الذي لطالما
 ظن أنه لن يتمكن من التخلص منه... ولكن.. تغير الأمر الآن..
 فكر في كونه تحول إلى مجرم بعد أن كان مجرد لص صعلوك..
 ثم قال مخاطبا كيانه بأنه لم يتحول لمجرم بعد.. بل ما زال بإمكانه النزول لغرفة
 العجوز وإنقاذها..
 كما أنه لا يستطيع تحمل عقوبة السجن مدى الحياة..
 ولكن الذبابة وعدته بالكثير الكثير.. والعجوز عاشت بما فيه الكفاية... إنه دوره
 الآن..
 هل ينقذها ويتحول لمجرد لص وينقذ ثرية من مصير مجهول؟
 هل يتركها تفارق هذا العالم ليدخل عالما جديدا؟
 كان الجواب الذي يصير عليه عقله الباطن هو.... العالم الجديد...
 ترددت بذهنه دعاية لشركة اتصالات شهيرة بالمغرب...
عالم جديد يناديكم.....
 صرخ ليحسم الأمر مع نفسه.... نعم أريد هذا العالم... نعم أريد هذا العالم...
 الذبابة أخبرته أن أحلامه يمكن تحقيقها جملة وتفصيلا، ورغم أنه لم يكن يعلم شيئا
 عن الثمن الذي سيدفعه مقابل ذلك الحلم، إلا أنه كان يجيب روحه المشتاقة للسعادة
 بأنه يستحق كل شيء..

ثم تساءل...

- ما الذي أملكه لكي أدفعه ثمنا للمال والانتقام... روعي.. لا أملك روحا لقد

اختفت مع ذلك الوحش وأنا طفل... ما الذي ستطلبه الذبابة؟؟؟

لا أملك غير حياة واحدة وحيدة لا قيمة لها أمام ملايين البشر على كوكب الأرض...

كان مبارك يسبح بأفكاره ويتساءل وحيدا بغرفته قبل أن تفتح ثرية الباب

مضجـرة بدمائها على الجانب الأيسر من وجهها وهي لا تستطيع المشي

معتدلة قبل أن يغمى عليها وسط الغرفة...

ارتبك مبارك قليلا بعدما تفقد وجه الجميلة ثم تمالك أعصابه، دسّ المبلغ وسط

كيس بلاستيكي صغير في جيب الجاكت بسرعة وحمل ثرية بين ذراعيه ونزل الدرج

ثم خرج من منزل العجوز والدماء تتقاطر خلف خطواته حتى وصل الشارع،

وضعها أرضا ثم لَوَّح بيديه لسيارة الأجرة الأولى والثانية والثالثة دون جدوى، لم

تساعده ملامحه ولا شكله وهندامه في الحصول على المساعدة، اضطر لحملها على كتفه

والمشي بخطوات سريعة نحو المستشفى، كان يبدو في تلك الليلة على جنبات الشارع

كذئب ضال يبحث عن مكان يفترس فيه نعجته إلى أن استوقفه شاب وسيم بسيارة

مرسيدس بيضاء رباعية الدفع كان يظن أن الفتاة فوق كتف ذلك المتشرد مختطفة،

وبعد أن تين له أنها تحتاج للإسعاف توجه بالجميلة والوحش إلى المستشفى الحكومي

محمد الخامس وسط المدينة قبل أن يطلب مبارك من الشاب الوسيم أن يغيّر الوجهة

نحو مصحة السعادة الخاصة أمام تعجب الأخير الذي تساءل...

- لن يسمحوا لكم بالدخول يا هذا قبل الدفع... هذا إن لم يبلغوا الشرطة عنكم

مباشرة بعد الدخول؟؟؟

مسح مبارك بيده على وجه ثرية الملوّن بالدمّ وسكت برهة ثم رد قائلاً...
- لا عليك... لدي ما يكفي لأدفع ثمن علاجها.. شكرا على اهتمامك.. أظن أنهم

سيسمحون بولوجنا إن دخلت معي... هل يمكنك إتمام جميلك؟
لم يرفض الشاب الوسيم طلب مبارك كما أنه ساعده في إدخال ثرية إلى المصحّة،
ورغم ذلك جال بخاطر مبارك إحساس غريب إتجاه الشاب الذي كان يساعده، لقد
شعر بكره ومُقت شديدين إتجاهه دون سبب، تساءل حينها عن ذلك الشعور وتأكد
له أنه الحسد والغيرة والغبطة، لماذا يملك هذا الشاب جمالا ومالا وحسن خلق في
نفس الوقت، هذا هو السبب يقينا، لماذا لا أملك مثله مالا وتعلما وسيارة رائعة
ومحوبة وأخلاقا، ما هذا الظلم الذي يحيق بهذا العالم...

سمح الدفع المسبق قبل ولوج المستعجلات إلى السكوت عن كل شيء، فلم يسأل
الطبيب المداوم عن نسب مبارك وقرابته من ثرية رغم أنه لا يملك بطاقة تعريف
وطنية قبل مباشرة العملية الجراحية التي دفع ثمنها نقدا.

كانت الجميلة ثرية تحتاج إلى عملية زرع الأذن اليسرى بعد أن تم بترها بالكامل
تقريبا وصارت متدلية وقاب قوسين أن تسقط، انتظر مبارك الليلة بأكملها قرب
غرفة العمليات وهو يتساءل عن غياب الذبابة فوردا، فمنذ ظهرت أول مرّة لم تعب
عن أي حدث مهما كان تافها، وها هي تغيب عن أمواج من الغضب التي تحتاجه
وهو ينتظر بحرقه مصير ثرية قبل أن ينام من شدة الإعياء..

أيقظته الممرضة في الصباح الباكر وأخبرته بأن العملية تمت بنجاح ولكن ثرية فقدت
القدرة على السمع فيما يبدو بأذنها اليسرى إلى الأبد وأن بإمكانه أن يزورها بعد أن
يغادر المخدر عروقها.

لم يبال مبارك بثمان العملية الجراحية التي كلفته سبعين ألف درهم، كان يفكر فقط بسلامة ثرية التي أخبرته الذبابة أنها ستصبح شريكته في المستقبل الذي ينتظره بحرقه كما ينتظر أن يعرف ما حصل على لسانها، مرت ساعات أخرى قبل أن تستيقظ من البنج وتعانقه بدموع لا تتوقف وكأنها وافقت مسبقا على الرحيل معه نحو ذلك المستقبل الذي لا تعلم عنه شيئا..

أخبرته أن الزبون الذي أمضت معه الليلة رفض الدفع بعد قضاء حاجته وأنها تراشقت معه السب والشتم قبل أن يفقد أعصابه بسبب السكر ويفعل ما فعل وكأنه ينتقم من زوجته التي كانت تنخص عليه حياته... وها هو قد نخص عليها حياتها وحوّلها لمعاقة من السمع بأذنها اليسرى.

همس مبارك في أذنها السليمة وهو يعانقها...

- سنرحل بعيدا عن هنا ثرية... هل توافقين على الرحيل معي؟

استغربت من طرحه رغم دموعها وسألته وهي تمسح تلك القطرات الساخنة من على خدودها..

- أين سنرحل؟ ليس لدي مكان أوى إليه غير تلك الغرفة وليس لدي ما يكفي من

المال لأرحل يا مبارك... وأنت أيضا.. أين سنرحل؟؟؟

- لا عليك ثرية... لقد كتتي محقة فيما يخص الجن الذي أتحدث معه... الجن الذي

أخبرتني عنه سيساعدنا.. إنه مسالم... لقد أخبرني أن شأننا سيكبر إن رحلنا من هنا..

لقد أخبرني أنني سأحتاجك في المستقبل... لقد دفع تكاليف العملية الجراحية وهو

مستعد لمساعدتي بشرط أن نرحل سويا..

عمّ الصمت الغرفة بعد الذي سمعته ثرية من لسان مبارك ثم قالت..

- هل هو مسلم؟؟ الجن الكافر طريقه مسدود...

تردد مبارك قبل أن يجيب...

- أه...أه...أه... نعم إنه مسلم.. لقد أخبرني بأني الوحيد الذي يستطيع أن يسمعه وأنه يجنني ويحبك أيضا.. إنه لا يريد أن يبقى وحيدا... لقد وعدني أننا سنصبح أغنياء إن رحلنا من هنا..

سكتت ثرية مرة أخرى وبدا عليها وكأنها تبحث عن أسئلة أخرى...

- لكن.. يجب... ماذا لو... هل... لا.....

.....

.....

.....

حاضر... موافقة لنرحل... أيا كانت وجهتنا فأنا متأكدة أنها ستكون أفضل من هنا...

ثم تدخلت الذبابة فورد فجأة على مسامع مبارك...

- لو كانت لدي أيدي مثلكم لصفقت بحرارة على ردة فعلك أيها الغول الصغير.. لقد أثبت أنك ستكون على قدر المسؤولية في المستقبل... كنت سأساعدك من أجل إقناعها بطريقتي لكنك اختصرت علينا هاته الخطوة... وبشكل محترف... هل تريد أن نضيف من اعتدى على ثرية بقائمة الانتقام؟؟

سكت مبارك ولم يبالى بحديث الذبابة وكأنه لم يسمع شيئا بل توجه في الحين بسؤال ثرية..

- هل ترغين بالانتقام منه... الجن يقول أنه سيأخذ حقك إن رغبتى بالانتقام؟

نظرت نحوه ثرية والذهول يعتري وجهها الشاحب ثم أشاحت بخدها عن مبارك... صمتت قليلا... ثم قالت..

- لا... لا أرغب بالانتقام من أحد.. أنا المذنبة.. أنا من يجب عليه تحمل المسؤولية.. ليس ذنب ذلك الخائن ولكنه ذنبي... أنا من استدرجته ابتغاء دريهمات حقيرة.. أنا من باعت جسدها بثمن بخس... أنا أستحق ما حصل لي... لا أريد الانتقام يا مبارك.. أخبر الجنى أي أريد الرحيل الآن... وقبل أن نرحل أود منك أن تجلب لي خاتم فضة أسود بغرفتي... إنه آخر ذكرى لي من أُمي بعد أن دعنتي لهذا العالم الحقير قبل أن ترحل...

سمع مبارك الذبابة تسخر ثم تعجب من المخلوق الذي يدعى إنسان وكيف أنه غريب الأطوار وأنه يلزم نفسه دائما بأشياء يعتقد بها ولا يحيد عن طريقها في كلا الاتجاهين، فإما يظن أنه يزكيها وهو في الأصل يرتكب حماقة أو يظن أنه يحميها وهو يخزيها بارتكاب نوع آخر من حماقة ويتشبث بكل ما هو تافه ويضفي عليه قيمة مزورة إرضاء لغبائه... ودائما تكون النتيجة واحدة بسبب الجهل بالمعلومة..

لم يرد مبارك على ما حسبه خزعبلات الذبابة بل أكمل حديثه مع ثرية دون أن يكثرث لفوردد..

- حاضر ثرية... لكن لن نرحل الآن.. لقد قال الطبيب أنك تحتاجين للمزيد من الراحة وأن من الضروري إجراء بعض الفحوصات الأخرى قبل أن يأذن بخروجك... سأتركك الآن... لدي أشياء يجب القيام بها مع الجنى قبل أن نرحل... نحتاج للكثير من المال ثرية..

ثم قام مبارك بتصرف لم يلق له بالا، لكنه كان ذو أثر عظيم بقلب ثرية...

لقد قبلها على جبينها وكأنها أمه التي وضعت له لتغمض بدورها عينها وتتساءل الأخيرة عن آخر من فعلها في مجلد حياتها... بحثت طويلا في صفحات حياتها عن آخر من قبلها على جبينها وهو يهيم بالخروج... لكنها لم تجد... لم يقبلها أحد بتلك الطريقة حتى وهي طفلة.. لم تفعلها أمها لأنها توفيت بعد أن وضعتها ولم يفعلها أبوها فقيه المسجد بالدوار البعيد عن مدينة آسفي بثلاثين كيلومتر طيلة الخمسة عشر سنة التي قضتها مع زوجته الثانية والثالثة، لقد اكتشفت أن الكثير من الرجال قبلوا كافة جسدها وأن أول قبلة حقيقية تحمل بين ثناياها إحساسا آخر غير تلك الشهوة الحيوانية كانت قبلة الغول مبارك...

كانت أول قبلة تحس بها ثرية تتدفق حرارتها من على جبينها نحو سائر عروقها ودمائها لتقرر أن مستقبلها لن يكون بدون مبارك الذي ستدخل معه العالم الجديد دون أن تعلم أنها مقبلة على تغيير العالم بأكمله للأبد.

اجعل الرداءة نعم حتى تصبح عادية ثم مستساغة ثم مطلوبة.....

نعوم تشومسكي

التعليمات

خرج مبارك من المستشفى رفقة الذبابة في صباح ذلك اليوم القار نحو محل لبيع الهواتف الذكية، وما هي إلا لحظات حتى كان بحوزته ثلاث هواتف من أفخم ما جادت به التكنولوجيا الحديثة بقيمة ثلاثون ألف درهم، اثنان من نوع الآيفون والثالث من نوع جلاكسي وذلك تنفيذا لأوامر فورد دون أن يسأل عن السبب، لقد عزم مبارك على الرحيل مع ثرية وكان من كمال عزمه أن لا يسأل الذبابة عن شيء ابتغاء عدم تضيق الميزانية من الوقت، ولم يسأل أيضا فورد عندما أمره بالبحث عن عزوز وعبد اللطيف..

لم يعد يسأل الذبابة لأنه أصبح متأكدا من أنها تعلم يقينا ما تفعل وأن أحسن ما يمكنه أن يقوم به هو التنفيذ دون تردد...

توجه نحو أشهر وأوسخ مقهى بالمدينة القديمة حيث يمضي أصدقاؤه الصعاليك معظم وقتهم في القمار وتدخين الحشيش وبيع عقاقير الهلوسة لشباب آخر ينتظر أغلبهم مستقبل مظلم، وما هي إلا بضع دقائق حتى كان عزوز وعبد اللطيف يجلسون على الصخور الساحلية قرب أمواج البحر التي تنكسر بعيدا عنهم بعشرات الأمتار ينصتون لمبارك بخشوع وكأنه نبي مرسل، أخبرهم تنفيذا لتعليمات الذبابة بأنه حصل على جزء من كنز العجوز التي يكتري عندها كوخه الصغير بالسطوح، والتي تقدر حسب علمه بمائة ألف درهم، سرق منها عشرين ألف والباقي تحبئه العجوز بمنزلها الثاني بمدينة الدار البيضاء الكبرى، وكدليل على صدق كلامه اشترى لكل منها أغلى هاتف بالسوق وذلك من أجل أن يساعده في سرقة باقي المبلغ، وأيضا كعربون محبة، كما اعتذر قبل ذلك عن تصرفه بالميناء والذي كان نتيجة تعاطيه لجرعة

زائدة من عقاقير الهلوسة، وبالطبع لم يكن للصعاليك الأغنياء أن يرفضوا العرض أمام المبلغ الذي سحر عقولهم قبل الهواتف الباهضة الثمن، لقد حوّلهم في دقائق بسحر المال إلى دمي يمكن تحريكها كيفما شاء ومتى شاء بعد قبول اعتذاره، ثم حدد لها الوقت الذي أمره به فوراً قبل أن يطلب منها بطاقة التعريف الوطنية خاصتهما، قال قبل أن يفارقهما..

- الغد على الساعة السابعة صباحاً قرب مصحة السعادة الخاصة..

تساءل عزوز عن السبب وراء رغبته في بطاقتيها الوطنية ليجيبه بأنها لتفعيل هواتف الآيفون التي اقتنى لها.

وقبل أن يفارقهما أخبرهما أن الاتفاق سيلغى إذا ما أخبرا به أحداً وأن مبلغ المائة ألف درهم سيضيع عليهم إلى الأبد ليتأكد من عدم تسرب المعلومة قبل الانتقام.

تفاجأ مبارك من هدوءه وورزائه وكذلك من التنسيق الذي أصبح يأخذ طابعا احترافيا حيث لم تعد تعليقات الذبابة تزعجه أثناء تنفيذ سابقاتها، كما أن أغلب أفكاره وحواراته صارت ارتجالية بحيث أصبح مستحيلا أن يشك مخاطبه بأنه يتلقى إشارات وتعليمات جديدة في قلب حديثه وينفذها دون أدنى مجهود...

وأيضا فاجأه صبره... نعم.. الصبر الذي لم يكن له وجود بقاموس أخلاقه، لم يصبر مبارك يوما على نزوة أو غضب أو أي شيء كان بإمكانه تنفيذه بدل تأخيرها للغد، وها هو اليوم يتناسك أعصابه ولا يصرخ ولا يعربد طلبا للانتقام من الصعاليك قتلة صديقه، بل تصرف بحكمة كما طلبت الذبابة فوراً.

توجه إلى أحد بائعي شرائح الاتصال المسبقة الدفع والمفعلة دون الإدلاء بأي معلومات عنه، لم يكن الأمر يحتاج إلى أكثر من عشرين درهما رشوة ليتّم تفعيل

الشريحة الجديدة باسم مضروب ثم شحنها بباقة غير محدودة من بيانات الأترنت ودائماً تنفيذاً لتوجيهات الذبابة فوراً، ثم طلبت الأخيرة من مبارك الذي لم يكتب قط منذ تم فصله من أولى إعدادي على أي ورقة أو هاتف، بل كانت معظم رسائله صوتية كأغلب الأميين، لكن الأمر اختلف اليوم، طلبت منه الذبابة الجلوس بمقهى جميل وهادئ بالحي الإداري وسط المدينة الجديدة واحتساء قهوة لمزيد من اليقظة ثم الدخول إلى موقع أترنت عبر هاتفه الجديد بعد تثبيت برامج مجهلها، وأملت ما توجب عليه كتابته حرفاً حرفاً، دقت معه بكل صغيرة وكبيرة.. أسماء المواقع.. رقم الهاتف الجديد.. المبلغ... السلعة... مكان اللقاء... الثمن... أين... وكيف... اسم العميل... الرقم السري...

د... ك... س... ت....ر

استغرق الأمر قرابة الأربع ساعات دون أن يعي مبارك حرفاً مما كتب أو ما توصل به على هاتفه، كان يبعث برسائل الذبابة ويردّ بحروف لاتينية ينقرها دون أن يعلم كنهها ولا مع من تبادل أطراف الحديث عبر تلك المواقع التي كان يغلب على واجهتها اللون الأسود وبعض الأيقونات الحمراء المجهولة أيضاً بالنسبة له قبل أن يُبحر بمواقع أخرى وينهي حواراته دون أدنى فهم لما تكتب أنامله.

رغم أن مبارك لم يعد يسأل الذبابة عن المغزى من تعليماتها وتأكدّه من أن أيّ سؤال سيكون فعلياً مضيعة للوقت، إلا أنه كان يحس بجسامة ما هو مقبل عليه مع الذبابة دون الغوص في تفاصيل التعليقات، لقد أوغل نفسه في بحر المستقبل الذي يسعى إليه ولم يعد يهتم بالطريقة والوسيلة ولكنه حوّل كلّ تركيزه على الهدف وردّد بصوت مرتفع داخل أعماقه....

الهدف... الهدف هو المهم.. لا شيء يهم غير تحقيق الأحلام التي وعدني بها فور..
 لم يتبقى مع مبارك سوى مبلغ أربعون ألف درهم أمرته الذبابة أن يتوجه إلى أقرب
 وكالة ويسترن يونيون وأن يبعث بثلاثين ألف إلى المدعو (ديفيد ريجيني) القاطن
 بالدار البيضاء وأن يدلي ببطاقة أحد أصدقائه الصعاليك ليتّم التحويل باسمه، توجه
 بعدها تنفيذا للتعليمات إلى حلاق مرموق وسط المدينة وبعد ساعة ونصف أصبح
 شكل الغول مقبولا بتسريحته الجديدة وبعض الماكياج والمسايق بدل الشعر
 الأشعث واختفت الهالة السوداء أسفل عينيه ثم اقتنى بدلة سوداء أنيقة مع ربطة عنق
 سوداء ونظارة شمسية انقضى مع الكل ذلك الحشاش الصعلوك ليحل مكانه
 شاب لا تحول بينه وبين وسامته غير تلك الجداول الصغيرة على وجهه..

و تحول الصعلوك إلى نصّاب صغير قبل أخذ صور فوتوغرافية باستوديو تصوير
 محترف والتوجه إلى بيت العجوز لجلب خاتم أم ثرية...

كانت تعليقات الذبابة مسترسلة وصارمة ولا توحى بالتردد أو التفكير، وكأنها معدّة
 سلفا منذ ملايين السنين ولا ينقصها غير التنفيذ...

توجّه إلى بيت العجوز وبعد أن فتح الباب اختلجه إحساس الفضولي الذي يريد أن
 يعرف مصير العجوز...

هل ماتت؟ هل ما زالت على قيد الحياة؟

تساءل بأنها قد تلفظ أنفاسها الأخيرة في تلك اللحظة ولم يقطع حبل تلك الفكرة غير
 الذبابة عندما قالت...

- لا أنصحك بالدخول إلى بيت العجوز...

وهنا تساءل الغول بعفوية..

- لماذا؟ ما المانع؟

- لا يوجد مانع... المهمة تمت بنجاح ودخولك لن يمنع موت العجوز وكل الدلائل والقرائن ستتجه نحوك أنت وثرية الأسبوع القادم وستكون تهمتكما القتل من أجل السرقة لأن إحدى بنات العجوز كانت تعلم بوجود المبلغ الذي سطوت عليه، كما أنك تركت قارورة السم بالمطبخ وعليها بصماتكما وأثناء دخولك تركت بصمات بكل أنحاء الغرفة والمطبخ، وحتى لو دخلت من أجل القارورة التي تدين ثرية فإن اختفائكما سي طرح تساؤلات والنتيجة معروفة سلفا... لذلك فدخولك البيت لن يفيد بشيء غير تحريك الراكد..

تساءل الغول مرة أخرى بتعجب...

- أي راكد؟

- الماء الراكد بداخلك هي مشاعر الشفقة والرحمة... قد تشفق على صديقك اللذان تقودهما إلى مصير ما زلت تجهله إذا ما رأيت جثة العجوز الملقاة بالمطبخ..... قد تشفق على صديقك عندما ترى الموت بعينها المتفتختين بقرنيتها التي صارت بيضاء وتجاعيدها الشاحبة والتي تبيس لسانها خارج ثغرها بحثا عن الماء وعن من ينقذها ساعات قبل أن يتحول لون وجهها وأيديها المعروقة المتشنجة الى الأزرق الداكن كدليل على الموت.. إنه نفس الموت الذي ينتظر أصدقائك بالدار البيضاء... إذا دخلت قد تراجع عن موقفك وقد تغفر لعمك مغتصب الأطفال أيضا... عمك الذي طلبت مني أن يكون الانتقام منه خارج قوانين الرحمة والشفقة... هل تذكر؟ فانظر ماذا ترى... لك كامل الحرية في قراراتك... وكل ما سنصل إليه لن يستقيم دونك أيها الغول الصغير.

أكمل مبارك خطواته على الأدراج المظلمة وكأنه يردُّ على الذبابة..

لقد رفض أن يتسلَّل ذلك الإحساس إلى قلبه...

رفض المغفرة والشفقة والتسامح... كان كيانه يحتاج للانتقام أكثر منه إلى التسامح والعفو...

دخل غرفة ثرية.. بحث عن الخاتم حيث أخبرته الجميلة ثم فتح صندوقا صغيرا قرب سريرها حيث كانت تحتفظ بصور فوتوغرافية مخصصة لتجديد بطاقة التعريف الوطنية خاصتها، التقط صور واضحة بهاتفه لثرية وصورته ثم بعث بالكل إلى العنوان الذي أملت عليه الذبابة، وضع الكل بجيب الجاكت قبل أن يترك حياته القديمة ثم ابتعد عن بيت العجوز وهو ينظر إلى خطواته البطيئة الثابتة دون أن يلتفت خلفه.

أخبرته الذبابة بأخذ عقاقير النوم التي وصف له الطبيب الذي زاره رفقة صديقه عاطف وسحقها لتتحوّل إلى غبار أبيض، وبعدها كتب عنوان عمه باسمه الكامل على ورقة صغيرة وأدخلها جيب الجينز، ثم أمرته بالتوجه نحو أرقى محل لبيع الخمور بالمدينة وشراء قنينة من ويسكي جاك دانيال وأخرى من نوع بلاك لا بيل وقنيتين من الفودكا نوع ابسلوت، أمرته بعدها بالعودة إلى المستشفى للمبيت قرب ثرية وأخذ القسط الكافي من الراحة لأن اليوم التالي سيحتاج الغول الصغير حسب تعبيرها إلى الكثير من اليقظة لإتمام المهام المنوطة به وأيضا لأنه سيحتاج إلى رباطة جأش وشجاعة حتى تتم أولى خطوات الذبابة لتغيير العالم.

ما يغيب عنك عظيم إلى أن تحيط به ليصبح عاديا أو تافها....

أوسكار وايلد

العمارة

كان الصعلوكان ينتظران الغول أمام المصححة في الصباح الباكر حسب الاتفاق، وبعد لحظات كان الثلاثة بالمحطة الطريقية للمسافرين على متن الحافلة التي ستقلع إتجاه مدينة الدار البيضاء، لم يكفّا عن طرح الأسئلة طيلة الطريق عن شكله وأناقته المفاجئة ومكان تواجد مال العجوز وخطة السرقة وكل تفاصيل العملية التي كان مبارك يرتجل في الإجابة عنها بمعلومات لا تمتّ لما أخبرته به الذبابة...

سمحت له الذبابة بالإبداع كيفما شاء في الكذب بعدما رآته يقنع ثرية بالرحيل، كانت مهمته تقضي بإيصاله إلى العنوان الذي حددته الذبابة حيث سيبيتون، لقد أخبرهم أن السطو على بيت العجوز سيتم بعد يوم من وصولهم.

كانت الذبابة تُوجه مبارك في كل تحركاته وسط المدينة بعد أربع ساعات من السفر، ورغم أنه لم يسبق وأن وطئت قدماه الدار البيضاء العملاقة فإنّه كان يتحدث مع سائق التاكسي الذي استقلّه وكأنه ابن المدينة أبا عن جد..

كان منبها بشدة من حجم المدينة وجمالها وأضوائها وشاشاتها العملاقة التي تعرض الإعلانات لتشكل لوحات فنية غير مقصودة بشتى الألوان وكأنه بإحدى المدن الأوروبية الجميلة التي لطالما شاهد في الأفلام العالمية، اندهش من جمال حدائقها الكبيرة على طراز الحدائق الفرنسية ومراكزها التجارية الضخمة وفنادقها الفاخرة وذلك المسجد العملاق على الساحل فوق الماء وأبراجها الخرافية وذلك الكورنيش الذي يدعى بعين الذئاب والذي لا نهاية له، تساءل مع نفسه عن السبب في إهمال مدينته ومحل نشأته، مبارك الذي كانت أبعد نقطة وصل إليها هي الدواوير والجماعات القريبة من مدينة آسفي والتي لا تبعد سوى خمسين كيلومتر على أبعد

تقدير، وها هو اليوم يحول أكبر مدينة بالمغرب حيث يتواجد بها قرابة ربع سكانه ويهاجر إليها الآلاف من الشباب الذين تركوا مدنهم وقراهم بحثا عن العمل ولقمة العيش...

و رغم أن أسئلته كانت موضوعية، إلا أنها أيضا كانت تافهة أمام ما كان يهيمن حقيقة على تفكيره... الانتقام..

أخبر صديقيه الوهميين حسب تعليمات الذبابة أن بيت العجوز سيكون جاهزا للسطو في اليوم التالي حسب معلوماته وأنها سيضطرون للمبيت بعمارة قيد البناء ضواحي المدينة وأنه أعد كل شيء مسبقا... ثم عرض على أنظارهم الخمر التي أقتنى من أجل ليلتهم والتي لا علاقة لها مع الخمر الرخيصة التي كانوا يحتسون قبل أن ينسوا ما قدموا من أجله.

كانت العمارة المقصودة تقع خارج المدينة على الطريق الساحلي المؤدي إلى (أزمور) في ملك أحد ذئاب العقار الذين ابتلعوا الدار البيضاء في الثمانينات من القرن الماضي، وقد توقف البناء منذ عشر سنوات خلت بسبب التلاعب والتزوير في الوثائق من طرف موظفين مرتشين بالجماعة الحضرية، حيث لم يكن مسموحا ببناء أكثر من خمس طوابق على تلك البقعة وتم تعطيل البناء من طرف الدولة بعد بناء الطابق السابع والحكم قضائيا بهدم الطابقين الغير مرخصين وبعد رفض المالك تنفيذ أمر المحكمة استأنف الحكم وبقيت العمارة تنتظر البث والقضية تتدحرج في قاعات المحاكم من تأجيل إلى تأجيل، كانت تلك هي العمارة المناسبة لتدابير الذبابة بامتياز.

بعد وصولهم العمارة تقدم مبارك إلى كوخ صغير من خشب على يمينها مرمي عليه العشرات من ألواح القصدير والأحجار، طرق الباب المثقب قبل أن يفتح له شاب

أشعث الرأس ببذلة زرقاء دليل أنه يعمل حارس السيارات بالمنطقة، ثم قال بصوته الخشن..

- أنا من طرف (ديفيد ريجيني)...

لم ينبس الشاب بكلمة واحدة، بل أغلق الباب بلطف عشر ثوان قبل أن يفتحه من جديد ويخرج أمام الثلاثة ويقول بصوت فيه تذلل... اتبعني سيدي...
تقدم الاثنان خطوات ثم أمسك عبد اللطيف مبارك من ذراعه بهدوء قبل أن يتساءل عن ماهية الموضوع ليجيبه بابتسامة غير معهودة...

- سنبيت هنا الليلة... الحارس سيكتري لنا أفرشة ننام عليها بالعمارة لأن بيت العجوز قريب من هنا... ولن يكون أمامنا الكثير من الوقت... يجب أن تكون العملية سريعة وخاطفة... ثم إن لدينا ما يكفي لنمضي ليلة حاملة قبل أن نحصد الملايين...

ابتسم عبد اللطيف ثم ضحك بغباء وهو يقول بصوته الثخين...

- هذا هو الغول الذي أعرفه... هذا هو صديق السجن الذي كنت أعرف..

لم يجبه مبارك بلسانه وهو يمشي وراء حارس السيارات ولكنه ردّ عليه في قرارة نفسه... الغول الحقيقي لم تره بعد صديقي العزيز... لم تره بعد..

كانت العمارة عبارة عن خرابة أسمتية كاملة الأوصاف، لم يكن هنالك ما يدل على أنها صالحة للمبيت حتى وصل الجميع إلى الدور السادس حيث كان الدور بالكامل لا يحتوي على أي غرفة، بل مجرد مساحة شاسعة جليّة الأركان بأكملها لهم جميعاً تتخللها الأعمدة الإسمتية فقط، وفي قلب تلك المساحة الشاسعة أربع كراسي جلدية سوداء طويلة ومتقابلة صالحة للنوم المريح توسطهم طاولة من زجاج كبيرة

عليها كؤوس من فضة وقارورة مياه معدنية.

استلقى الصعاليك دون تفكير فوق الكراسي الجلدية الرطبة بينما ابتعد مبارك عنهم ليشكر الحارس الذي عاد أدراجه فوراً دون كلمة، نزع الحقيبة من على ظهره وأخرج منها قنينة الويسكي بلاك لايبيل ثم فتحها قبل أن يدس بسرعة مسحوق العقاقير المنومة الذي جلب معه ثم أغلقها من جديد وتقدم نحو ضحاياه وقال:

- لقد اقتنيت لنا أجود الخمور لنحيي ليلة الصداقة قبل يوم الغد.. اليوم الذي سنصير فيه أغنياء... لقد نسيت أن أطلب من الحارس أن يجلب لنا عشاء يليق بما نحن مقدمون عليه غذا... سأجلب لنا عشاء فاحراً... سأعود بعد دقائق...

وضع زجاجة الويسكي فوق الطاولة الأنيقة إذانا منه ببداية الليلة قبل حلول الظلام أمام أياديهم المرتعشة وهي تمتد للكؤوس الفارغة لتملئها خمرًا ثم انصرف تنفيذًا لتعليمات الذبابة فورد...

نزل مبارك درج العمارة طابقاً طابقاً بخطوات بطيئة وهو يتساءل عن اللحظة الحاسمة... متى... كيف... أين... إلى أن وصل إلى كوخ الحارس الشاب الذي كان متعرقاً حتى ابتلّ شنبه النحيف، كان واقفاً متمسكاً بيديه وراء ظهره كجندي متأهب على الحدود التي ستشهد لا محالة حرباً قاتلة، كان وجهه يوحى بالخوف والرعب من الزائر الجديد...

مرت قرابة النصف ساعة على مبارك وهو واقف متصلب قرب الحارس إلى أن استقبل هاتفه رسالة عبر بريده الإلكتروني، وقبل أن يفتحها ويتلعثم لسانه بحروفها سمع الذبابة فورد تقول....

- إنهم قادمون... لقد حان موعد الانتقام أيها القيصر...

الدار السوداء

كانت عقارب الساعة على يد الحارس تقترب من السادسة مساءً قبل أن تتوقف ثلاث سيارات سوداء رباعية الدفع قربها ليرفع اللوح الخشبي المؤدي إلى موقف السيارات تحت العمارة، حاول مبارك أن يسترق بنظرات ثابتة ركاب السيارات الثلاث دون جدوى، لم يكن الزجاج المفحم يسمح بغير خيالات أشخاص لا زال يجهل حينها مغزى تواجدهم.

أغلق الحارس مدخل الموقف باللوح مرة أخرى ثم استأذن مبارك بالانصراف ويدها ترتعشان..

سمع مبارك الذبابة تأمره بالصعود الى الطابق حيث ترك صديقيه يحتسيان الويسكي قبل اللقاء الذي سيجمعه بالإيطالي (ديفيد ريجيني).

صعد تنفيذاً لتعليمات الذبابة ولكنه هذه المرة ركض بأسرع ما يمكن أن تسمح له به قدماه، صعد بسرعة وكأنه أحس بأن الانتقام سيضيع منه إن هو تأخر أو تباطأ قليلاً، ثم تمالك نفسه قبل أن يبلغ الدور الأخير والحاسم وقال لنفسه ساخراً منها...

- إنه الخوف... إنه الخوف يا عبيط... تمالك نفسك.. فورد لن يسمح بوقوع أي سوء لك... هل أصبحت تخشى من الانتقام.. لقد حاولوا قتلك من أجل مبلغ تافه ثم قتلوا صديقك... إنهم مخلوقات زيادة على ظهر هذا الكوكب ويجب التخلص منهم على كل حال.

كان الصديقان يغطان في نوم عميق فوق الكراسي الجلدية الأنيقة بوضعيات أوحى له أنهم يقينا من سلالة القروء التي كان يشاهد على برامج قناة الناشونال جرافيك...

ثم سمع خطوات أقدام كثيرة متتابعة تصعد درج الطابق السادس وكأنه مشي عسكري منظم وبدا المشهد لمبارك وكأنه رئيس عصاة بفيلم هولودي مثير عندما اطلع على وجوه الأشخاص الذين وقفوا أمامه بعد أن تقدّمهم رجل ضخّم الجثة أوروبّي الهيئة...

كانوا ستة أشخاص آسيويين يتقدّمهم الدكتور ديفيد ريجيني الذي كان يحمل حقيبة سوداء صغيرة بينما الخمسة الآخريّن يحملون حقائب كبيرة وصناديق بلاستيكية بيضاء مكعبة الشكل عليها أزرار كثيرة وبعضها به أضواء حمراء وزرقاء، وكان من السهل عليه أن يعرف ثقل وزنها بالمقارنة مع شكلها.

لم يتفوه الرجل الأوروبي بكلمة واحدة ولكنه تطلع باستغراب إلى مبارك، كان من الواضح على ملامح وجهه وفي عيونه الزرقاء أنها تطرح أسئلة حول الشاب الواقف أمامه والذي فاجئه بالقول...

- لا يغرنك شكلي دكتور ريجيني... ما زلت شابا.. نعم... لكنك ستدرك عما قريب أي مختلف عن كل من عرفتهم إلى اليوم...

ابتسم الرجل الخمسيني الألماني الجنسية ذو الشعر الأشقر والملامح الحادة التي لم تهرب الشاب الذي أقنعه بذكائه في جملة واحدة قبل أن يجيبه بلكنة عربية معاقة تدل على أنه ألماني من أصول إيطالية...

- أنت ذكي جدا مستر (قيصر)... ولكنك ستعرض للمشاكل بسبب هذا الاسم.. أنصحك أن تغيّره لمستقبل أفضل...

أكمل الرجل الألماني رده مبتسما ثم تقدم خطوات نحو مبارك ووضع الحقيبة السوداء الصغيرة أمام قدميه ثم أخرج من جيب بدلتة السوداء ظرفا سميكًا أصفر اللون، مدّ

ذراعه بالظرف نحو مبارك الذي أخرج بدوره الورقة الصغيرة التي كتب عليها عنوان عمه وتمّ التبادل، أشار ريحيني للخمسة الآسيويين برأسه دليلاً على مباشرة عملهم قبل أن يخرج أحدهم من أحد الصناديق كيسين بلاستيكيين أسودين تتخللهم سلسلة متينة فضية اللون.

مرّ الخمسة جنب مبارك بينما كان الدكتور ريحيني يتفقد عيون القردة فوق الكراسي الجلدية قبل أن يسمع الذبابة فورد تقول...

- لقد انتهت المهمة أيها القيصر... علينا الخروج والعودة... ثرية تنتظرك بشوق... لم يردّ مبارك بشيء بل أخذ الحقيبة الصغيرة ونزل بخطوات سريعة درج العمارة ثم مرّ على الحارس الشاب الذي ظل واقفاً بالخارج وكأنه يحرس شيئاً آخر غير السيارات... وكأنه يحرس الجريمة القادمة.

كانت خطواته تبحث عن مكان يستفسر فيه عن ما حصل وما سيحصل، لقد أحس بأن عدم السؤال أصبح يشكّل ثقلاً على كاهله... كان يحس بأنه انتقام ناقص...

فهو لم يتلذذ بموت الصعلوكين قاتلي صديقه... ولا يعرف كيف سيتتقم من عمه...

ولا يعرف لماذا ناداه الرجل الألماني بالقيصر...

ولا يعرف لماذا نادته الذبابة أيضاً بالقيصر الصغير بدل الغول الصغير.. ولا يعرف ما بالحقيقة...

أسئلة كان لزاماً على الذبابة الإجابة عنها قبل العودة إلى أحضان ثرية...

استقلّ مبارك تاكسي مع اقتراب الليل وأشار على السائق بالتوجه الى المحطة الطرقية
أولاد زيان للعودة الى آسفي وهو ينتظر ردا على استفساراته من الذبابة فورد...
خاطبته بالتاكسي قائلة...

- لما أنت متجههم هكذا... ابتسم صديقي القيصر... لقد تمّ كل شيء كما خططت له،
كما أنك صرت أكثر رزانة وذكاء... لقد أثرت دهشتي بردود فعل كثيرة لم أكن
أنتظرها منك.. ويبدو أنك فعلا ذكي جدا... لكن ذكائك يحتاج إلى صقل وتلميع
لينفجر..

لم يتمالك مبارك نفسه وردّ بصوت مرتفع...
- لما لا تخبرني بكل شيء... لا أظن أن أجوبتك ستكون مضيعة للوقت لأننا انتهينا
الآن... أليس كذلك؟؟

التفت سائق التاكسي نحو مبارك وهو يقول...

- هل تخاطبني... ماذا تقصد يا هذا؟؟؟

- لا.. لا.. إنها مكالمة هاتفية.. لا عليك...

سمع مبارك ضحك الذبابة قبل أن تحببه...

- السؤال دائما أيها القيصر الصغير سيسبب لك مشاكل وسيؤخر بشكل أو بآخر
أعمالنا ومستقبلك... انظر إلى ردة فعل السائق... إنه يلعن نفسه لأنه يوصلك إلى
محطة القطار... إنه يظن أنك لن تدفع ما سيحكم به العداد... يجب عليك الحذر أيها
القيصر الصغير... أحق مثل هذا السائق يمكن أن يوقف المصير الذي نقود إليه العالم
بسبب غيابك...

أخرج الغول ورقة نقدية من فئة عشرين دولار وأعطائها للسائق الذي تهلل ونسي شكل الحشاش خلفه قبل أن يقول للذابة...

- ما زلت أنتظر...

ضحكت الذابة مرة أخرى وهي تجيب..

- هكذا هي الأمور.. لقد بدأت تفهم كيف يسير العالم.. لا فرق بين سائق تاكسي ورئيس دولة.. العالم يرقص فوق هذه القاعدة البسيطة.. افتح الظرف ثم انظر إلى ما تحويه الحقيقة أيها القيصر الصغير.

فتح مبارك الظرف ليجد بداخله جواز سفر يخصه وثرية شريكة المستقبل وعليها أسماء غريبة لا تمت لهما بصلة...

دكستر هيزنبرك.... نسرين كرم...

ثم فتح الحقيقة بينما الذابة تحاطبه...

- انظر جيدا أيها القيصر... انظر جيدا... لو عشت مائة سنة لما كنت ستمكن من جمع ما تراه الآن.. لديك بالحقيقة مبلغ مائة ألف دولار... وأعدك بأضعافه مئات المرات.. لم يتطلب تحصيله سوى بضع نقرات على الأنترنت ويوم من التخطيط...

تخيل معي ما الذي ستجنيه إذا ما أصبحت تخطط بنفسك... تخيل معي كم ستجني إذا كنت تخطط ولديك من ينفذ... لك أن تتخيل قوة المعلومة... لقد أرسلت رسالة

إلى منظمة عالمية صينية الأصل لها فروع بجميع أنحاء العالم ولا يمكن التواصل معها إلا عبر (الأنترنت الأسود).. الدارك ويب... لا تقبل الطلبات إلا من المدعويين من

زبائن ثقة، لقد اتصلت بوكيل المنظمة بالمغرب عبر دعوة من زبون لديهم جمعت عنه المعلومات الكافية قبل قتل العجوز، ثم دفعت له تسبيق عبر الويسترن يونيون

كعربون صدق... المنظمة صديقي القيصر مختصة في التجارة بالأعضاء البشرية وصديقك يتم الآن استئصال الكبد والطحال والكلى من أحشائهم، والرئة والقلب وحتى العيون من جثثهم قبل أن يفترم الحارس الخجول بقاياهم في ماكينة كبيرة ويجرحها تحت العمارة... لقد انتقمت لصديقك أيها القيصر الصغير وليس هذا فحسب، بل أيضا حققت صفقة جيدة ببيعهم أحياء... سيشتري أحدهم على هذا الكوكب قلبا أو كلية ويدعو لك غيبا على حسن صنيعك... وبعدها سننتقل...

لم يكمل فوررد حديثه بعد حتى كان مبارك يأمر سائق سيارة الأجرة بالتوقف ليفتح الباب الخلفي يتقيأ ما تبقى من معدته الفارغة على عشب حديقة صغيرة مخصصة للعب الأطفال ويحس بأن الدنيا تلفت دون توقف ثم يتحول طوافها إلى ظلام حالك يسبح فيه حيث لا جاذبية تشده نحو الأرض ولا يسمع فيه غير صوت ضحكات الملائكة الصغار مختلطة بحديث الذبابة....

- أيها القيصر الصغير... لن نحكم العالم بمعدتك الصغيرة المرفهة... العالم ظالم ومظلم ولا بصيص فيه من نور غير الذي تصنعه بنفسك مهما سالت معه من دماء ومهما احتاج ذلك من القوة... انفض أيها القيصر... لا تغرك براءة الملائكة الصغار يلعبون... سيتحول أغلبهم إلى وحوش كاسرة تأكل الأغبياء المتبقية...

انفض أيها القيصر الصغير..

انفض... ثروة (مبالا) تنتظرك...

انفض... يجب أن نعثر على يومبارديلا...

انفض.... يجب أن نسرق حياة القيصر....

العالم ينتظرك أيها القيصر المعظم.... انفض يا دكستر... نسرين تنتظرك....

مستر دكستر

أيقظت مبارك مياه باردة رَشَّها سائق سيارة الأجرة على وجهه، أيقظته من صدمته وظلاميته المؤقتة، لقد عاد السواد من جديد ليعتري قسامته أكثر من ذي قبل رغم المساحيق.

رجع إلى سيارة الأجرة دون أن يكلم السائق وبقي على تلك الحال طوال طريق العودة نحو المحطة الطرقية ولاد زيان، لم يتذكر متى اقتنى تذكرة العودة إلى آسفي ولا متى ركب الحافلة كما أنه لم يعي ما كانت الذبابة تقوله خلال الأربع ساعات اللازمة للعودة، حتى أنها خرسبت بعد أن تأكدت من أن حاسة السمع لم تستأنف عملها بعد من شدة الصدمة.

بعد الوصول إلى آسفي جلس مبارك بمقصف المحطة وطلب قهوة بدون سكر من النادل على غير عادته ثم جلس قبل أن يتكلم بعد طول صمت.

- إذا كان الانتقام من قتلة صديقي عاطف على هذا النحو... فكيف سيكون الانتقام من عمي... أذكر أنني طلبت منك أن يكون قتله استثنائيا وخارج قوانين الرحمة... أظن أنني لم أكن أعني ما قلت وطلبت... أنا لم أقتل شخصا قط... أنا مجرد لص... ولا أظن أنني سأملك الشجاعة الكافية لذلك.. العجوز حالة خاصة ولا أريدها أن تتكرر.. حقيقة لم أعد متأكدا مما أرغب به...

وضع مرفقيه على الطاولة البيضاء الصغيرة وكلتا يديه على رأسه ثم انحنى قليلا بينما كان النادل يمسح أمامه قبل تقديم فنجان القهوة ورد الذبابة.

- مسافة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة مستر دكستر وقد قطعت الآن عشرات الأمتار... سيسهل عليك الأمر في المناسبات القادمة إلى أن يصبح تافها أو مجرد أرقام تزيد من ثروتك..

كان مبارك على وشك ارتشاف قهوته الساخنة ليتراجع معيدا الفئجان إلى مكانه ويتساءل بنبرة مرتابة...

- لماذا تناديني بالقيصر.. الطبيب قال أن اسم القيصر سيسبب لي مشاكل.. عن أي مشاكل يتحدث؟؟ ولماذا تلقبني بدكستر.. أنا لست هؤلاء... اسمي مبارك... مبارك بوجعفر.. لست القيصر ولست دكستر..

حطت الذبابة على الفئجان وهي تقول..

- لا صديقي.. مبارك بوجعفر توفي ودفن اليوم.. أنت من اليوم فصاعدا تدعى دكستر هيزنبرك وقريبا ستصبح القيصر الأعظم... هل تريد العودة إلى غرفتك البائسة ورائحتها الكريهة... هل تريد أن تُسجن وتعود لفقرك وحشيشك العفن... هل تريد أن تعود ثرية لبيع جسدها.. ما ينتظركما أكبر مما تستطيع أن تتخيله صديقي... ثانيا أنت لم تحدد طريقة قتل عمك.. بإمكانك تعديل الطريقة كيفما تشاء... مجرد بضع كلمات نرسلها عبر هاتفك ومبلغ يتم تحويله ويقضى الأمر كما شاهدت... المال يفتح كل الأبواب... ما الذي تريده لعمر دكستر؟ كيف هو شكل نهايته التي تشتهي؟ الأمر بسيط للغاية.. وحتى التراجع عن الانتقام ممكن.. بإمكانك تركه وشأنه أيضا..

انتفض مبارك بسرعة وكأنه سيهم بالوقوف وهو يردد...

- مستحيل.. لا... يجب أن يعاقب على ما فعله بنا جميعا.. سأنتقم لنفسي ولهم..
سأنتقم لأبنائه أيضا..

- إذن عليك تحديد نهايته مستر دكستر... حياته بين يديك.. أليس أمرا رائعا أن تكون
حياة إنسان آخر متوقفة على قرار منك... إنه إحساس ساحر.. سترى..
سكت مبارك قرابة الدقيقة من الزمن سائحا بخياله قبل أن يحكم على مغتصب
الأطفال..

- بل أريد أن أعاقبه.. لن أغفر له.. أريد له موتا بطيئا.. أريد له مية الكلاب.. نعم
مية الكلاب...

كان تعبير مبارك ورغبته هما أقصى ما تخيله للشخص الذي كان من بين الأسباب
الرئيسية في المعاناة التي عاشها الصعلوك مبارك بوجعفر...
عادت الذبابة فورد فوق كتف الغول مرددة..

- متأكد مستر دكستر؟

- نعم متأكد..

- أمرك مستر دكستر... طلباتك أوامر.. لا تقلق بشأن عمك أيها القيصر الصغير...
إنه أنفه من أن تشغل به نفسك... العالم ينتظرك مستر دكستر... وسيرتحف عندما
ستصير فعليا القيصر الأعظم...

القيصر الذي سيكون مصير الإنسانية مرتبطا بإشارة من أصبعه المقدس.

سيء جدا أن تحمل هموما ليست مناسبة لسنك في وقت من المفترض أن تعيش أجمل
أيام حياتك.....

نجيب محفوظ

قصر الماندرين

تحسنت حالة ثرية بعد يومين من مكوثها بالمصحة، كانت تنتظر بصبر قاتل ظهور مبارك الذي غاب عنها، كان يتفقد أحوالها كل أربع ساعات تقريبا عبر هاتفها المحمول فقط دون أن يجيب عن السؤال المهم الذي طرحته عدة مرات...
- متى ستعود مبارك؟

لم يجيبها بما كانت ترغب بسماحه ولكنه كان يطمئنها ويعدّها بسرعة عودته ما إن يكمل إجراءات رحيلها المعقدة خلال اليومين اللذين أحسّت بها كعقدين من الزمن، ثم ظهر في اليوم الثالث بحلة جديدة وهندام أنيق لم تعهده بهما...
جارها الصعلوك الذي لم تتخيله يوما بربطة عنق وبدلة محترمة وشعر مصفف ونظارات سوداء أنيقة وقد جلب لها معه بدلات نسائية أنيقة أيضا على ذوق الذبابة.
غادرت ثرية المستشفى بعد اليوم الثالث من خضوعها للعملية الجراحية رفقة مبارك وقد اختلف شكلها معا عندما ساد ذوق الذبابة عليهما وكأنه رجل أعمال رفقة سكرتيرته الخاصة.

كانت تعبيرات وجهه بعد اختفائه توحى بأنّه يحمل هموما عظيمة على أكتافه وفي نفس الوقت أحسّت بثقة عالية تتخلل تصرفاته وحركاته وحتى أنفاسه، كانت تحس بأنها أمام كائن آخر، كائن تغيّر لأسباب تجهلها وتود سماعها من لسانه، لكنها لم تسأله عن أي شيء، كانت تقول أحيانا أن الجن ربا هو الذي يرافقها وأنه التهم روح مبارك.. المسكين، لكنها كانت تتراجع عن فكرتها عندما تحس بخوفه عليها وعطفه حتى دون أن يتفوّه بكلمة واحدة.

توجهت معه نحو محطة السكة للمسافرين واستقلوا القطار المتجه إلى مدينة مراكش جنوب البلاد، استغرق السفر ثلاث ساعات سادته صمت قاتل ونظرات مفرغة من كل شيء بأعين رفيقها وكأنه لم يكن جالسا بقربها، وكأنه بكوكب يبعد عن الأرض بملايين السنين الضوئية، بعد الوصول لمدينة مراكش الحمراء وجدت بانتظارهما مرسيدس بيضاء اللون لم تعلم نوعها ولكنها كانت متأكدة من أنها أفخر ما وطأته قدماها، كانت رائحة الجلد الأصفر الفاخر والأزرار المتواجدة على يمينها وشمالها وشاشات اللمس اللوحية قبالتها والسقف الرطب الملمس دليلا على أنها مخصصة لشريحة أخرى من الناس غير التي عرفتها طوال حياتها، كان سائق السيارة شابا فرنسيا وسيما يضع قبعة سوداء وبدلة سوداء فهمت بسرعة أنه مبتعثٌ لخدمتهم.

كانت ترغب بطرح الكثير من الأسئلة على مبارك الشارد ولكنها أحست بشيء يمنعهما، لم تعرف ما الذي جعلها تسكت ولكنها بعد طول صمت وتفكير عرفت السبب، لقد كان الخوف... الخوف من مبارك والجني... الخوف من المجهول... الخوف كان هو السبب، كانت تحتاج للمزيد من الوقت لطرد ما كان غاشما على صدرها.

التفت مبارك نحو ثرية التي كانت تحاور مخاوفها قائلا.

- أعلم أنك خائفة ثرية... أخبرني فورد بذلك وهو يقول أن عليك الوثوق به.. لا تخافي ثرية... أنا معك ولن أتركك.. يقول فورد أنك تجيدين اللغة الفرنسية والإنجليزية، كنت أعلم أنك تتحدثين الفرنسية ولكن لم يخطر ببالي أنك تجيدين الإنجليزية أيضا.. يقول فورد أنك منذ اليوم تُعتبرين السكرتيرة الخاصة لمستر دكستر هيزنيرك... أي أنا.

اختفى خوف ثرية وكأنه كان عندما ثم ابتسمت بعيون تملأها دموع لا تعلم كنهها بمجرد أن أنهى مبارك حديثه قبل أن تعانقه وكأنه والدها..
 - نعم.. نعم.. أعلم أنك لن تتركني.. لم أعد أملك غيرك مبارك..
 ابتسم طويلا ثم قال:

- مستر دكستر لو سمحتي آنسة نسرين.. مستر دكستر.. من اليوم فصاعدا اسمك آنستي.. نسرين كرم.. وأنتِ سكرتيري الخاصة.. أرجو أن تخبري السائق الفرنسي بأن يتوجه بنا الى فيلا ماندرين خارج مدينة مراكش طريق أورिका الجبلية.. وقبل ذلك أملّي عليه الرقم والحروف التالية.. م.ا.ت.ي.ل.د.78546982
 ابتسمت ثرية بعد أن اختفت دموعها وأحست بأنها تفتح بابا على أجمل مغامرة ستعيشها قبل أن تملي الحروف والأرقام على مسامع السائق الفرنسي ثم تأمره بالتوجه إلى فيلا ماندرين بلكنة فرنسية فاجأت مبارك وجعلته يحس فعلا بأنها سكرتيرة مميزة وأن فوردا أحسن فعلا الاختيار.

ابتسم السائق ثواني ثم توجهت السيارة المرسيدس الفاخرة نحو الطريق الوطنية خارج مراكش الحمراء وعمّ الصمت من جديد طوال تلك المسافة التي لم يتبادل فيها الاثنان سوى ابتسامات يتخللها الإحساس بالأمن مع الجهل والتساؤل من جهة ثرية والتأمين والثقة من جهة مبارك.

توقفت المرسيدس بعد ساعة من إقلاعها من مراكش أمام الباب الرئيسي للفيلا ذات السور الأحمر قبل أن يفتح أوتوماتيكيا، تحققت كاميرات المراقبة من السائق الذي أشار لها بيده اليسرى بعد أن فتح زجاجها المفحم ثم دارت عجلات المرسيدس بهدوء على التراب المصفوف لتكتشف ثرية أنها ليست فيلا عادية بل كان قصرا فخما

استغرق الوصول لبابه المقابل لمسيح كبير قرابة الدقيقة قبل أن تلمح مدخله الذهبي اللون يُفتح ببطء ليخرج منه رجل سمين أصلع ذو وجه ناصع البياض وعيون زرق يلبس سروالا قصيرا وقميصا أحمر فاتحا به بقع صفراء تحوم فوق بطنه المنتفخة وخواتم تزين كل أصابعه التي تدخن سيجارا يبدو فاخرا.

التفت مبارك نحو ثرية وأخبرها أن تكلم السمين باللغة الإنجليزية وأن تعلمه أن مستر دكستر هو القيصر الأعظم القادم وأن عليه أن يقودنا إلى مكان الصندوق الزجاجي حيث يتواجد بومبارديلا إن كان يجب الحياة وخدمة القيصر الجديد.

لم تعي ثرية شيئا مما قاله مبارك رجّت رأسها وأحدثت زلزالا صغيرا به وتساءلت بعيون يملأها التعجب دون أن تنطق بكلمة من فمها الفارغ وكأن أنفها لم يعد صالحا للتنفس..

فهم مبارك أنه تسرع قليلا ولكن الموقف لم يكن يسمح بالتأخير فأكمل حديثه قائلا: - صديقي ثرية.. أنا أيضا لا أعلم شيئا مثلك.. لكن يجب أن تثقي بي وبالجن فورد.. إنه يعرف تماما ما يفعل.. وكل ما أمرك به ليس من عندي ولكنها أوامر فورد لنصبح أغنياء.. هل ترغبين بالعودة لأسفي والغرفة بالسطوح وذلك العمل القذر؟ أخبري السمين بما سمعتي ولا تخافي.

وقف السمين الأصلع محذقا بالسيارة ينتظر نزول الزوار إلى أن فتحت ثرية الباب الخلفي لتتقدم نحوه بخطوات ثابتة بينما كان شعرها الطويل الأصفر يرفرف بسبب الرياح القوية التي لم تؤثر على نظاراتها الشمسية وبدلتها المتناسقة مع بنطلونها الأزرق الفاتح وحذاءها الأبيض الذي اختاره مبارك لعلمه بحبها للون الأحمر.

توقفت.. صمتت ثوان معدودة.. استجمعت نفسا عميقا ثم تحدّثت بإنجليزية رصينة وهادئة وهي تنظر إلى السمين بثقة في النفس.

- مستر دكستر يقول أنه هو القيصر الأعظم الجديد وأن عليك أن تقوده إلى الصندوق الزجاجي حيث يوجد السيد بومبارديلا إن كنت تريد البقاء على قيد الحياة في خدمة القيصر الجديد.

حدّق السمين بعد أن أكملت ثرية كلامها لتعترى عينيه نظرات احتقار..

صمت قليلا وهو يتحسس بيده المثقلة بالخواتم دقنه ورأسه منحنية تتطلع قوام ثرية... ثم أجاب وهو يتسم...

- قولي لمستر دكستر أني راسلت مدير مكتب القيصر الأعظم وتبين لي أنهم لم يرسلوا أي ضيف إلى قصري... كما أنه طالبني بإحضار رأس الشخص الذي يدّعي أنه مرسل من القيصر شخصيا لكي لا يتجرأ في المستقبل أي غبي على استعمال اسم القيصر الأعظم... كما أني قررت للتو أيضا أنك ضيفة عندي الليلة... قولي لمستر دكستر أن دقائق حياته أصبحت معدودة...

ما إن أكمل السمين كلامه حتى خرج من الباب الذهبي أربعة أشخاص بدلات سوداء يحملون أسلحة خفيفة، وقف اثنين منهم قرب باب مبارك المغلق والآخرين حول ثرية قبل أن يشير السمين لثرية بيديه أن تخبر مستر دكستر بما سمعت وهو يتسم..

ارتجفت ثرية دون أن يبدو عليها الهلع الذي اعترأها، عادت خطوتين للخلف وانحنت على الزجاج المفحم الذي فتحه مبارك عندما اقتربت..

كان السمين ينظر مبتسماً إلى خصر ثرية التي كانت تسمع رد مستر دكستر الطويل وهي منحنية داخل نافذة المرسيدس قبل أن يسمعها تقول...
- متأكد؟؟؟؟. لكن..

عمّ الصمت قليلاً ثم عادت ثرية نحو السمين الذي غاضته بابتسامة لم تخطر على باله... لقد تساءل في جزء من الثانية قبل أن تخاطبه...
تساءل عن السبب وراء ابتسامة الشابة التي أخبرها للتو أنها ستبيت في قصره مجبرة وأنه سيقتل رئيسها بعد دقائق.... كيف تبسم وهي تجهل مصيرها...
ثم تكلمت سكرتيرة مستر دكستر هيزنبرك...

- يقول مستر دكستر أنك أضعت على نفسك فرصة العمل بجوار القيصر الأعظم الجديد مستر ماتيلد... أليس هذا اسم العائلة الذي تخفيه عن الجميع... مستر دكستر يقول أنه يريد أيضاً ما بالخزانة الموجودة بغرفة نومك.. إنه يرغب أن تجلبها له بنفسك ثم تقبل قدميه أمام جريجوري ونيكولاي ورومانوف وميكائيل لكي يسمح لك بالتنفس مزيداً من الوقت... يقول مستر دكستر أن القيصر الذي تقدم له الولاء سيتوصل برأسك غداً إن لم نخبرنا عن مكان الصندوق الزجاجي حيث يوجد بومبارديلا... مستر دكستر كتب رسالة لمدير مكتب القيصر الأعظم يخبره فيها عن كيس الألماس بالخزانة وسيرسلها حالاً إن لم تجلب ما بالخزانة وتقبل قدميه قبل ثلاثين ثانية....

ثم بدأت ثرية تردد بهدوء... تيك.. تاك.. تيك... تاك... تيك.. تاك
دمعت عين السمين في لمح البصر وتعرقّ حال سماع حروف التيك تاك من شفّتي ثرية وعاد الى الخلف وهو يتحسس الباب الذهبي بأيدي ترتعد وأقدام تهتز هلعاً ثم

هرول داخل القصر أمام دھول الحراس وما هي إلا ثوان معدودة حتى اندفع السمين من قصره وألقى بنفسه قرب باب المرسيدس الذي فتحه مبارك له لينحني مقبلاً قدميه أمام دهشة ثرية العظيمة وكلمات ماتيلد السمين...

- أتوسّل اليك أيها القيصر العظيم أن تغفري... لا تخبره عن كيس الماس أرجوك... أنت هو القيصر الأعظم الجديد... يستحيل على أي شخص أن يزيح القيصر الأعظم من عرشه غيرك أنت... أتوسّل إليك أن تغفر لخدمك المطيع.. أنا لا أعلم يا سيدي مكان بومبارديلا.. لكن سأحاول أن أجده من أجلك.. إنه أؤمن شيء يملكه القيصر الأعظم... لذلك قليل من يعلم مكانه.. لا تخبره أرجوك عن كيس الماس وإلا سأسلخ كالنجاج.. إنه يسلخ من يُغضبونه أحياء.. أتوسّل اليك...

بينما كان السمين يقبل قدمي مبارك ويتوسّله التفتت ثرية رغم دهشتها من الموقف وتابعت تنفيذ تعليمات مبارك بأن تقدمت نحو الحارس الأشقر المدعو جريجور لتهمس في أذنيه سلسلة من تسعة أرقام وثلاث حروف جعلته يتقدم من باقي الحراس وكأنه تلقى أوامر جديدة من قيادته العليا ليخبرهم بها.. وما هي إلا لحظات حتى التفتوا حول السمين الملقى أرضاً وهو يقبل قدمي القيصر الأعظم الذي خاطب ثرية في عز دهشتها قائلاً:

- لا يمكننا المبيت هنا ثرية... أخبرني هذا الخنزير أن الحراس تلقوا الأمر من القيادة العليا للقيصر الأعظم شخصياً بتعذيبه ثم تصفيته وأن تنفيذ الحكم بيد مستر دكستر.. أخبريه أن حياته انتهت إن لم يخبرنا عن مكان بومبارديلا.

تقدمت ثرية نحو السمين قبل أن تردد بإنجليزية متعثرة ما أخبرها به الصعلوك الشاب الذي فتح باب الشك حول المستقبل الذي وعدّها به بعد أن كان خيالها قبل

لحظات يسرح في بحر من أحلام مختلفة كلياً عن ما أصبحت تعيش ساعتها، تساءلت مع نفسها إن كانت تملك فعلاً الشجاعة الكافية لتكمل مشوارها مع مبارك وصديقه الجن، لقد عاد يخيفها ولم يكف كيائها عن طرح الأسئلة حتى تكلم السمين بصوت متقطع يحترق توسلاً وأعين حمراء من كثرة الدموع التي كانت تؤذن بدنو ملك الموت منه..

- أقسم بالمسيح أني لا أعلم مكان بومبارديلا... لا أحد يعلم مكانه غير مبالا وسلمان خان... إنها الوحيدان اللذان يعلمان مكانه... أقسم لك أيها القيصر الأعظم.. وقبل أن يكمل السمين ماتيلد كلامه انفجرت رأسه من الخلف وسالت دماء كثيرة تحت جثته بسبب رصاصة جريجور الذي تلقى الأوامر من ثرية، كانت تجهل كل شيء عن المشهد الدموي أمام أعينها، تفاجأت من الابتسامة الشريرة التي صدرت من جاراها الوديع مبارك وتلك النشوة الغريبة، لم تفهم سرها على شفثيه قبل أن تفقد الوعي وتستنجد في العالم المظلم مغمى عليها أن الجن صديق مبارك سيقودهم نحو مستقبل أكبر وأعظم وأخطر مما قد يسمح به خيالها البسيط.

كرامتك هي الروح الثانية لك فحافظ عليها حتى لا تموت مرتين....

محمد علي كلاي

مكالمة غير منتظرة

فتحت ثرية أعينها إثر صدادع شديد برأسها فوق حجر مبارك المبتسم لتعلم أنها على متن السيارة المرسيدس التي كانت تتجه نحو المجهول ثم ارتمت بحضنه وعانقته لتدخل في نوبة شديدة من البكاء دون أن تقول شيئاً، انتظر مبارك بعض الوقت إلى أن هدأت الشابة بين ذراعيه قبل أن يخاطبها بصوت تملأه الثقة.

- لا تخافي نسرين... لقد كنت مثلك قبل أسبوع.. لكن الأمر مختلف الآن... وكذلك سيختلف الأمر بالنسبة لكي عن قريب... صديقي فورد يعلم جيداً ما يفعله وهو يعاقب الأشرار فقط.. صاحب القصر الذي قُتل أمامك عضو في منظمة إجرامية عالمية ترتكب الكثير من الفظاعات... لقد تأكدت من ذلك بنفسي ورأيت ما يفعلون... لقد وعدني فورد بأننا سنصبح أغنياء جداً ولكنه طلب مني أن نخلص العالم من أقذر شخص على وجه الأرض... إنه يُدعى القيصر الأعظم... وكل ما تحلمين به سيتحقق يوم نقضي عليه... صديقي فورد سيقودنا إليه لنستولي على كل ثروته... لكنها مهمة صعبة جداً.. لأن القيصر الذي نبحت عنه... لم يسبق لشخص أن رآه... لقد أخبرني صديقي فورد أنه من المستحيل أن يصل إليه شخص بالعالم... لكن إن تمكنا من العثور على بومبارديلا فإن القيصر الأعظم سيخرج من جحره وسيحاول التواصل معنا... ساعتها سنقضي عليه وسيتهي الأمر وسنستمتع بحياتنا كما وعدني فورد... هل فهمتي ثرية... لا تأسى على شخص تافه مثل ذلك السمين... لقد خلصنا العالم منه.. أعلم حجم صدمتك بالمشهد ولكن يجب عليك من اليوم فصاعداً التحلي برباطة جأش أكبر لأنني سأصبح القيصر الأعظم... ولا

يصح أن تكون كاتبتي نسرین مرهفة لذلك الحد.. أنت الآن سيدة أعمال ويجب عليك التصرف كما لو كنت كذلك...

ثم أخرج مبارك الكيس الصغير الذي قدمه له ماتيلد السمين ووضعه بيدها اليمنى وأطبق عليه بكلتا يديه قائلاً:

- انظري ثرية ما أصبحت تملكين بعد يوم من مغامرتنا... الكيس الذي بيدك يحتوي على ألماس حر بقيمة ثلاث ملايين دولار.. هل تعلمين كم يساوي هذا المبلغ بعملتنا المغربية؟؟؟ إنك تملكين آنسة نسرین ثلاثة مليارات سنتيم مغربية... بإمكاننا أن نعيش حياة الملوك... بإمكانك الحصول على كل شيء آنسة نسرین.. ولكن يجب قبل ذلك تنفيذ ما يطلبه منا صديقي فورد..

نظرت ثرية إلى مبارك لحظات، التفتت بعدها نحو نافذة السيارة وعادت لتعاقبه بهدوء، كان السائق يقود المرسيدس بسرعة بينما كان يجلس على يمينه بالمقعد الأمامي جريجور قاتل السمين صاحب القصر، وبعد أن انتهت له ثرية حدثت بمبارك مطالبة بتفسير آخر لهذه الصحبة ليجيها في الحين...

- لم يسبق لأحد أن تعامل مباشرة مع القيصر الأعظم غير بومبارديلا... منظمة القيصر تعمل بالشفيرات والأوامر التي يتلقى الجميع يجب تنفيذها دون تردد والرواتب الكبيرة لأفراد المنظمة تصلهم عبر طرود.. كل أمر يصلهم يجب تنفيذه دون تردد.. قاعدة بياناتهم تتجدد بشكل دوري وهم يحصلون عليها من قيادة القيصر الأعظم الذي يخصص شيفرة موت كل منهم برقم واسم لا تعلمه غيرها.... الرقم الذي أمليت على السائق وجريجور تفيد بقتل ماتيلد وأنا قدمت لجريجور وأنت مغمى عليك رقم تنفيذ أوامر صاحبه... جريجور والسائق الفرنسي ينفذون فقط

تعليمات القيادة التي أخبرني صديقي فورد بأرقامها.. هل استوعبت الآن مدى قوة فورد... نحن في أمان ثرية.. عفوا.. نحن في أمان آنسة نسرين... يجب أن تتعودي على اسم نسرين كما سأعود أنا على مستر دكستر... قريبا سنكون بمطار مراكش الدولي... طائرنا الخاصة إلى كوغاندا تنتظرنا...

لم تستطع ثرية بعد أن جففت دموعها أن تقاطعه وتسأله عندما سمعت كلمة.. كوغاندا...

- كوغاندا...؟؟ في قلب أفريقيا السمراء... لماذا...

- تنتظرنا هناك ثروة لا يمكنك أن تتخيلي مدى حجمها... سنستولي على ثورة شخص يدعى مبالا...

بعد أن أنهى مبارك رده توقف السيارة المرسيدس بمطار مراكش الدولي ونزل السائق الفرنسي كلود ليفتح الباب لثرية بينما كانت تحديق به وهو واقف متسمر كالجندي تنفيذاً لبروتوكول السائق المحترف وتحس للحظات أنها فعلاً نسرين كاتبة مستر دكستر هيزنيرك الذي سيصبح يوماً القيصراً الأعظم، قُطع حبل أفكارها عندما مد مبارك يده ليساعدها على النزول من المرسيدس ليتوجهوا نحو الباب الرئيسي للمطار يتقدمهم جريجور وكلود في مشهد يوحي للمسافرين بالمطار أن الشاب الأنيق الذي أخفى جداول وجهه بالمساحيق صاحب البدلة السوداء ومرافقته الجميلة شخصيات مهمة في عالم المال والأعمال بينما كان كلود يتكلف بكل إجراءات السفر وتقديم الجوازات المزورة التي لم يركز فيها شرطي الحدود عندما علم أنهم سيدخلون من الباب المؤدي للطائرات المخصصة للدبلوماسيين والأمراء والسياسيين، وما هي سوى دقائق حتى كانت طائرة مبارك وثرية تستعد للإقلاع نحو كوغاندا.

مد مبارك هاتفه إلى ثرية قرب سلم الطائرة مشيراً إليها بأن تُملّي على كل من جريجور وكلود أرقام وحروف أخرى لتسأله هذه المرة عن كنه الأرقام، لقد خبرت أنها ليست مجرد أرقام ولكنها أوامر يجب أن تعرف سرّها حتى لا تشاهد جريمة أخرى.

- لا تخافي ثرية.. إنها أوامر مسح وتطهير مسرح الجريمة بفيلاً ماندرين.. بقائهم معنا سيشكل خطراً علينا إذا ما تلقوا أوامر بقتلنا فلن يتأخروا بالتنفيذ... يجب أن لا نترك مساحة للقيصر الأعظم تسمح له بالوصول إلينا دون علم صديقي فورد.

أمسكت ثرية بهاتف مبارك وأملت على جريجور الحروف والأرقام بالإنجليزية ثم فعلت نفس الشيء مع كلود باللغة الفرنسية قبل أن ينصرفا بهدوء وكأنهم ماكينات غير آدمية في وقت واحد، وقفت ثرية قليلاً ثم التفتت وراءها بينما كان مبارك يصعد سلم الطائرة الخاصة، أحست ساعتها أن خطواتها القادمة على درج السلم أمامها ستكون الأخيرة فوق أرض الوطن الذي احتضنها وأحبته وعشقته دون أن يطلب منها أحد ذلك رغم الفقر الذي كانت تعانيه فيه.

بعد ثوان أحست ثرية أن قطعة منها اقتلعت بعدما وضعت قدميها بالطائرة الخاصة، لم تحس يوماً بحبها للوطن والأرض كما الصحة، عرفت أن المريض هو الوحيد الذي يحس بقيمتها وعرفت أن للوطن قيمة تعشش بقلبها جهلت وجودها بكيانها طيلة حياتها، لقد عرفت أن الوطن معشوق خفي لا يتألم من شدة فراقه غير المغترب عنه تحت ظروف أقوى منه، وها هي تُقبل على عالم جديد استنشقت أولى تفاصيله بالطائرة ذو الكراسي الجلدية الفخمة على زرابي صفراء ناعمة الملمس وطاولات زجاجية طويلة تتخللهم، عليها مزهريات أنيقة ينفجر منها ورد من كل الألوان حيث تنتظرها مضيئة مخصصة لخدمتها مع رفيقها الصعلوك.

جلست قبالة مبارك الذي بدى عليه نفس الذهول، كانت تعلم أنه مثلها لم تطأ قدماه طائرة في حياته ولم يخلق يوماً في السماء التي ستحتضنهم بعد دقائق.

ربطت حزامها مقلدة مبارك تحت طلب المضيئة التي ساعدتها وما هي إلا لحظات بعد أن دارت عجلات الطائرة حتى أحست بجوفها ينكمش لتغمض عينيها الواسعتين وتمسك بقوة بجنبات الكرسي الجلدي إثر الإقلاع نحو السماء، وبعد أن انتهى الأمر وعلمت أنها تخلق فتحت أعينها لتكتشف أن مبارك يغمض عينيه أيضاً ولم يفتحهما بعد وتعلم أنه يجهل مثلها العالم الذي سيقبلون عليه، ثم أحست بطمأنينة وكأن المثل الذي يقول إذا عمّت هانت سيبقى ساري المفعول إلى الأبد.

أقبلت المضيئة عليهم ووضعت فوق الطاولة الزجاجية قرب المزهريّة صحناً أسود مستطيل عليه وجبة العشاء لكل منهما، كانت ألوان الأكل والصحن والكؤوس غريبة عليهم بحيث ظلّا يحدقان ببعضهما البعض فترة طويلة قبل أن يبتسم مبارك وتتبعه بمثلها ثم يضحك وتضحك ويقهقه وتستمرّ ثرية بالضحك دون انقطاع.

بعد العشاء وساعة من التحليق تقدمت المضيئة من مبارك وهي تحمل هاتفاً كبير الحجم بيدها قبل أن تخاطب مبارك الصعلوك بأدب....

- معذرة مستر دكستر... مكالمة عبر الأقمار الصناعية.. شخص ما يطلبك..

تفاجئ مبارك بما أخبرته به المضيئة لكنه أمسك الهاتف بيده قبل أن يبدو عليه تركيز شديد علمت على إثره ثرية أنه ينصت للجن فورد وقبل أن يهم بالرد على المكالمة أشارت إليه ليخبرها بما سمعه من صديقه ليجيبها وعليه علامات الخوف والرهبة وربما الشفقة...

- إنه القيصر الأعظم ثرية.. إنه القيصر الذي نبحت عنه..

(لكي تعرف ما يفكر فيه الآخر حقا عليك أن تتبّه لما يفعله لا لما يقوله)

ديكارت

خـصم رائع

أحس مبارك بيده ترتجف قبل أن يضع الساعاة على أذنه رغم تطمينات فورد الذي أخبره بأن لا داعي للخوف ما دام بجنبه، لكن صوت القيصر أنساه لوهلة تعليقات الذبابة رغمًا عنه، كان صوتا دافئا، لكنه كان يحمل بين ثناياه الثقة والحزم والأهم منهما معا...

كان صوت القيصر يدل على القسوة التي انفجرت عبر الكلمة الأولى والسؤال الأول ليبدأ الحوار الذي كانت الذبابة ثالثته.

- من أنت؟

- أنا مستر دكستر...

- لا أريد اسم جواز السفر مستر دكستر.. ولا يهمني الاسم.. من أنت؟

ثم جاء رد مبارك حاسما يحمل نفس قوة كلمات القيصر.

- أنا مستر دكستر.... وقريبا سأصبح القيصر الأعظم وسأستولي على كل ما حققته

خلال حياتك.. أموالك.. شركاتك.. مناجحك.. عملائك.. جُزرك..

قصورك.. رؤساء الدول الذين أصبحوا دمي بيديك.. كل شيء.. وأولهم وأهمهم..

مستر بومبارديلا..

صمت القيصر قليلا، لكن مبارك أحس بأن ذلك الصمت لم يكن عن خوف ولكنه

كان صمت تساؤل فقط قبل أن يعود من جديد..

- لقد جعلتني أتساءل فعلا... كيف ستفعل ما تفضلت بذكره وحياتك متوقفة على

إشارة مني الآن.. انظر مستر دكستر من خلال طائرتي الخاصة عبر النافذة على

يمينك...

التفت مبارك إلى النافذة والهاتف لا يفارق خذّه فإذا به يفاجأ بطائرة شبح سوداء تشبه طائر السنونو تطير بشكل موازي مع طائرته الخاصة ثم سمع القيصر يقول..

- أخبر الآنسة نسرين قربك أن تلقي بنظرة هي الأخرى من النافذة على يساركها..

توجد طائرة نفثة أخرى.. أخبرها رد مبارك بثقة رغم الخوف الذي اعتراه...

لكنه قبل أن يجيب بحديث الذبابة على تهديدات القيصر تذكر في لمح البصر أنه قبل أيام قليلة فقط كان يتسول قطعة حشيش من أزرقة مظلمة، وها هو الآن يتبادل أطراف الحديث مع رئيس منظمة عالمية مجرمة، لا بل ويهدد كيانها أيضا..

- لا داعي لذلك أيها القيصر...

قاطعته القيصر قبل أن يكمل...

- إنها جميلة فعلا.. آنسة نسرين... جمالها طبيعي لم يختلط معه المال بعد... إنها تتابع مكالمتنا بهلع شديد.. آه... نسيت أن أخبرك بأني أراك مستر دكستر... كما يؤسفني أن مرافقتك ستلقى حتفها أيضا بعد قليل... وستكون أنت السبب... يبدو أنها ضيفة غريبة... لكن بقي أن تجيب على سؤالي مستر دكستر... من أنت؟ وكيف تمكنت من اختراق منظومتي المعلوماتية والحصول على شيفرات الأوامر الخاصة بعملائي؟ ومن أخبرك عن مستر بومبارديلا؟؟؟؟... هل تعلم مستر دكستر أن ترميم تلك المنظومة سيكلفني ملايين الدولارات بسببك.. إذن... من أنت؟

لم يُبدِ مبارك صدمته من المعلومات التي ذكرها القيصر ولكنه لم يكن ليُنكر وقعها عليه حتى وإن لم تظهر على ملامحه، لقد كان ينتظر رد الذبابة على سؤال القيصر المكرر لكي يُبقي على التفوق الذي عرفه منذ التقى فوردي الذي يعلم كل شيء ويتنبأ بكل شيء.

مرّ بذهنه أنه أربك حارس الميناء بكلمات وانتقم من أصدقائه بمعلومات واغتنى في أيام معدودة بحركات وتعليمات بسيطة وأنقذ ثرية بواسطة ذبابة تجربه أنه سيغير وجه العالم، إذن لا بدّ وأن لديها ما ستُفحم به القيصر الأعظم.. أكيد أنها ستفاجئ القيصر..

انتظر مبارك ردّ الذبابة الذي تأخر لأول مرة... لقد تأخّرت في الردّ على القيصر ليرتبك ويحس لأول مرة أنه أمام خصم غير عادي وعرف لحظتها أن لقب القيصر الأعظم ليس مجرد لقب ولكنه حقيقة، ثم بدأ يتعرق منتظرا شيئا لم يأت وهو يصرخ بكل قوة في جوف صدره دون أن يصدر كلمة واحدة...

- قل شيئا فورد... قل شيئا... سنموت إن لم تقل شيئا فورد... ستموت ثرية وتحترق أحلامي وأحلامك... تكلم فورد... تكلم...

وفهم مبارك لأول مرة أن للذبابة حدودا وأن كل شيء يمكن أن يختفي في لمح البصر ثم اغرورقت عيناه خوفا من الموت إلى أن سمعها بعد صمت قاتل تأمره بالضحك....

- اضحك مبارك.... ثق بي مبارك... كن واثقا من نفسك... اضحك مبارك قل للقيصر...

ضحك مبارك بعيونه التي أصبحت حمراء أمام فرع ثرية مسكينة المواقف والحوارات التي لم تستوعبها منذ بدأت مغامرتها مع الغول الصغير ثم بدأ حوار غريب آخر سبقته ابتسامة ثم ضحك.

- سأخبرك من أنا يوم لقائنا الأول والأخير أيها القيصر... سيكون لقاء رائعا... لقد أثبتت أنك أهل للقبك الأعظم... ولكن قرارك بقتلي سيحرمك من المعلومة.... إن

أسقطت طائرتي الخاصة فلن تعرف من أنا ولن تعرف كيف اخترقت منظومتك ولا كيف سأعرفُ موقع مستر بومبرديلا وأخيرا، لن تستمتع بلقائي حيث سأخبرك بمن أنا فعلا قبل قتلك لأستولي على حياتك كلها.... كما قد يخرج مستر دكستر آخر إن قتلتي ليدخلك في دوامة غير منتهية من الأسئلة.... لك كامل الحرية في إتخاذ قرارك ولكنك ستموت على يدي القيصر الحقيقي قريبا.. أي.... أنــــا.

عمّ الصمت سماعه الهاتف مرة أخرى بينما سمع مبارك الذبابة تُعلق على الحوار...
- لطالما كان الفضول نقطة قوة البشرية منذ ظهورها على وجه الأرض، لكنه أيضا كان سبب هلاكها في كثير من الأحيان... لن يجروّ القيصر على إسقاط الطائرة وقتلنا لأن الفضول سيقته بقية حياته التي لن ينعم فيها بالراحة من شدة الخوف من ظهور دكستر آخر... وأيضا لأنه لن يجد خصما بمستواك ليبارزه على اللقب الذي ظنّ طوال حياته ينسبه لنفسه... إن الشك الآن يقتله حول أحقيته باللقب... إنه يفكر في الحركة التي سيعلمها داخل رقعة لعبة الشطرنج دون أن يفاجأ بقتل الملك من جندي خبيث في آخر اللعبة... عندما سيتحدث... فقل عنه... كش ملك.

طال سكوت القيصر كما طال سكوت الذبابة ومبارك قبل ردّهما وقبل أن يسمع بالطرف الآخر على الهاتف ضحكة القيصر والتي أحس بأنها نبعت من قلبه وكان ما تنبأ به فورد... كش ملك...

- أنت فعلا خصم رائع مستر دكستر.... لقد طال انتظار مثلك صديقي... لقد جعلتني أنتظر لقاءك بشوق غير مسبوق... يبدو أنك تحمل سرا عظيما لم أستطع معرفته رغم أي خبير بخبايا البشر... إني أرى الآن مباشرة على شاشتي عيونك الحمراء والجدال على وجهك وتعبيراته الغريبة وكأنك تتلقى وحيا أو كأنك

مفصوم الشخصية... أظن أنك شخص غير سوي مستر دكستر... لكنه يبقى مجرد تخمين... الحقيقة أن الفضول يقتلني لأعرف سرّك يا صديقي... لك ما تريد مستر دكستر... ستصرف طائرات الشبح بعد أن نتفق أولاً على قوانين اللعبة لأنني لا أسمح باللعب خارج حدود ما اتفق عليه مسبقاً... هل أنت موافق مستر دكستر؟ أحس مبارك بأن الذبابة أخذت بزمام الأمور ليختفي الاحمرار من عينيه قبل أن يكمل حوارهِ الذي أعاد الإحساس بالثقة لثرية التي تستقي معلوماتها من تعابير مبارك فقط.

- أظن أننا لا نلعب الشطرنج الذي تُنظمه قوانين ملزمة... إننا نعيش الواقع...
الواقع الذي سآخذ فيه كل حياتك عن قريب... إذن على ماذا تريد أن نتفق؟
- ما أجمل الثقة في النفس مستر دكستر... أليس ردك دليل على أنك تحمل سرا غير مسبوق... لقد علمتَ للتو أن بإمكانك أن أدمرك... ورغم ذلك ما زلت تهددني بناء على الفضول الذي بدأ ينخر عظامي حول سرّك... ولكنني لست غيباً مستر دكستر وستتيقن من ذلك عن قريب... لا يهم الآن... أنت تقول بأنك ستقتلني يوم لقائنا... جميل... الاتفاق هو كالتالي... سأسلمك مستر بومبارديلا الذي تظن أنه شيء مهم بالنسبة لي.. لقد عرفت اليوم أفضل منه... سنتفق حول تدابير لقائنا... ويومها إن قدرتَ عليّ فعليك أن تخبرني بسرّك قبل أن تقتلني... وإن أنا تمكنت منك والأکید أني سأفعل لأنني لا أهُزم.. فستحلُ ضيفاً على الصندوق الزجاجي حيث يوجد بومبارديلا... يقينا سنصبح أصدقاء مستر دكستر... إن مجرد حديثي معك يجعل منك ذو قيمة لا يمكنك أن تتصورها... يكفي أن أخبرك أني لم أكلم شخصاً

غير بومبارديلا منذ عشرين سنة... لك أن تتخيل كم أصبحت مهما عندي صديقي
دكستر...

كان رد الذبابة قاطعا وفوريا بحيث لم تتردد بالموافقة على لسان مبارك قبل أن يكمل
القيصر..

- موافق أيها القيصر...

- أعلم أن وجهتك هي كوغاندا من أجل مبالا لأنه الوحيد الذي له صلة بي هناك
وحقيقة لا أعلم كيف تريد لقائه وكيف تنوي الاستيلاء على أمواله وثرواته...
صدقني... الفضول يقتلني حول شخصك مستر دكستر... سأشاهد المباراة بينك
وبيك مبالا من على المدرجات... سأراقبك دون تدخل مني حتى لا أزعجك...
فبعد وصولك إلى كوغاندا سأراقبك عبر أفماري الصناعية ليل نهار وإلى حين لقائنا...
لن تغيب عن عيوني دقيقة واحدة... ستعطيك المضيقة إحداثيات صندوق
بومبارديلا الزجاجي... لم يعد يهمني بعدك مستر دكستر... إنه هديتي لك
وعربون محبة مني لك ولسرّك... القاسم المشترك بينكما هي الثقة والذكاء الخارق..
أعرف مصدر حكمة بومبارديلا.. لكنها لا تقارن مع ما تمكنت من الوصول اليه...
لذلك فالصندوق الزجاجي ينتظرك بفارغ الصبر صديقي... أنتظر بفارغ الصبر أن
أرى كيف ستستولي على ثروة الجنرال مبالا... رئيس دولة
كوغاندا والذي يحكمها منذ أكثر من عشرين سنة بالقوة والدم وملايين العساكر..
ستكون مباراة شيقة مستر دكستر...

ابتسم مبارك قبل رده الأخير على القيصر رغم تفاجأه بما سمع من الذبابة على لسانه
حيث أعادت له الثقة رغم تمكن القيصر لأول مرة من زعزعت ثقته بصديقه فور

ولو للحظات، حيث سمع ضحكة صادقة تصدر من فيه القيصر بعد أن أخبره بأنه لن يسرق مبالا فحسب، بل سيصنع أسرع ثورة سيعرفها التاريخ على نظام دكتاتوري في أفريقيا السمراء.

وقبل أن ينهي القيصر المكالمة ويقفل الخط ختم بعد ضحكته السعيدة قائلا:
- أنت فعلا خصم رائع.. أنتظرك.. أتشوق للقاءك بفارغ الصبر صديقي دكستر.

الأحمق فقط من يسقط بعد الهزيمة....

يورجن كلو

كوغندا

بعد ساعات من التحليق والصمت والتفكير والإحساس لأول مرة بأن للذبابة حدودا وأنها ليست فعلا ما أوهمتها خلال المدة التي رافقته فيها، تساءل مبارك طويلا قائلا لنفسه:

- لماذا تأخر فورد بالرد على القيصر؟؟ لقد كانت تعلم كل شيء عنه.. عملائه.. ممتلكاته.. عناوين العملاء.. أسرارهم.. شيفراتهم.. لكنها لم تتوقع أن يهدد كيانه وحياتي.. لم تتمكن من معرفة مكان بومبارديلا.. تفاجأت بالطائرات الشبح مثلي... أكيد أنها أنقذت الموقف.. لكن الأمر كان خارج سيطرتها للحظات..

لم يسأل مبارك الذبابة لأنه لم يكن يرغب بالضعف من جديد، لقد كانت حياته قبل أسابيع كتلة ضخمة من الحقارة والوضاعة والتقصيف، لكنها بفضل الذبابة تحولت من الانهزامية المقيتة إلى العلم والمال، أحس بنشوة القوة وهو يرى رأس ماتيلد تنفجر أسفل قدميه بينما كان يتوسل إليه، لو سأل ولم تكن الإجابة مقنعة من طرف الذبابة فإنه سيشتك في المستقبل الذي ما زال يجهله، لكنه كان مشتاقا لتحقيقه وعيش تنبؤاته كاملة...

لقد أخبرته أنه سيغير وجه العالم وأنه سيغرق في نعيم لا حصر له، لكن بعد دخول القيصر على الخط صار أمر تلك الأحلام مشكوكا في أمرها...

نزلت الطائرة بمطار كوغندا الدولي، كان صغيرا مقارنة بكل مطارات العالم إلا أنه كان يحترم المعايير الدولية لتوفره على كل ما يحتاجه أي مطار من خدمات للمسافرين.

فُتح باب طائرة مبارك وثرية قبل أن تطأ قدمها لأول مرة أرضاً غير أرضهم ويحس الاثنان معا بالغربة الحقيقية لأول مرة حيث كانت بانتظارهم ثلة من الموظفين الخاصين بخدمة ماتيلد السمين، كما كانت تقف بجانبهم مدرعات عسكرية خرج منها مجموعة من الجنود أثاروا الذعر بقلب ثرية.

و بعد غربة الأرض جاء دور غربة الشعب ليعتري مشاعر نزلاء كوغندا الجدد، كل سكان الأرض الجديدة ذو بشرة سوداء يتكلمون بلهجة غريبة، حركة الموظف الذي تقدم بمظلمته ليحمي ثرية من أشعة الشمس الحارقة بعد نزولها درج الطائرة، نظرات الجنود الفارغة لمبارك.

أرضهم.. شمسهم.. لباسهم.. تصرفاتهم.. حتى الهواء مختلف.
تقدم أحد الجنود من مبارك وخاطبه باللغة الفرنسية قبل أن تترجم ثرية ما قاله لمبارك.

- إنه يقول أن الرئيس مبالا سعيد بزيارتنا وأنه ينتظرنا في القصر الجمهوري.
التفت مبارك الى ثرية بوجه متجهم لم تختف من عليه آثار وقع الغربة أسفل قدميها التي ما زالت تتحسس بلدا غير بلدها وتنصت للعالم الجديد الغريب بحذر وخوف ثم قال تبعا لتعليمات فوردي.

- أخبريه أننا سنزور قبيلة مباكو شرق البلاد حيث يجب أن نستلم هدية من القيصر الأعظم تنتظرنا، ومن ثمّ سنعود إلى القصر الجمهوري للقاء الرئيس مبالا..

ترجمت ثرية أوامر مبارك فوراً ليعود الجندي مهرولاً نحو المدرعة العسكرية ويخرج منها هاتف لاسلكي أسود كبير الحجم، بدا واضحاً وهو يتعرق أنه يخبر رئيس كوغندا بأن الضيوف لن يرافقوا العساكر نحو القصر الجمهوري ثم أعاد الهاتف إلى

أحد الجنود وعاد ليخبر ثرية بأن الرئيس مبالا سعيد بزيارتهم وأنه ينتظرهم بفارغ الصبر في قصره وأن المدرعة العسكرية رهن إشارتها لتوصلهم إلى حيث هدية القيصر الأعظم، كما أخبرها أن أصدقاء القيصر هم أصدقاء مبالا.. رئيس كوغندا.. وأن طلباتهم أوامر.

لم تمض سوى دقائق حتى كانت ثرية ومبارك على متن مدرعة عسكرية تابعة لمبالا يقودها أحد جنرالاته شخصيا متجهين إلى محافظة مباكو شرق البلاد، غادروا المطار دون المرور عبر الإجراءات الروتينية التي تسري على كل المسافرين من الانتظار من أجل طبع جوازات السفر كما يفعل جل زوار كوغاندا، فتحت ثرية نافذة المدرعة الخلفية تستنشق هواء الأرض الغربية بينما كان مبارك شارد الذهن مترددا في طرح سؤاله على الذبابة فورد، كان مطار كوغندا يقع خارج العاصمة الإدارية للدولة، لكن المدرعة اضطرت لعبورها حيث أن محافظة مباكو تتواجد بالجانب الآخر من البلاد لتكتشف ثرية أن العاصمة مجرد خرابة مرقعة لا تمتُّ لصلة بالمطار الذي كان واجهة لمبالا أمام العالم، لقد عرفت رغم جهلها بالسياسة أن حاكم كوغندا مجرد لص، لقد كانت الجبال العظيمة الخلابية والمغطاة بغابات تنفجر منها الخُضرة تحفُّ كل جوانب العاصمة التي اختلط بها السكن العشوائي مع العمارات الشاهقة، حيث لاحظت عددا مهولا من البائعين المتجولين تكدست فوق عرباتهم أطعمة وخلائط غريبة وأكوام رز وعجائن بيضاء، وآخرون يتجولون بزجاجات خمر غريبة الشكل بلون البول تعرفت على بعضها وفهمت أنها قوارير عطر قديمة، لم تتصور ثرية يوما أن ترى بائعي خمر متجولين، وبدا لها أن الأخلاق تأكلت وسط الفقر وقالت محدثا نفسها، لا بدّ وأن لديهم مَعِدات من حجر وأكباد من فولاذ وأن أعصابهم مصنوعة

من كوابل الكهرباء، إنهم متقدمون عنا بسنوات ضوئية في فقه الفقر، ثم رأيت براريك صغيرة يعرض بها حيوانات مقرزة وأخرى لم تكن تعلم عن صلاحية بيعها وقالت مخاطبة نفسها أن الققط والكلاب والجردان يجب أن تصلي حمداً للأقدار على تواجدها بوطنها الأم، حيث أن الكل في كوغندا يبدو عليه الثمل والخطيئة، إنهم يجهلون هول الظلم الذي يعانون منه حتى أن المحظوظ منهم هو من يستطيع تخدير عقله ما أمكن بتلك الخمور المشبوهة، أحست ثرية بمدى استئراء الفقر عندما توقفت المدرعة بسبب الزحام في شارع الرئيس المفدى مبالا حيث تقدمت منها فتاة جميلة الملامح بشعر مجعد معجون بالتراب وأذنان مليئتان بالصماخ وأصابع مقترحة تنفجر من صندل مهترئ تحمل بيدها بعض الطعام الفاسد وتمدُّ يدها الأخرى وكأنها تطلب الحياة وليس المال، اجتاحت ثرية الرغبة بالبكاء وعرفت بحدس النساء من عيون البنت العسلية الجميلة أنها تعرضت للاغتصاب ما لا يحصى من المرات في دولة مبالا المفدى، أخرجت الماسة صغيرة من الكيس ووضعتها بقلب كفها لتتفقد الصغرة بالعيون التي امتلأت هلعاً لتعيدها إليها بسرعة وتركض وسط الزحام ثم تختفي وسط عالمها العفن مرة أخرى.

أغلقت النافذة، مسحت دموعها وشردت بذهنها بينما قرر مبارك أن يسأل الذبابة بعد أن انتصر الفضول عليه، حيث لا مجال لترك القيصر يفاجئهم من جديد...

قرر مبارك في تلك اللحظة لزوم أن يكون طرفاً في اللعبة المصرية التي ستجمع بين الذبابة والقيصر وأنه لن يكتفي بالمشاهدة وتنفيذ الأوامر، بل سيكون لاعباً أساسياً داخل الفريق لأنه يمتلك عقلاً أيضاً وقد لاحظ أنه تعلم الكثير في الأسابيع الماضية

وأن كل ما ينقصه يجب أن يتعلمه بدل أن ينفذه دون أن يعلم عنه شيئاً قبل أن يطرح أول سؤال ذكي تسمعه الذبابة منذ لقاءها..

- هل من المحتمل يا فورد أن يفاجئك القيصر الأعظم مرة أخرى؟
لم تجب الذبابة في الحين وكأن مبارك وضع أصبعه على الجرح الذي أخرسها بالطائرة، ظلت صامته إلى أن كرر سؤاله بصيغة أخرى...
- هل يجب علي أن أقلق يا فورد... لقد أصبح كل شيء وارداً بعد حديثنا مع القيصر.. هل..

وقبل أن يكمل مبارك قاطعته بصوت يتخلله شيء من الحدة..
- لا.. لا ينبغي أن تقلق مستر دكستر.. إنها حرب المعلومة.. يجب أن تضيف إلى رصيدك أي لا أخطأ.. لقد كان خطأ بشرياً محضاً.. لقد تأخر جريجور والسائق الفرنسي في تنفيذ الأوامر التي أعطتهم ثرية ولولا تهاونهم لما علم القيصر الأعظم بوجودنا على الطائرة الخاصة بما تيلد.. كما أي أضع جميع الاحتمالات نصب عيني حتى لا نقع فريسة السبق للمعلومة... لقد كنا ضحية خطأ بشري لن يتكرر.. ثم إنني غيرت مسار اللعبة وكل الخطط السابقة حسب ما استجدّ من أحداث.. لن يتمكن القيصر منك مهما فعل.. بل أنت من سياًخذ بزمام الأمور مباشرة بعد الحصول على بومبارديلا.. أعترف أنه ذكي جداً لأنه تمكن من إخفاء شخصه أكثر من عشرين سنة.. وأعترف أنه خلال بحثي لم أعثر على أي شيء يوصلني إلى بومبارديلا لأن كل شركاته وأمواله وممتلكاته تُدار من طرف وكلاء لا يعلمون عنه شيئاً وأول خيط وآخر خيط سيوصلنا إليه هو سجين الصندوق الزجاجي الذي سنحصل عليه بعد قليل..

- لكن من هو بومبارديلا يا فورد.. لم أعد أثق بك كما في السابق.. يجب أن أعرف كل شيء قبل أن أقوم به.. لقد تمكن القيصر منا.. ولولا فضوله لمعرفة سرنا لما كنا نتبادل أطراف الحديث الآن..

- أعترف لك أنه خصم قوي... لكننا سنتمكن منه وبسهولة مستر دكستر.. سترى.. أنا لا أعلم من هو بومبارديلا لأنه من أشياء القيصر الأعظم وكما أخفى نفسه فإنه أخفى كل ما يخصه.. سأحتاج سجينه فقط للمزيد من المعلومات حتى أغلق عليه كل المنافذ.. لأنك أصبحت الأهم بالنسبة له.. أنت من سيقضي عليه مستر دكستر.. لا تقلق.. تأكد من ذلك.

- سؤال آخر فورد.. سؤال كنت قد قررت أن لا أسأله لكنني أجد نفسي مضطرا لمعرفة الإجابة.. من أنــــت يا فورد؟

- أنا مستر دكستر هو مستقبلك.. وأنت مستقبل العالم..

- أنت تتهرب يا فورد من الجواب.. لقد صدّعت رأسي بأني سأغير العالم عشرات المرات ولكنني أصبحت أشك في الأمر برمّته.. الحرق كان مصيرنا في السماء بسبب خطأ في حساباتك.. إذن لا تقل لي أننا سنغير العالم.. أنا لا أريد تغييره.. أنت من يرغب بذلك.. أنا أريد فقط أن أغير حياتي... ورغم أنها تغيرت.. إلا أنني أراها تدخل دوامة أكبر وأعظم من طاقة تحملها.. أريد أن أعرف من أنت ولماذا تريد أن تغير العالم

- كما قلت مستر دكستر... أنت داخل دوامة أكبر من طاقة تحملك وخصوصا أكبر من علمك... حتى لو أجبك فلن تفهم قصدي كما أخبرتك عدة مرات ولن تعرف

من أنا... لكن عندما سيحين الوقت وعندما ستصبح جاهزا فلن تضطر للسؤال.. بل أنا من سيخبرك بمهمتك ورسالتك وغايتي...

توقفت المذرعة العسكرية فجأة وسط قرية صغيرة، نزل الجنرال وفتح الباب لثرية وهو يلوح لها بذراعه اتجاه الشارع الضيق الوحيد بالقرية حيث يتراص على جنباته المئات من الأكواخ والبيوت الطينية الرمادية اللون حيث يعمُّ ضجيج عارم بسبب عشرات الأطفال الذين يلعبون بكرات مصنوعة من بلاستيك وأوراق وحجارة صغيرة ولفافات تبغ قديمة وأشكال من الزباله أمام مخلوقات كانت مشاريع نساء فاشلة حيث اختفت من على وجوههم الأنوثة وحلّت مكانها جلود خشنة وأياد متسخة وأظافر مقصفة، قال الجنرال أن الرئيس المفدى مبالا لا يسمح لأي كان خارج القرية بالدخول إليها دون إذن منه شخصيا، حتى أن أهل القرية غير مسموح لهم بالخروج منها لأسباب لا يعلمها أحد.

أخرج مبارك الورقة الصغيرة التي بعث له بها القيصر حيث كتب عليها إحداثيات الموقع الذي يتواجد به بومبارديلا قبل أن يبدأ المسير مع ثرية وسط الشعب الذي يجهل أنه شعب ومنهم من أصبح يجهل أنه خُلق إنسانا، لاحظت ثرية ذلك عندما اقترب منها شاب قعيد يُجَرِّ قدميه المبتورة أرضا ليلمس سروالها بينما تقدمت عجوز شديدة السمرة بوحه شاحب لتلمس شعرها الأصفر وبعد أن حركت رجلها وتحاشت العجوز، وثبت الأخيرة للخلف وكذلك فعل القعيد فارا مبتعدا تاركا خلفه زوبعة مغبرة صغيرة، شعرت ثرية أنها وسط كائنات أخرى لديها أجساد بشرية ولكن تصرفاتها حيوانية أشبه بالكلاب والقردة والقطط عندما تفرغ.

تتالت خطوات مبارك بسرعة لتتبعه ثرية وسط صراخ الأطفال بملابسهم المغبرة
 الممزقة والذين لحقوا بهم مئات الأمتار مرددين كلاما غير مفهوم قبل أن يعودوا
 أدراجهم وكأن الزوار مروا في الحين أمام قضبان حديدية خلفها مئات القردة بحديقة
 الحيوانات، وقف الاثنان على صخرة عظيمة كانت هي نقطة الوصول تاركين خلفهم
 قرية الصفيح حيث ظهر بعيدا أسفل جرف صحراوي عظيم شبح شخص يلوح
 بكليتي يديه مشيرا إليهم بالنزول من على يمينهم حيث يوجد ممر غير واضح لكنه كان
 كافيا لوصولهم بسلام بعد دقائق إلى حيث توجد هدية القيصر الأعظم...
 بومبارديلا.

الفقر في الصيف أقل ألماً من الفقر في الشتاء....

شارل أزنافورا

بومبارديلا

لاحظ مبارك مع كل خطوة كانت تقربهم من الشخص الذي كان يشير اليهم بالنزول أنه شيخ طاعن بالسن رث الملابس بوجه مُغبر ولحية بيضاء مصفرة برمال الصحراء مختلطة بسمرة ملامحه الإفريقية ثم بدى من حركاته أنه أبكم أصم يعبر عن كل شيء بحركات واضحة وأصوات غريبة لا تكاد تُسمع دون تقطع وحشرة متلثممة، أمر الكهل ثرية ومبارك اللحاق به وسط الرمال والحجارة والأفاعي وأنواع غريبة من السحالي كانت تنتفض هاربة بعد مرورهم تحت الشمس الحارقة التي بدى معها أن الغلاف الجوي للأرض لم يكن يؤدي وظيفته على أكمل وجه، وصل الجميع بعد نصف ساعة من المشي حيث قطعوا مسافة الكيلومترين تقريبا لم تسعف فيهما ثرية غير المظلة الشمسية التي وهبها جنرال الرئيس مبالا، وقف الشيخ الأبكم أمام أرض قاحلة لا حياة فيها وأخرج من جيب جلبابه المثقب آلة تحكم عن بعد سوداء صغيرة الحجم وضغط على أحد أزرارها قبل أن يتسلل فتات الرمال أمامهم من جوانب حادة طويلة ويخرج من الأرض ببطء شديد باب مستطيل يصدر هديرا وأزيزا يدل على ثقل وزن الباب الحديدي العملاق.

بعد توقف الباب عن الارتفاع بدى أسفل أبصارهم درج حديدي بارق بلون الفضة، تقدم الشيخ ودعاهم للنزول خلفه، كانت خطوات ثرية ومبارك على الدرج تصدر قعقة غريبة قبل أن تنير المصابيح المستديرة والمعلقة الطريق أمامهم ويتجلى ممر طويل ذو جدران بيضاء جميلة، على بداية جنباته صورة لطفل رضيع، لاحظت ثرية على وجه مبارك تركيزا غير مسبوق وفهمت أنه يتلقى الأوامر من الجنى فورد

وأحست في لحظة ما دون سابق علم أن الشخص المقبلة عليه مع جارها الصعلوك قد يقلب يوما ما كل الموازين.

توقف الشيخ الأفريقي وأشار إلى مبارك وثرية بذراعه إلى آخر الممر حيث تنتهي الأضواء لتبدأ خطواتهم ببطء نحو بومبارديلا، كان الرضيع بالصورة على الجدران ذو عيون خضر مشعة وكأنها ليست طبيعية ومع كل ثلاث خطوات صور أخرى للطفل الذي صار أكبر سنا وأوسم وأجمل من ذي قبل الى أن اكتمل في آخر صورة، جميعها كانت تحوي وجه الطفل بخلفية سوداء حيث انتهى الممر وقد صار الطفل رجلا بشعر طويل ناعم أسود اللون وصارت العيون الخضراء أكثر نصوعا تنفجر منها الحياة والذكاء والجمال لدرجة الكمال حيث تسمّرت ثرية أمام الصورة الأخيرة بينما لم تتوقف خطوات مبارك نحو نهاية الممر.

سمعت ثرية مبارك يناديا قبل أن تستفيق من سكرتها أمام الشاب الوسيم وتتبعه إلى آخر الممر حيث كان الدهليز تحت الأرض يحتوي في آخره على صندوق زجاجي بحجم غرفة عظيمة بها أثاث فاخر من كراسي جلدية بيضاء أنيقة وطاولات زجاجية عليها زهور وورود أرجوانية تتخللها أخرى بألوان مختلفة ومكتبة عظيمة تحف كل جوانب الغرفة ممتلئة عن آخرها بالكتب وصور من الطبيعة على جدران ما تبقى من الصندوق تعلوهم لوحة كبيرة مغطاة بستار أبيض وتلفاز عملاق شاطئ معلق أعلى الغرفة يقابله كرسي أنيق أبيض كبير ظهرت من جنباته يد الشخص المحجوب عنهم بسبب علو الكرسي الذي يغطي كامل شخصه، ثم بدأ الكرسي يستدير ببطء لتظهر يده ثم تجلى لمبارك وثرية هدية القيصر الأعظم الرائعة.... مستر بومبارديلا.

وقف بومبارديلا وتقدم بخطوات بطيئة نحو ثرية.. أطلال النظر أمام دهبها من شكل السجين..

التفت إلى مبارك... حديق وتَمَنَّ قليلاً أمام ارتباك مبارك الذي حاول إخفاءه...
كان بومبارديلا السجين يرتدي بدلة من الكشمير الأبيض وسترة سوداء ناعمة تنعكس من عليها أضواء الغرفة الجميلة تنفجر من خلالها نظارة الوجه وصفائه من كل الشوائب وتتقاطر من عليه وسامة الرجل الكبير في السن ذو العيون البنية البراقة واللحية الخفيفة التي تخفي شفته العليا بينما السفلى تشعُّ بالحياة... لحية منمّقة مصفوفة منقسمة ألوانها بين الشيب الأبيض الناصع والأسود الداكن، متوسط الطول معتدل الأرداف مستقيم الأكتاف ذو حوض مصقول تعطي رأسه قبعة بيضاء إيطالية الصنع يتخللها شريط أسود بينما جنبات شعره الناعم القصير لم يتمكن الشيب منه بعد، يدان ناعمتا الملمس رغم كثافة الشعر بهما، رشيق التكوين يسحر الحجر، كان السجين بومبارديلا هو الأناقة بعينها.

تفاجأ مبارك من شكل السجين رغم تعليمات فورد ببدء الحوار معه، إنه الإحساس بالرهبة والهيبة التي قذفها شكل بومبارديلا بقلبه بينما كان الأمر مختلفاً لدى ثرية... لقد وقع شيء ما بداخلها وتساءلت عنه في لحظات قبل أن يتكلم الرجل الملاك... هل هي وسامته رغم سنه؟؟

ما هاته الهيبة وهذا الوقار الذي ينفجر من هذا الكائن؟؟
من هو بومبارديلا هذا... هل يُعقل.. هل يُعقل أن يكون هذا الرجل هو الحب؟
كيف يمكن أن تحتاجني الرغبة في تقديم حياتي هبة لهذا الرجل؟
هل هذا هو السحر؟

أحست ثرية بالدم يغيض من وجهها وتملكها فزع ورهبة عجيبين، أيقنت أنها أمام السحر بنفسه وأن روحه غرقت بروحها وأنها تحتاز أزمة هائلة مظلمة لا تعلم مصيرها.

طرد بومبارديلا فجأة كل تلك الأسئلة والمشاعر بعيدا عن قلبها عندما فهمت عنه رغم صوته الجوهري الرخيم والذي تتخلله بحة زادته هيبة أمام مبارك الصعلوك..
تكلم المسن الوسيم باللغة الإيطالية...
- منذ أكثر من عشرين سنة...

أوقفته ثرية مباشرة لتخبره أنها عربية وأن مستر دكستر كذلك وأنها تفهم اللغة الفرنسية والإنجليزية فقط، بدت علامات الاستفهام على ملامح بومبارديلا قبل أن يتسم ويكمل حديثه، لكنه أعاده بعربية فصحي متقنة وواضحة.

- آه... العربية.. لغة الضاد.. إنها لغة جميلة لم أتحدث بها منذ زمن بعيد... المهم.. لقد أصبحت خطوات الأبكّم شيفرة مخفورة برأسي حيث أن بإمكانني العثور عليه وسط ملايين البشر من صوت خطواته، لكن بمجرد أن سمعت صوت خطواتكما بعد فتح الدهليز الأرضي في هذه الصحراء القاحلة تساءلت قبل أن أراكما وقلت لنفسي...

من هؤلاء الذين تمكنوا من القضاء على القيصر الأعظم.... لكن... لكن أنا لا أرى أشخاصا بإمكاننا القضاء على القيصر الأعظم.. تبدو جاهلا يا هذا (يشير إلى مبارك) حتى قبل أن تتكلم... وأنت تبدين بريئة للحد الذي يثير الغثيان.. يبقى السؤال.. قائما.. من أنتم؟ وكيف تمكنتم من القيصر؟

بعد صمت عمّ جنبات الدهليز الأرضي كانت ثرية تحاول أن تهضم كلمات بومبارديلا القاسية وتذكرت لقطة في الفيلم الأمريكي الشهير (معا في الأسوأ

والأفضل) عندما قالت له البطلة لجاك نيكولسون، لقد أوشكت أن أحبك قبل أن تتكلم، لقد تكلم بومبارديلا وأفسد عليها سحره، كان مبارك ينصت لرد الذبابة التي أخبرته أن يقول للسجين أنه مجرد لاعب تافه في منظومة أكبر منه وأنت القيصر الأعظم القادم والمالك الجديد لكل شيء وأن حياته مرتبطة بالمعلومات التي سيقدمها لك، لكن ولأول مرة لم ينفذ مبارك تعليمات فوررد بل كان الرد ملكا له وحده حيث أصبحت الذبابة هي من تشاهد دون أن تفهم ما يحصل لمبارك من تغيير. - صدقت أيها الشيخ الأنيق.. أنا فعلا جاهل... والفتاة بجنبي فعلا بريئة.. ونحن لم نقضي على القيصر بعد... نحتاج مساعدتك للقضاء عليه.. سأصبح القيصر الأعظم عن قريب ومصير العالم سيكون بين يدي هاتين.. أنا فعلا جاهل لكن بإمكانني تغيير العالم إذا وافقت على مساعدتي للقضاء على القيصر ستعرف سر قوتي وستصبح حرا وسأجعلك ذراعي الأيمن.. أما القيصر فلقد وعدته فقط بالسرق قبل أن أقتله... كما أن رفضك أو موافقتك ليست بالأهمية التي يمكنك تخيلها... مساعدتك فقط ستُسرع الأمور لأصبح القيصر الأعظم.. وإن رفضت سأصبح القيصر الأعظم أيضا... لكن سأحتاج للمزيد من الوقت... الوقت الذي لا أرغب في إضاعته هباء.. أنا فقط مستعجل... لكنني سأنجح يقينا بك أو بدونك... ما إن أكمل رده حتى سمع الذبابة تتحدث بنبرة الغاضبة.. - نحن لا نحتاجه مبارك.. ما الذي فعلته.. وجب تغيير كل الخطط الجاهزة التي كانت تنتظر التنفيذ... أنت لست جاهلا فحسب بل غبي أيضا.. ابتمس بومبارديلا ووضعه يديه خلف ظهره وتوجه نحو اللوحة المغطاة بالستار الأبيض ووقف برهة... صمت... ثم قال.

- يمكن أن أعتبر نفسي في عداد الأموات... هذا الصندوق هو مصيرك حتما... لقد فهمت الآن أنت هنا ليس لأنك قضيت على القيصر ولكن لأنه سمح لك بزيارة سجنك القادم... وكل ما قلته الآن قد سمعه القيصر الأعظم وهذا دليل على غبائك زيادة على جهلك بمن هو القيصر.. أظن أنك لم تقدر القيصر حد قدره.. حتما سيكون مصيرك هو هذا الصندوق.. هذه اللوحة أمامي بها صورة القيصر الأعظم الأخيرة... وتلك الصور على جدران الممر الموصل إلى هنا كلها صورُهُ منذ كان رضيعا... حسبت أنكم قضيتم عليه لأن لا أحد يستطيع أن يصل إلى هنا قبل أن يقضي عليه.. ولا أحد يستطيع حتى لقائه...

رن هاتف صغير فوق الطاولة الزجاجية قرب المزهية داخل غرفة بومبارديلا قبل أن يجيب ويُسمع صوت القيصر الأعظم داخل وخارج الغرفة من خلال مئات الثقوب الصغيرة والتي تشكل خطوطا مستقيمة على طول الصندوق الزجاجي.

- انظر إليه أستاذي العزيز.. إنه السجين الجديد.. لا تستهن به أستاذي.. سيفاجئك... لكن يؤسفني أن الغرفة لا تتسع لشخصين.. استمتع بكل لحظاتك مع مستر دكستر.. لأنها ستكون الأخيرة.

بعد أن أكمل القيصر كلماته انشق الباب الزجاجي الذي كان واضحا من سماكته أنه مضاد لأعتى الأسلحة وغير قابل للكسر إيذانا بخروج بومبارديلا الذي اقترب من مبارك بخطوات بطيئة وبدأ يطوف حوله مقتربا أكثر فأكثر حتى جعل رأسه على كتفه ثم بدى وكأنه يشمّه قبل أن يقوم بنفس التصرف مع ثرية أمام ذهولها قبل أن يعود للحديث...

- اللوحة داخل الغرفة بها صورة القيصر هل تريد أن تراها... لقد داريتها بستر أبيض لأنني عدت أكرهه.. ألق عليها نظرة أخيرة قبل أن نخرج.. إذا كنت تريد أن تلتقيه يجب أن تعرف شكله الأخير..
انتفضت الذبابة محذرة مبارك..

- لا تدخل قد يكون فخا من القيصر للقبض عليك.. لا تدخل... إنه يلعب معك لعبة الفضول... نفس اللعبة التي فزنا عليه بها في الطائرة... إذا أغلقت عليك الأبواب فستدخل في دوامة الدفاع بينما من المفروض أن نهجم...
لم يكثرث مبارك لتعليمات الذبابة، وثب داخل الغرفة بسرعة واتجه نحو اللوحة المغطاة وجر من عليها ستارها لي شاهد بأم عينه شكل القيصر الذي أخاف الذبابة فورد، علّق عليها بومبارديلا قائلا:

- إنه القيصر الأعظم يا فتى.. رجل مشوه الخلقة.. لم يعد ذلك الوسيم الذي رأيتم بالصور في الممر.. انظر ماذا فعلوا به.. إنه بالكاد يرى... جلد حواجه يمنعه من الرؤية بعيونه الخضراء البراقة.. فكه مكسور.. أسنانه مهشمة.. لديه قصة انتقام عظيمة مع البشرية.. الشيء الوحيد الذي يخفف عنه الوحدة المظلمة هو أنا...
أستاذة.

بعد أن أكمل بومبارديلا كلماته أغلق الباب الزجاجي العظيم ذو الثقوب الصغيرة بسرعة على مبارك داخل الغرفة الزجاجية ليرنّ الهاتف مرة أخرى ثم يُسمع صوت القيصر مرة أخرى...

- أنت سجينني الآن مستر دكستر... لم أتخيل أن تدخل بهذه البساطة إلى الغرفة التي تعلم أنها ستكون سجنك...

رد مبارك مباشرة بعد أن ابتسم دون تدخل من فورد الذي بدأ يعيد حساباته...
 - لم تنته لعبة الفضول بعد أيها القيصر... إذا منعك الفضول من حرق الطائرة بالسما
 فقد دفعني أيضا لرؤية صورتك داخل سجنك الزجاجي وهو من سيدفعك لتركني
 أخرج لتعرف كيف سأقتل مبالا رئيس كوغندا وأيضا لتشاهد أسرع ثورة إفريقية
 سيعرفها تاريخ العالم الحديث...

صمت... سكون. ضحك.. قهقهة..

أغلق الخط ثم فُتح الباب الزجاجي من جديد وخرج مبارك يتمشى ببطء وثقة أمام
 دھول الذبابة التي لا يسمعها غيره ولأول مرة علم فورد أن الصعلوك أصبح تلميذا
 نبيا.

اقرب من بومبارديلا الذي كان يتسم بينا كانت ثرية هائمة في تفاصيل الأحداث
 التي خالتها صناعة السينما والأحلام فقط، إلا أنها كانت تعيشها وتستشق غرائب
 الجن وعجائب الأجرام العالمي وأناقة المسن الأنيق ذو العطر الأخاذ...
 قال مبارك بنبرة تتخللها الثقة الثبات..

- هل أنت معي مستر بومبارديلا أم مع القيصر؟

عم الصمت من جديد وعرف زوار السجين أنه سبح في التفكير بقراره المصيري
 الأخير حيث سيلتحق بفريق الشطرنج الذي يجهل عنه الكثير بينما لم يخطر بباله أن
 نفس الفريق يجهل كل شيء.

قال المسن الوسيم ضاحكا:

- من شروط الصداقة مع الرجال.. ذكائهم فأنا لا أطيق الأغبياء..

التفت إلى ثرية ثم أردف مبتسما..

- ومن شروط الصداقة مع النساء... تاريخهن فأنا لا أطيق النساء معدومي الخبرة... امتعضت ثرية بشدة من سخرية بومبارديلا الذي اقترب من مسامع مبارك ثم همس حديثا طويلا تجسست عليه الذبابة بكامل تفاصيله، الحديث الذي تسمرت أمامه والذي كانت تنبعث منه من خلال ملامح مبارك ووشوشة المسن الوسيم رائحة عطرة لمشروع صداقة رائعة ستجمع بين أفراد فريق متكامل قبل أن يشير إليها الصعلوك بيده لتهرع إليه وتمسك به ثم تتجه معه خارج السرداب وهي تلتفت لبومبارديلا الذي تبعهم بخطوات ثابتة ورصينة نحو الحرية حيث تنظرهم مباراة شطرنج معقدة ضد القيصر الأعظم.

الأصدقاء الذين تختارهم لك الظروف أجمل بألف مرة من أن تختارهم أنت.....

نجيب محفوظ

المرأة الحديدية

توقف بومبارديلا على آخر الدرج بالسلم الحديدي المؤدي إلى الحياة خارج السرداب، كانت الشمس حمراء كبيرة تغرق وهي تسحب تحتها ذبلاً أصفر فوق صفحات كُثبان الرمل الذهبية إذانا بغروبها عن آخر يوم من السجن بعد عقدين من الزمن قضاهما تحت الأرض، التفّت مبارك وثرية ليجدوا المسن الوسيم وقد أغمض عينيه ورفع ذراعيه عالياً وعليه ابتسامة صادقة تنفجر من ملامحه قبل أن يتقدّمهم تاركا خلفه أمواجاً من عطره الساحر وهو يقول...

- لا تنسى وعدك مستر دكستر... لا تتركني للموت قبل أن تُخبرني بكل شيء... كل شيء.. رغم أن لا شيء بالخارج سوى مصنع كبير للحماقة واختلاط الحمقى بالحمقى.. إلا أنني سعيد بمعرفتكما..

بعد أن ابتعد بومبارديلا بخطواته التي سارت أسرع فأُسرع نحو دور الصفيح بمحافضة مباكو سألت ثرية رفيقها عن ما أخبره به المسن بينما كان مشّت الذهن يسمع صوت صديقه الجن ليجيبها متأخراً بصوت خافت..

- لا عليك ثرية.. سينتهي هذا الكابوس قريباً جداً.. صديقي فورد يرغب بثروة مبالاً من أجلنا... وهذا الشخص سيساعدنا في القضاء على القيصر.. قصتنا لم تبدأ بعد.. إنه مجرد كابوس سينتهي قبل نهاية هذا الأسبوع.. بومبارديلا لديه خطة لكنه لن يتكلم عنها إلى أن نقضي على مبالا.. وصديقي فورد وافق عليها.. يجب أن تعقلي كل ما سأخبرك به.. أنت من سيقضي على مبالا وحدك.. يجب أن تكوني شجاعة ثرية.. أنا لا أتحديث الفرنسية.. سأخبرك بكل ما عليك قوله لمبالا.. كل شيء تحت السيطرة ثرية.. لا تخشي شيئاً..

بعد نصف ساعة من المشي وصل الثلاثة إلى قرية مباكو حيث نزل الليل ولم يبق من آثار الشمس إلا شفق أحمر قرمزي كما لو انشقت كومة فحم عظيمة على لهب ودنت النجوم من أحفاف الرمال المترامية كدراهم فضية تعلو قبة زرقاء، كانت المدرعة العسكرية تنتظرهم قرب بعض الخيام حيث تتأجج نيران صغيرة تلتهم أكوام حطب البؤساء تحتها، فُتح باب السيارة لثرية ومبارك بينما ركب بومبارديلا جنب الجنرال ليسود صمت مظلم لساعات قبل الوصول إلى مبالا حيث برقت الأضواء ولاحت الحياة المسروقة من الشعب أمام الضيوف، كان الجنود يحرسون أمواله بقصر القائد المفدى.

كان قصر مبالا يسبح فوق هكتارات أرض كوغندا الغنية بجبال الألماس، حيث استغرقت المدرعة عشر دقائق للوصول إلى باب القصر الرئيسي عبرت خلالها طريقا طويلا تحفه أشجار عظيمة وحدائق غريبة أقرب لفكرة جنة الخلد، توقفوا خمس مرات أمام حواجز أمنية وتفحصهم رجال الأمن فردا فردا قبل الوصول إلى باب القصر الذهبي العملاق حيث كان بجانبه تمثالين عظيمين من رخام براق لفهدين أسودين، تقدم فريق الشطرنج إلى الباب قبل أن يخرج جندي آخر يمسك في يده جهازا إلكترونيا على هيئة عصا تصدر أزيزا لفحصهم بعناية، بدأ مبارك بالتعرق رغم تماسك أعصابه بينما كان الخوف يأكل ثرية التي أصبحت المهمة ملقاة على عاتقها بالكامل، فكرت قبل دخولها لقصر مبالا أنها قبل أيام معدودة فقط كانت مجرد مومس تباع جسدها لمن يدفع أكثر رغم أنها حاصلة على البكالوريا الذي لا يسمن ولا يغني من جوع ودبلوم في السكرتارية لم ينفعها يوما في الحصول على راتب محترم بل كانت تتعرض بسببه للتحرش وخسة المدراء الذين اشتغلت عندهم لتجد نفسها

بعد سنين من المعاناة فريسة الشارع إن هي لم توفر مبلغ إيجار غرفة تأويها، وها هي الآن ستتحدى رئيس دولة متجبر بمعلومات وحروف وأرقام أخبرها بهم صديقها الذي يتحدث مع الجن ثم ضحكت على قدرها وعجائبه حيث أن سقف الخوف والرغبة ارتطم مع هرمون الأدرينالين الطبيعي الذي اختلت موازينه لتلبس ثياب شخصيتها الجديدة، شخصية المرأة الحديدية.. نسرين كرم سكرتيرة القيصر الأعظم الجديد.

كان قصر مبالا مرصعا عن آخره بكل أنواع الجواهر الثمينة التي تكسو جنبات جدرانه وسقفه الشاهقة بشریات الكريستال العملاقة المتدلية وأعمدته الرخامية المستديرة التي تحفها نقوش بلغات عربية وفارسية والكل على سجاجيد تركية فخمة. دخل الثلاثة إلى قاعة عظيمة تتخللها مائدة اجتماعات كبيرة اصطفت حولها ثمانية مقاعد والكل من خشب الآروفي آخرها كرسي كبير عليه تاج ذهبي صغير ثم سمعوا صوت الرئيس مبالا خلفهم يدعوهم للجلوس قبل أن يمر بجانبهم نحو عرشه ليجلس بدوره وتبقى ثرية الأنثى الواقفة الوحيدة وسط القاعة قبالة.

كان الرئيس مبالا عظيم الجثة يلبس بدلته العسكرية التي تتدلى منها على صدره عشرات النياشين بكل الألوان التي تلمع تحت ضوء الكريستال، كانت خوذته البيضاء الرسمية متدلية تحجب نصف وجهه الأعلى حيث بدت شفتاه العظيمتين على أهبة الانفجار بينما كان يلوح بعكاز أسود مثقّب نقشت عليه رسوم غريبة نحو مبارك متحدثا باللغة الفرنسية التي ضاع جمالها بعدما خرجت من ثغره.

- لقد أخبرني القيصر أنك تشكل خطرا على أمن دولتي يا هذا... وأشار علي أن أقتلك دون أي تفاصيل أخرى.. هل يمكن أن تخبرني من أنت يا هذا؟؟ لقد تمّ

تفتيشكم قبل الدخول... وهذا يعني أنكم لا تملكون أسلحة... إذن كيف لك أن تهدد عرشي يا هذا؟ تكلم (يصرخ).

لم يُجب مبارك بكلمة بل أشار الى ثرية لكي تأخذ بزمام الأمور وتبدأ الحوار لتطأ برأسها الصغير ويتموج شعرها الأصفر الذهبي اللامع ثم تلتفت جهة الرئيس مبالا الذي فهم أنها تنفذ أوامر الشاب الذي لم تستطع بدلته السوداء ونظاراته إخفاء ملامح خريج كلية السجون.

- مستر دكستر لا يتحدث الفرنسية... أنا أتحدث باسمه هنا... إنه يطلب منك إحضار حاسوب متصل بالإنترنت... إنه يريد أن يريك أمرا يُحْصِك.

لم يُجب مبالا بكلمة بل أشار الى جندي بأقصى القاعة لكي يهرع نحوه قبل أن يهمس له بمسامعه ليركض نحو الخارج أمام نظراته القاسية و ينتظر الجميع عودته وهو يحمل حاسوبا نحيفا ثم يفتحه أمام الجميلة ويضعه فوق المائدة المستديرة لتنحني عليه وتبدأ بالنقر لدقائق بدت لا تنتهي في بحر الأنترنت وتزداد قسوة نظرات مبالا قبل أن تتوقف برهة ثم تحمل الحاسوب بدورها وتتجه نحو مبالا وتضعه فوق ركبتيه العظيمتين دون أن تنطق ثم تعود حيث كانت وتقول..

- شغل الفيديو أيها الرئيس....

تحركت يد مبالا نحو الحاسوب ونقرت نقرة واحدة ليسمع معها صوت صراخ أعاد معه نقرة أخرى قبل أن يعتدل على عرشه وقد ازداد وجهه سوادا وظلمة ليقول....

- ما المطلوب مني مستر دكستر؟

أجابت ثرية على الفور بينما كان الجندي في أقصى القاعة يركض نحو مبالا بهاتف نقال يرن دون توقف...

- إنه القيصر على الهاتف سيادة الرئيس.. إنه يريد الإبقاء على عبوديتك.. القيصر الأعظم الحقيقي هو مستر دكستر الجالس أمامك هنا.. إذا تكلمت مع القيصر عبر الهاتف فلن تحصل على حريتك.... الذي يهدد عرشك هو القيصر القديم.. مستر دكستر يُفضل أن يكون عملائه أحراراً...

أمسك مبالا بالهاتف وتوقف برهة ثم نظر الى الحاسوب قبل أن يعجن الهاتف بقوة وكأنه قطعة خبز ثم يقول...

- ما المطلوب مني مستر دكستر؟

وثبت ثرية بعد سؤال مبالا الذليل بخطوات سريعة نحوه ثم اختطف الحاسوب من فوق ركبتيه وكأن الأمر قد حُسم وهي تخاطبه...

- المطلوب أن تحضر فريقك الطبي الموجود بالقصر حالا وبسرعة...

حدّق مبالا مستغربا تباعا في وجه ثرية الحاسم وملامح مبارك الرصينة وابتسامة بومبارديلا المنتشية وعلم أنه أمام فريق أقوى من القيصر وما هي سوى دقيقة من الزمن حتى كان بالقاعة خمسة عشر طبيا بدلاتهم البيضاء وحقائبهم رهن إشارة ثرية التي اقتربت من رئيسهم لتهمس له في أذنه بينما كان بومبارديلا يُعري على ذراعه اليسرى ليضعها فوق المائدة المستديرة في حين وثب مبارك بدوره نحو إحدى حقائب الأطباء ليفتحها وكأنه كان يعلم أن بها منشارا كهربائيا ويضغط على زر تشغيله بسرعة ويهمّ بتقطيع اليد اليسرى لبومبارديلا دون تحذير....

لم يصرخ المسن الوسيم الذي غطّت دماؤه المنفجرة نصف الطاولة أمامه قبل أن يفقد وعيه مبتسما، ارتقى حوله الأطباء لإسعافه من البتر المفاجئ الذي تمّ في رمشة عين

من طرف مبارك، أخذ اليد المقطوعة التي يتقاطر من لحمها وعظمها دماء حمراء صافية الى مبالا وهو ينظر إلى ثرية لتكمل الخطوة...

- يجب إبعاد هاته اليد سيدي الرئيس من هنا.. إرمها في أقصى مكان بعيدا عن القصر...

أشار مبالا المرتعدة فرائسه رغم سطوته إلى الجندي في أقصى القاعة لينفذ أوامر ثرية بينما حمل الأطباء بومبارديلا إلى مستشفى القصر ليملموا لحمه وجلده على عظمة معصمه ثم عاد السكون وعاد مبارك لمقعده وهو يمسخ عنه قطرات الدماء من على وجهه وعلمت الجميلة أن الصعلوك كان على حق يوم أخبرها أن الأمر صعب فقط أول مرة... أما بعد فكل شيء يتحول إلى أرقام، استأنفت ثرية الحديث مع مبالا...

- الفيديو الذي شاهدت سيدي الرئيس هو لشخصك وأنت تقتل معارضك اللدود كويلاردا قبل أن تقطعه إربا.. أنت تعلم أن كويلاردا سبب لك مشاكل عدة عندما دعا لمظاهرات في شتى أنحاء البلاد مطالبة بالديمقراطية وتداول السلطة وبعد القبض عليه لم يستتب لك الأمر إلا بعد شهور من القتل لإطفاء شرارة الثورة التي أسالت لعاب بعض جنرالاتك للانقضاض على عرشك الذي شيدت لسنوات... هذا الفيديو حصل عليه القيصر من أحد جواسيسه بقصرك يوم علم أنك ستمارس ساديتك على المعارض كويلاردا.. إذا شاهد شعبك الفيديو اليوم فقل على عرشك السلام اليوم... خصوصا وأن مستر دكستر لديه القدرة على بثه مباشرة عبر قنواتك الوطنية و.....

قاطع مبالا الذي خارت قواه وذاب وسط الكرسي بعد أن ركل التاج الذهبي عنه
برجله وهو يضع يده على جبهته ليغطي عيونه التي اختفت منها القسوة وحلّ بدلها
الذل قائلاً:

- طلباتك مستر دكستر؟؟؟

فردّت ثرية بصوتها الناعم وكأنها تعزف موسيقى على مسامع أعصابها التي انتفخت
وتحجرت ثم لانت في ثوان معدودة.

- المطلوب سيدي الرئيس هو كل ما تحتوي عليه خزنتك من ألماس حالا... إنها ثمن
حريتك... إنها ثمن عرشك.... مستر دكستر يعدك أنه سيمسح الفيديو وأنت لن
تسمع عنه بعد اليوم... إنه يرغب أن تكون شريكا حرا...

وقبل أن تكمل ثرية كلامها قام مبالا من على عرشه وهاتف رجالاته ليحضروا ثلاثة
وخمسين حقيبة سوداء ممتلئة بالألماس الحر الذي نهب من شعب كوغندا الجائع
ليضعها أمام أقدام الصعلوك مبارك والمرأة الحديدية... ثرية.

امنح الثقة ولكن لا تستغني عن سلاحك....

باولو كويلو

الثورة

خرجت من القصر الجمهوري ثلاث مواكب مهيبة تضم عشرات السيارات الرباعية الدفع السوداء بكل منها لتتجه نحو مسارات مختلفة كانت أهمها التي تؤمن سيارة الليموزين الخاصة بالرئيس مبالا المفدى وسيارة إسعاف كبيرة كما بالموكبين الآخرين بينما كان فريق الدراجين الرئاسي يتقدم المشهد نحو مطار كوغندا الدولي، توقفت الحركة أمام آلاف المسافرين بعد دخول عدد هائل من الجنود إلى ردهات المطار قبل أن يفتح طريق خاص من أجل دخول الليموزين وسيارة الإسعاف إلى حيث توجد طائرة الرئيس مبالا.

نزلت من الليموزين ثرية وتلاها مبارك وصعدوا سلم الطائرة الرئاسية ثم تلاهم جنود كُثر يحملون حقائب سوداء أمام جنرالات مبالا المصطفين بنياشينهم وعلى وجوههم الخشوع الذي اختلط معه الدهول ثم أخرج جنود الوقاية المدنية السرير الذي يرقد عليه مستر بومبارديلا من سيارة الإسعاف بحذر قبل أن تحمله رافعة كبيرة ويُفتح باب علوي خاص ويُختفي السرير داخله.

أغلقت أبواب الطائرة بعد نزول جنود الحقائق وأنفصل السلم الكبير ثم عاد إلى الخلف بينما صمّ دوي صوت محرك الطائرة المزعج آذان الجنرالات، وما هي إلا دقائق حتى كانت ثرية ومبارك ومستر بومبارديلا يخلقون في السماء مبتعدين عن كوغندا وقائدها مبالا.

فتح بومبارديلا أعينه في غرفة نوم ملكية في قلب طائرة الرئيس مبالا، كانت ثرية تجلس قبالته على يمينه فوق كرسي أصفر من الجلد الفاخر بينما كان مبارك يحرق به عن يساره في نفس المشهد، جرّ الإزار الأبيض من عليه باليد اليمنى وتطلع إلى اليد

المتورة وهو يتسّم، كانت على بدلة الكاشمير البيضاء الكثير من البقع الحمراء الدموية بينما كان شعره القصير الناعم الملمس غير مصفف، التفت إلى يمينه باحثاً عن قبعته البيضاء ليلتفتها ويضعها على رأسه ببطء قائلاً:

- لقد صدق القيصر... أنتما تحملان سرا عظيماً.. من المستحيل أن يتمكن شاب لم يكمل عقده الثالث وحسناء صغيرة من معرفة أسرار القيصر وتركيع رئيس دولة كما فعلتما... لقد تيقنت الآن أنكما كنتما ستمكنان مما تصبوان له حتى دون مساعدتي... يبقى السؤال القاتل... من أنتم؟؟

التفت مبارك نحو ثرية وطأطأ برأسه ببطء لتلتقط الحاسب المحمول من على الطاولة الرخامية عن شالها وتفتحه وتبدأ في النقر على لوحة المفاتيح لثواني معدودة قبل أن تقول لمبارك...

- لقد انتهيت...

نظر مبارك إلى بومبارديلا قائلاً:

- لقد تم اختراق القناة الوطنية لدولة كوغندا... سيعرض عليها الآن فيديو مبالا وهو يقتل معارضه كويلاردا ثم ينكل بجثته... لقد وعدت القيصر أنني سأطيح بالرئيس مبالا.. بقي أن أقتله ثم ينتهي الأمر...

ابتسم بومبارديلا قائلاً:

- لكنك وعدت مبالا أيضاً بأنك لن تذيع الفيديو.. أفهم أنك والجميلة بلا أخلاق.. لقد وعدتم الرجل... ثم إنكم ارتكبتم جريمة ضد الإنسانية بتصرفكم هذا... ردت ثرية مباشرة على كلام بومبارديلا بنبرة غاضبة...

- الجرائم ضد الإنسانية هي التي يقوم بها مبالا المجرم وليس نحن... أظن أننا حررنا ذلك الشعب المقهور من سطوة دكتاتور دموي...

لم يتمالك بومبرديلا نفسه وحاول الوقوف قبل أن تطوف به أرض الطائرة ويعود ليجلس على سريره ضاحكا بصوت مبحوح يتخلله سعال حاد جعله يتوقف عن القهقهة ثم ابتسم قائلا:

- هل تظنين فعلا أنك حررت ذلك الشعب... ما هذه البساطة والتفاهة... هناك شخص أو شيء أكبر خلف تصرفاتكم.. لا أعلم من أين تستقين معلوماتك لكنك أبسط مما تخيلت.. رأسي ستنفجر... الفضول يقتلني... عجيب.. دعيني أخبرك مدى فظاعة الجرم الذي اقترفته يدك سيدتي... لا أعلم هل هو غباء أم تقصدين فعلا ما سمعت... لعلكم كوغندا تنقسم عرقيا إلى قبيلتين هما.. قبيلة التسوكا وقبيلة مباكو.. لقد حكم مبالا كوغندا بعد انقلاب عسكري على القائد شاما من قبيلة مباكو قبل عشرين سنة، قتل لتثبيت حكمه قرابة المائة ألف معارض مسلح وكل الجنرالات السابقين بينما تسببت قبله الحرب الأهلية بين القبيلتين في وفاة مليوني شخص.. سبب الحرب الأهلية أحقاد تاريخية عمرها أكثر من ألف سنة بينهما لم تنته إلا بتربع مبالا على عرش السلطة حيث أن الجشع دفع به إلى قتل أبناء قبيلته الذين كانوا يرغبون في اقتسام كعكة كوغندا معه.. وكان أن خمدت فتنة الحرب العرقية بين القبيلتين عندما عمّ الظلم والتقتيل والسجن والتعذيب لكليهما.. أما المعارض المسكين كويلاردا فسيكون شرارة ثورة عاطفية لم تتحمل رؤية الرئيس مبالا يلطخ يديه بدماء مواطن كوغاندي وبعد موت مبالا والأكد أنه سيقتل من طرف أحد جنralاته اليوم قبل غد لإخماد الثورة وسرقة العرش وليس في سبيل الوطن، سيظن

الشعب أنه أمتلك زمام الأمور في حين أن حروب التطهير العرقي ستبدأ من جديد وسيروح ضحيتها ملايين من الأبرياء والأطفال ولن تنطفأ نارها سوى بدكتاتور جديد يعاقب الملايين من شعبه على الطائفية بسبب السلطة قبل أن يعاقب الشعب نفسه بالطائفية التي ستقوده حتماً للمجاعة ثم تتكرر العملية إلى ما شاءت الأقدار في مشهد سريالي مظلم....

حرب الشعب الكوغاندي الأولى ليست مع الدكتاتورية ولكنها مع الطائفية والقضاء عليها يحتاج وعياً جماعياً يحتاج بدوره إلى رغبة حقيقية وعامة من طرف كل فرد بكوغندا في تغيير قناعاته ومسلّماته البهيمية الأولى ومن ثمّ الحديث عن الديمقراطية... لن تنتهي الحرب التي أشعلت أيتها الحسنة عبر حاسوبك فوق الكرسي المريح على طائرة مبالا الرئاسية إلا بعد سنوات... لم يتحرك ضميرك وأنت تنهين حقائب الألباس التي تساوي ملايين لا حصر لها من الدولارات تستطيع تعمير كوغندا وأربع دول أخرى... تذكرني أنك السبب المباشر والرئيسي في الموت المحقق لملايين البشر والذين ستقتات على أخبارهم وصور أشلائهم جميع قنوات العالم خلال الأعوام القادمة...

إنها أفريقيا أيتها الجميلة البريئة... وقانونها الأسمى... من يستيقظ باكراً يقتل النائمين ليحكم.

اغرورقت عينا ثرية بعد أن أكمل بومبارديلا حديثه بينما تغيرت ملامح مبارك الذي استغرب مستهزئاً وملخصاً المشهد..

- لم أفهم عنك كثيراً يا هذا... لا أحب المصطلحات السياسية لأنها تشبه مادة الرياضيات التي كنت أكره قبل طردني من المدرسة صغيراً... ولكن هل خلاصة

قولك أن الشعب سينقسم فرقتين تتهاوش فيما بينهما بالقتل والتنكيل بعد أن كانوا يشكون من القتل والتنكيل... أليس هذا قمة الغباء..

سألت ثرية مبارك المستغرب والفرع يعتري ملامحها سوادا...

- هل يمكن إيقاف هذا الكابوس دكستر؟؟؟

قام مبارك من مكانه ونادي مضيئة الطائرة الرئاسية وأشار إلى التلفاز المعلق بالغرفة الفخمة قبالة سرير بومبارديلا ثم أعطى آلة التحكم لثرية لتنتقل بين القنوات الإخبارية العالمية حيث كانت جلها تعرض مقاطع من جريمة القتل المروعة لرئيس كوغلندا بينما على قنوات أخرى مظاهرات شعبية خرجت مباشرة إلى شوارع العاصمة بعد إذاعة المجزرة على القناة الوطنية، احتل الفيديو الصدارة في دقائق بعد بثه على التريند العالمي في موقع اليوتيوب ثم أحست ثرية بموازين أحشائها تحت تلاء دوار ورغبة في التقيؤ لتركض بسرعة إلى الحمام وتغلق الباب بقوة ثم تنفجر بالبكاء.

كان سيناريو بومبارديلا مرعبا وقد تحققت أولى نبوءاته بعد دقائق وتساءلت إن كانت ستمتكن من العيش معه إن تحققت البقية...

هل ستستطيع عيش أحلامها مع مبارك خلال السنين القادمة بينما سيكون مصير شعب كامل يرزح تحت سطوة نقراتها تنفيذا لأمر الجنّي.. ما الذي يريده من مبارك... هل كان يعلم بما سيحصل لكوغلندا...

ثم سمعت طرقا خفيفا على باب الحمام لتفتح وتجد مستر بومبارديلا واقفا تُشع من على وجهه ابتسامة الأب العطوف قبل أن يمدّ يده نحوها قائلاً:

- رغم أنني لا أعرف من أنتِ أيتها الحسنة... إلا أنني تأكدت أنكِ إنسانة... لا تبالي بما قلته سابقا رغم أنه واقع لا محالة... لقد علمتني الحياة الكثير... أنتِ مجرد حبة رمل

في كون شاسع وزمن أوسع وكل شيء واقع لا محالة وتحصيل حاصل لا فرار منه... تختلف فقط حبات الرمل عن بعضها البعض... مبالا كان سيقتل عاجلا أم آجلا.. الاحتفاظ بالسلطة إلى الأبد شيء صعب جدا لأن التوفيق بين المتناقضات مهمة مستحيلة، إن أفضل سيناريو كان من الممكن تقديمه لشعب كوغندا هو المعارض كويلاردا الذي كان قطعاً سيقيم حكماً استبدادياً آخر لحماية ثورته.... الجهل هو من يدمر الشعوب أيتها الحسنة وقطعاً ليست نقراتك على الحاسوب... أنتِ حبة رمل بريئة فقط، ليس من الضروري أن يكون رأيك مقبولا ولكن من الضروري أن يكون صادقا.

و رغم أن كلمات بومبارديلا أطفأت شيئاً من بعض الحرقه بصدرها إلا أن مشوارها نحو السعادة بدى قصياً جداً، عادت ثرية إلى كرسيها تجفف دموعها بينما وقف بومبارديلا أمام مرآة كبيرة على يساره في جدار الغرفة، كانت مرصعة بالذهب الخالص الذي يحفّ جوانبها، تفاجأ من شكله قليلا ثم راح يقلب يده المبتورة المضمّدة ويطلع عليها من كل الزوايا بينما كان مبارك لا يزال جالسا ويبدو عليه التركيز الشديد الذي لاحظته بومبارديلا قائلاً...

- لاحظت أنك تشرح كثيراً بذهنك وأحياناً أحس وكأنك غير موجود... هلا أطلعني على شرك مستر دكستر... لن أستطيع أن أساعدك كما ينبغي وأنا أجهل مصدر معلوماتك.. لقد ساعدتك عندما أخبرتك بأني مراقب وأن القيصر زرع بعظم يدي رقاقة للتنصت والتتبع عبر أقماره.. لو لم أخبرك بهذا الأمر لكان القيصر يتجسس عليك الآن وكان أمر القضاء عليه صعباً... إنه لا يعلم الآن موقع طائرة

الرئيس مبالا ولا يعلم كيف سيصل اليك... بقي أن تخبرني عن مصادرك لأساعدك في القضاء عليه بسرعة كما ترغب...

بعد أن أنهى بومبارديلا طلبه بقي مبارك صامتا بعض الوقت قبل أن ينهض ويتقدم نحوه ويجيبه بنظرات قاسية تحمل في طياتها القوة والندية والثقة.

- بالنسبة للقيصر فأمره انتهى حيث سأقضي عليه دون الحاجة لخدماتك.. ما ينقص بنك معلوماتي هو أنت.. أنا أعلم كل شيء عن القيصر ولكني لا أعرف لماذا احتجزك تحت الأرض عشرين سنة ولماذا كنت مهما بالنسبة له.. إذا أقنعتني قصتك.. أعدك أنك ستصبح ذراعي الأيمن.. لقد موهناه بعد الخروج من القصر تبعا لتعليماتك ولكني أمتلك خططاً لا تحصى للقضاء عليه.. أريد معرفة قصتك مع القيصر مستر بومبارديلا.

ليس التلميذ وعاء تملؤه، إنما هو شعلة عليك أن توقدها...

أينشتاين

القيصر

ابتسم بومبارديلا ثم عاد الى سريره بعد أن أحس بالدوار يعاوده ثم استلقى بهدوء على المخلدة الكبيرة المنتفخة بريش النعام، مدّ رجله وأخرج من صندوق خشبي صغير عن يمينه سيجارا طويلا من نوع بلاك دراجون ليرفعه بأصبعين مرتعشين قبل أن يضعه بين شفتيه ويشعله بقدّاحة ذهبية كانت قرب الصندوق ثم يمتص نفسا طويلا وينفث غمامة بيضاء اتجاها سقّف الغرفة الرئاسية بالطائرة ويقول مبتسما:

- مضحكة هاته الأقدار مستر دكستر.. ثمن هذا السيجار الذي بين أصابعي ألف دولار وزيادة وثمان العلبة كاملة اثني عشر ألف دولار... وتسعون بالمائة من شعب كوغندا يرزحون تحت خط الفقر.. ومبالا قبل قليل كان رئيس دولة معترف به عالميا... أتخيّله الآن يختبأ بالمجاري تحت قصره خوفا من رصاصة غادرة من أحد جنوده قبل أن يقتحم الشعب ملكوته ليستعيد بعض الفتات من حقوقه.... أظن أن الأقدار مضحكة أيضا فيما يخصكما ولكن الفرق أني أجهل كيف.. سأخبرك مستر دكستر... رغم أني أتخيلك بغير هذا الاسم فدمائك إفريقية شمالية عربية بربرية.. ولكن لا يهم... سأخبرك بكل ما أعرفه عن القيصر ولكن بالمقابل أريد أن تعرض علي كل ما تعلمه لتأكد أني لن أخبرك بشيء تعرفه أصلا..

بدت نظرات مبارك خاوية تسبح وسط فراغ بينما كان بومبارديلا ينتظر الرد وثرية تعتدل على كرسيها لسماع الحوار الذي سيتمخض عنه فهمها لقصة المسن الوسيم مع القيصر الأعظم.

كان مبارك ينصت لتعليمات الذبابة فورد التي ينقصها كل شيء عن بومبارديلا والقليل عن القيصر لتوافق على تبادل المعلومات ما دام المسن الوسيم لا يشكل خطرا داهما عليهم ثم يتكلم بلسان الحشرة.

- صحيح.. من المفروض أن تعلم ما نعلم لربح الوقت.. اسمه الحقيقي هو نيكولاس ماندي.. هو أخطبوط نشأ في قلب عصابات المافيا الإيطالية بالولايات المتحدة الأمريكية وبالضبط بنيويورك.. أعلم أنه كان عضوا في فرع نابولي ثم انتقل الى فرع كورونا يونيتا حيث اختفى من الوجود ثم عاد بعد سنوات ليتربع على عرش كل فروع المافيا في أقل من خمس سنوات بذكائه... وبعد أن داع صيته بشكل كبير حيث صار مبحثا عنه من طرف الأمن الفيدرالي الأمريكي، غير طريقة عمل المنظمة الإجرامية بالكامل... لقد جعل تعقُّب تعاملاتها أمرا شبه مستحيل حتى على الإنتربول الدولي.. القيصر صنع ماكينة لكسب المال بشكل مهول وأيضا نظاما لتبييضه في نفس الوقت قبل أن يختفي عن الأنظار الى الأبد.. والسبيل الوحيد للعثور عليه هو أنت مستر بومبارديلا.. لأنني أعلم أنه بحث عنك طويلا قبل أن يختفي تاركا إدارة كل أمواله لخادمه الوفي سلمان خان.. الآن يبدو أن القيصر استغنى عنك.. إنه يريدني كبديل بالغرفة الزجاجية... أنا أعلم كل شيء عن سلمان خان وسأصل إلى القيصر وسأقتله وسأرث عنه ماكينة ضخ الأموال الرهيبة وسينتهي الأمر.. جاء دورك مستر بومبارديلا لتخبرني بقصتك مع القيصر ولماذا ترك كل شيء بحثا عنك؟ ما إن فرغ مبارك من عرض معلوماته حتى لاح بريق بعيني بومبارديلا ثم ابتسم طويلا ونفث دخان السيجار الأبيض قبل أن يرد.

- كل ما تفضلت به معلومات معروفة رغم شتاتها... أعترف أن تجميعها شيء صعب... أظن أنك تطلع على ملفات الأمن الفيدرالي الأمريكي... كيف ذلك... لا أعلم... وأظن أنك تتجسس على أهم أعضاء المافيا التابعين للقيصر... كيف ذلك.. أيضا لا أعلم... ولكن يؤسفني أن أخبرك مستر دكستر أنك تجهل كل شيء عن القيصر.. وفي نفس الوقت إنه لمن دواعي سروري... أحسُّ بأني سأضيف الكثير لمغامرتكما..

التفت بومبارديلا جهة ثرية قبل أن يسألها قائلاً:

- هل سبق لك أنستي أن سمعتي قصة حزينة لدرجة أنها ترسخت بذهنك للأبد؟ ارتبكت ثرية قبل أن ترد بالإيجاب وقد أحست بشيء من الخجل يعتريها دون أن تجد له تفسيراً...

- نعم... قصص عديدة.. لماذا؟

- وأنت مستر دكستر... هل سبق وأن سمعت قصة أحزنتك بشدة؟ ضحك مبارك قبل أن يجيب وفي قرارة نفسه أن قصته هي القصة الحزينة التي ترسخت وترسبت وتفرّعت عروقها بكل كيانه..

- لا... لا شيء يحزنني... كما أني لا أفهم... ما علاقة قصتك بالقيصر والغم والههم الذي تسأل عنه؟

عاد بومبارديلا ليمتص السيجار بنفس طويل قبل أن يعيد نصفه المتبقي الى الصندوق الخشبي ويعتدل ثم يحكي لثرية ومبارك قصة القيصر.

- يجب أن تسمع قصة القيصر لتفهم القيصر... أنت تعتبره مجرد عدو أو كنز تريد أن تستولي عليه.. لكنني متأكد أنك ستغير رأيك بعد أن تسمع قصته.... أكاد أجزم أنكما

لن تسمعا بعد اليوم قصة مأساوية أشدَّ حزنا من قصة القيصر.. أغلب الناس يظنون أن قصصهم حزينة بما يكفي حتى يسمعوا قصصا أخرى لأشخاص يمرون بظروف أقسى وأمر لكنهم ينسون بعد وقت قصير.. أؤكد لكم أنها لا تشبه باقي القصص..

تساءل مبارك وثرية في آن واحد دون أن ينسا بكلمة عن قصة القيصر مرددين في أعماقهم أن قصتهم هي الحزن وأن لن يغيّر حديث بومبارديلا شيئا وأنها حيوات أخرى لا تهمهم في شيء كما لن يهتمّ لأمرهم أحد من قبل بينما كان المسن الوسيم يعتدل ليحكي قصة القيصر.

- نيكولاس ماندي من تلامذتي.. أنا أستاذ في مادة الرياضيات منذ سن العاشرة.. كان يعيش بدار للأيتام ضواحي مدينة نابولي الإيطالية بالأرياف.. طفل ينفجر بالحياة... وسيم جدا.. ذكي جدا... وعندما أقول ذكي فإني أقصد شيئا آخر غير ما قد يفكر فيه أي شخص على ظهر هذا الكوكب... وهبته الطبيعة كنزا لا يقدر بثمن..

لدى نيكولاس ذاكرة جبارة لا تقاس بكل ما يوجد على الكوكب من كائنات... إنه يتذكر كل شيء يراه أو يسمعه منذ خرج من بطن أمه.. إنه معجزة في علم الأحياء.. مشكلة نيكولاس رغم ذكائه العظيم هي براءته لأنه مصاب بمرض التوحد.. لقد أويته في بيتي حتى بلغ العشرين من العمر ولم يشفع له ذكائه للحصول على عمل أو وظيفة أو أي مركز.. لأنه كان بريئا... والبراءة في معجم الكثير من البشر تعني الغباء.. وحتى كلمة غباء لم يكن يعي معناها من السنة الأغبياء الحقيقيين.. أعجب بفتاة كباقي الشباب وأحبها في حينه وقرر أن يتزوجها بعد ثاني لقاء جمعها، كنت أحاول أن أفتح له الطريق ليجر لوحده وسط هذا العالم المجنون الذي لا يعترف بالأغبياء... لكنني كنت أرطم ببراءته دوما، ثم تغير الأمر بعد أن تزوج حيث أن

زوجته الشابة الجميلة أخذت بزمام الأمور ليرحل العشيقان الى المدينة حيث تمكنت بفضل والدها أن تجد له عملا كمحاسب عند أحد الإقطاعيين بنابولي.. هنالك اكتشف أحد العاملين موهبته ليتم استخدامها في تزوير حسابات الشركات العملاقة من أجل التهرب الضريبي.. كان نيكولاس يحب الجميع ولا يرفض طلبا لأحد.. يكفي أن تبسم في وجهه لتحصل على ما تريد.. التقفته المافيا الإيطالية من أجل استعمال قدراته الخارقة في الحساب لتبييض أموالها وبسببه تضاعفت الأرباح بشكل خيالي جعل رئيس المنظمة بنيويورك يتساءل عن سر تلك القفزات الموهولة بفرع نابولي ومن تمّ انتقل إلى نيويورك مع زوجته التي لم تكن تعلم أن منظمة إجرامية عملاقة أصبحت تستعمل زوجها الخجول دون علمها.. ولأن لكل شيء نهاية فإن علاقته بالمافيا انتهت يوم علمت الزوجة وهي حامل بطفلها الأول ما يحاك لزوجها لتقرر الهرب والعودة إلى إيطاليا رغم أن العمل مع المافيا كان يدّر عليها دخلا جيدا حيث كان بإمكانها العيش كأسرة سعيدة.. ولكن للأسف كانت الزوجة المسيحية المؤمنة ذو ضمير وإيمان لا يسمحان لها بالعيش على المال الحرام.. تركا بيتهما في أمريكا دون سابق إنذار وفرّا إلى جنوب إيطاليا وبالضبط مدينة ماتيرا الصغيرة وابتاعا بيتا صغيرا بالأرياف في أحد الحقول حيث اختفت الأسرة الصغيرة لمدة عشر سنين بينما لم تتوقف المافيا عن البحث عن حامل أسرارها والذي كان يجهل أنها أسرار أصلا، أنجب القيصّر ثلاثة أطفال ولد وبنتين من أجل الكائنات... ولكما أن تتخيلا الحب الذي كان يُكنه لهن نيكولاس المريض بالتوحد.. إنه حب غير محدود بزمان أو مكان يحمل بين ثناياه كل عشق أهل الأرض لفلذات أكبادهم ثم..

توقف بومبارديلا فجأة بعد أن قاطعه مباركا بتعقيب مثقل بالاستهزاء والسخرية مع ابتسامة تُكِنّ الخبث بينما كانت ثرية تذرف أولى دمعاتها تحسبا للقادم من قصة القيصر.

- أخالك ستخبرنا عن مقتل كل أسرته المسكينة وأنه تغير وعاد لينتقم من العصابة ثم يستولي عليها... إنها قصة مكررة ومألوفة اعتدنا عليها... حتى أطفال هذا الزمان أنسوا مثل هاته الطرائف وأنا أيضا... تعجبني كثيرا عند مشاهدة أي فيلم هندي حزين ينتهي بانتقام البطل بعد ثلاث ساعات من الرقص والبكاء والأكشن ثم الرقص أخيرا...

أسهمت ثرية مبارك المبتسم بنظرات حادة قبل أن تحاطب بومبارديلا الهادئ...
- أكمل أرجوك سيدي...

ابتسم بومبارديلا وأمسك بقبعته وطأطأ رأسه قائلا لثرية...

- شكرا.. أيتها الحسنة.. عذرا... ولكنني نسيت أن أسألك عن اسمك المستعار...
- نسرين سيدي... أكمل مستر بومبارديلا...

- تشرفت بمعرفتك آنسة نسرين.. كما قال مستر دكستر نهاية نيكولاس كانت طبيعية وهي مقارنة بما حصل من ظلم منذ فجر التاريخ أو ما سيحصل في المستقبل لكل المظلومين أمر عادي جدا.. لقد عثرت عليه المافيا ولسوء حظه أنهم أرسلوا أكثر عناصرهم سادية للبحث عنه وقتله.. لقد اغتصب زوجته أمامه وأمام أطفاله قبل إحراقها ثم قتل البنتين رميا بالرصاص وألقى الرضيع الذكر بالبئر وأجبره على مشاهدته يغرق ببطء... ثم هشّم وجهه ضربا قبل أن يطلق على رأسه رصاصة الرحمة.

وثبت ثرية من كرسيتها قائلة:

- قتلوه؟؟ كيف ذلك...

ابتسم بومبارديلا وهو يفرك عينيه اللتان صارتا حمراوين بأصابع يده السليمة.

- ليتهم فعلوا ذلك.. إلى هنا قصة القيصر الأعظم تشبه كل قصص الظلم التي

عرفتم.. الظلم الذي عانت منه ملايين البشر قبله وستعاني منه ملايين أخرى بعده..

لكن قصة القيصر هي هرم الحزن فوق كل قصص الدنيا...

لقد استقرت الرصاصة بدماع نيكولاس، تمّ نقله إلى المستشفى من طرف أهالي

القرية بعد اكتشاف المجزرة، تكفل به طبيب روسي ونقله إلى فرنسا لدراسة حالته

النادرة.. وليست النادرة في كونه بقي على قيد الحياة ولكن النادر في قصة القيصر هو

ما جعلها حزينه... لدرجة أنه ينتظرك بفارغ الصبر مستر دكستر لكي تنفذ وعدك

وتقتله..

أنت تعتبره ندّا وعدوا...

أما القيصر فيرى أنك فرصة ذهبية..

إنه ينتظر منك أن تخلصه.... إنه يتمنى أن تكون أذكى منه لينتهي حزنه للأبد..

الفقر في الصيف أقل ألما من الفقر في الشتاء....

شارل أزنافور

الحزين

وقف مبارك من على كرسيه وتقدم نحو ثلاثة صغيرة قبل أن يفتحها ويخرج منها قنينة ويسكي صغيرة بينما كانت الذبابة تحاول منعه من تخدير عقله محذرة إياه بخطورة الموقف، كما أخبرته أن السكر لم يحن وقته بعد وأنها ستسمح له بكل ما ستهوى نفسه قريباً، ولكن ليس الآن، إنها بحاجة لتركيزه أكثر من أي وقت مضى.

بقي متسماً قرب الثلاثة لحظات بينما كان بومبارديلا يراقب الموقف قبل أن يعيد القنينة إلى مكانها ويرتمي بالكرسي ويضع رجله اليسرى فوق اليمنى...

- أكمل مستر بومبارديلا... أكمل... كنت أحتاج لشيء يهدأ أعصابي ولكنني تذكرت أي أحتاج إلى التركيز كي أنهي مأساة القيصر الذي ينتظرنى.

- أكيد مستر دكستر... ستحتاج للكثير من التركيز... القيصر ينتظرك ولكنه أيضاً لن يسمح لك بقتله بسهولة.. يجب أن يتأكد من أحقيتك باللقب الجديد ومن ذكائك أو يعرف السر وراء قوتك.. المهم.. لنعد لقصة القيصر ولكي أكملها يجب أولاً أن أشرح نقطة صغيرة تتعلق بالدماغ وهي مهمة جداً لفهم جيداً شخص القيصر..

ينتج دماغ البشر هرمونات عدة تنظم الكثير من التفاعلات الكيميائية داخل الجسم ومنها هرمونات ترمج مزاج الإنسان خلال اليوم وبالتالي فإن أي خلل في نسبها سيؤثر بشكل موجب أو سالب حيث يمكن أن يقود الخلل نحو سعادة مفرطة كما تسبب المخدرات أو العكس.. إلى العدوانية والعنف، كما توجد أخرى يمكن أن تؤدي إلى الحزن مثل هرمون الأدرينالين وهرمون البروجسترون عند النساء... في حالة نيكولاس وبعد أن تم إخراج الرصاص من رأسه من طرف العالم الروسي الذي كان يدرس حالته النادرة، اكتشف أن الأخير تعرض لخلل كبير فيما يخص إنتاج

الهرمونات المزاجية... لقد ظل صامتا يذرف الدموع دون توقف منذ خروجه من المستشفى إلى أن وجد العالم الروسي علاجاً أنقذه به من العمى المؤكد....

ما حصل لنيكولاس ماندي وما يجعل من قصته فعلاً حزيناً.. هو أن العالم الروسي اكتشف فيما بعد أن الحزن الناتج عن مقتل زوجته وأطفاله وأن الإحساس بالفاجعة ظل رهيناً بملف مفتوح في عقله الباطن تتم تغذيته بالحزن دون توقف بسبب الخلل الهرموني الذي تسببت فيه الرصاصة وذاكرته القوية..

القيصر مستر دكستر يشعر ويحس بما عاشه في تلك اللحظات الأليمة منذ ثلاثين سنة دون توقف وكأن زوجته أُحرقت للتو وكأن أطفاله قُتلوا قبل دقيقة.... لم تتمالك ثرية نفسها قبل أن تجهش بالبكاء واضعة بطن كفها على ثغرها أمام نظرات مبارك، اختفت من عليه نظرات القسوة والاستهزاء والسخرية بينما أكمل بومبارديلا وصفه لحالة القيصر..

- تخيل أنك مستر دكستر لا تستطيع أن تنسى موقفاً حزيناً أو مقزراً عشته ولبقية حياتك... أظن أنك سترغب بالموت... كذلك القيصر ولكنه قبل ذلك قرر أن ينتقم لعائلته الصغيرة حيث أنّ الرصاصة لم تتسبب فقط في اختلال هرمونات دماغه فحسب ولكنها أيضاً قضت على نيكولاس ماندي للأبد وأيقظت وحشاً كامراً متعطشاً للدماء... وحش لا طاقة لك به إن هو قدر عليك... وكما وضحت لكما الأمر حول دماغ الإنسان..

و قبل أن أكمل قصة القيصر أود أن أوضح فكرة أخرى عن الحزن حتى تكتمل الصورة حول شخصية القيصر الأعظم.... وليتسع صدركما لشرحي لأنه زبدة روح القيصر وعصير حياته...

الحزن عاطفة عميقة وأصيلة بالجنس البشري حيث لا مفرّ منه إلا اللمم من الوقت، وأسبابه ليست بالضرورة معقولة فقد يحزن بعضهم لأسباب تافهة غير المرض والمصيبة وفقدان الأحباب وقصص الحب الغبية ويتحسن المزاج لأسباب أخرى أتفه منها كالمال أو تحقيق بعض الأحلام التي لا تساوي ذرة في هذا الكون العملاق ثم يعود من جديد لدورته المعتادة وغالبا ما يعود بقوة أكبر وأعظم بعد النجاح والغنى..

العاديون من الناس يحاربونه بشتى الوسائل والطرق الغبية المتاحة ولكن قلة قليلة من يعرفون أنه كنز وعاطفة في طياتها هدايا عظيمة... حيث أنه بعد أن يُطبق من جديد بعد تحقيق النجاحات والأحلام المزيفة يجعل تلك القلة تطرح أسئلة وجودية وفلسفية عظمى... وتلك الأسئلة تدفع بأصحابها دون أن يشعروا نحو فهم الحياة والتعمق بالوجود وإدراك الأشياء حولهم على نحو مختلف ومغاير لما يراه العامة من الناس ومن تم يأتي الإبداع.. وتعلموا صدق هذا المعنى، ابحثوا عن كل المبدعين في العالم منذ فجر التاريخ ونقبوا عن سيرهم وحيواتهم لتكتشفوا أن لا عمق ولا إبداع ولا قوة ولا نجاحات خارقة بدون حزن عظيم.... الحزن في المقدمة ثم العلم والذكاء هم الجامع المشترك بين كل الفنانين والمبدعين والأقوياء الحقيقيين... لقد فهم هؤلاء العباقرة أن عليهم عيش الحزن وليس الهروب منه كما يفعل العوام عندما يخذرون أجسامهم أو يندسون أخلاقهم.. العلماء والفلاسفة والحكماء على رأسهم أرسطو وحتى أصحاب الرسائل السبائية... كلهم عاشوا الحزن ولم يفرّوا منه... حتى المخيف الروسي دوستوفسكي في أسئلته الوجودية العنيفة والجميلة.... انتبه الى هذه النقطة المهمة عندما قال يوما... اللهم لا تحرمني معاناتي... لقد لمس يديه وعرف أن الحزن هو من فجر كل طاقاته الإبداعية... إن الامتياز الحق والعظمة الحق

دائماً تكون من نصيب أصحاب المصائر المساوية والذين لم يفروا نحو اللعب واللهو والضحك على النفوس بالكذب والسحر الماجن كما يفعل التافهون....

لقد لمس نيكولاس ماندي قبل أن يتحول إلى القيصر الأعظم نار الحزن التي أنارت له جوانب نفسه في قعر قعرها وعلى ضوئها أصبح يرى الأشياء بشكل مختلف... لقد لمس جوهر الكثير من الأشياء التي غابت عنه وذاق من موائد الحقيقة أشياء أخرى... يبقى أن نار الحزن تنطفأ عند الجميع حتى العظماء الذين ذكرت، ورغم أن الأمور تختلف عن ذي قبل في عيونهم إلا أن الاختلاف يكون جزئياً بينما لم ينطفأ حزن نيكولاس وبقيت الصورة واضحة وازدادت لمعانا كلما تقدم في السن... لقد وهبته الأقدار ذكاء حاداً وذاكرة رهيبية... وهبته الرصاصة حزناً تفجرت منه ينابيع من الطاقة ولد من رحمها إنسان جديد لا يمكنكم تصور مدى قوته... كما لا يمكنكم تصور مدى بشاعته..

عمّ الصمت ثوان معدودة...

اعتدل مبارك جالسا وبدأ يفرك يديه بعد أن أنهى بومبارديلا قصة القيصر بينما كانت دموع ثرية تنهمر دون توقف من شدة إشفاقها على المسكين نيكولاس ماندي الذي حولته الذئاب البشرية إلى كائن آخر غير ذلك الزوج الطيب المحب للحياة. سأل مبارك بعد صمت...

- بقي أن نعرف مستر بومبارديلا لماذا سجنك نيكولاس ماندي داخل الصندوق الزجاجي وما علاقتك به وقد فرقتكم الظروف...

- أكيد مستر دكستر... أكيد... يوجد دائماً سبب لكل شيء... لقد أخبرتك أنني أستاذة في مادة الرياضيات وأيضاً لقد آوَيْته عندي لمدة عشر سنوات كانت كفيلة لأكون

بمثابة الوالد.. لقد علمته كل شيء قبل أن يرحل ليكتشف بعدها أنني كذبت عليه... الحزن يجعل العبقرى واقعيًا... علمته صغيراً دقة الحساب وعلمه الحزن أن كل شيء نسبي... لقد حاولت أن أهينه قدر الإمكان وأجعله مستعداً لظلم العالم قبل أن يذوق طعمه، لكن وكما سبق وأخبرتكم.. براءته شوشت عليه الصورة إلى أن توضحت تحت الظروف السالفة الذكر.. استعمل نيكولاس كل المعلومات التي كانت بحوزته للإطاحة بالرؤوس الكبيرة بالmafia ومن تم تسلل بذكائه الخارق إلى المنظمة تماماً كما تحاول أنت الآن ونجح في ذلك وانتقم بكل سهولة ويُسر من قاتل أسرته الصغيرة وبعد سنوات قليلة تمكن من أن يسيطر على كل أوصال المنظمة الإجرامية وكان بإمكانه أن لا يتوقف عند ذلك الحد.. فلو شاء نيكولاس لرأيتَه رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية من اليوم... لكنه بذكائه وحكمته عرف أنه منصب تافه وأن أقوى رجل بالعالم يستحيل أن يكون كذلك تحت أضواء الإعلام العالمي.. لقد عرف أن القوة هي العلم والإعلام الموجه.. بإمكانه أن يشعل فتيل حرب عالمية ثالثة لو شاء متى شاء.. ولكنه لم يفعل..

قاطعت ثرية بومبارديلا قائلة:

- ولماذا توقفت؟... ما الذي منعه؟

- كما سبق وذكرت آنسة نسرين... عندما يطول الحزن بالمرء، يبدأ بطرح تساؤلات وجودية عظيمة... والانتقام بالنسبة للعباقرة يصبح شيئاً تافهاً... هم يعلمون أنه سرداب مظلم ومتاهة لا محدودة لذلك ينتون بأنفسهم عنه بسرعة... اختفى نيكولاس بعد أن انتهى من تشكيل منظمته بإحكام غير مسبوق حيث أنها أصبحت ماكينة لضخ الأموال دون تدخل منه حتى أن كل أفراد المنظمة يجهلون من هو

القيصر وكل شيء عنه وكل الأوامر تصدر عبر شيفرات وأرقام مؤمنة بشكل يستحيل اختراقها، لقد ترك كل شيء بيد خادمه الأمين سلمان خان الذي يراقب فقط سير عجلة المنظمة التي تدور بثبات ودقة متناهية مثل الساعات السويسرية... بعد ذلك بدأ القيصر بطرح أسئلة وجودية حول الزمن ولماذا يسير في اتجاه واحد فقط ومن خلق الكون وما مصيره ولماذا يوجد الشيء بدل اللا شيء وهل عالمه حقيقي أم وهم وهل لديه إرادة حرّة وهل يوجد خالق وحياة بعد الموت وهل يوجد نظام أخلاقي موحد وماهية الأرقام والكثير من الأسئلة الأخرى التي لم يجد لها جوابا... هذه هي علاقتي بالقيصر الأعظم الحزين.. لقد عاد يبحث عن أجوبة عند الشخص الذي ترعرع في كنفه ظنا منه أني أمتلك الأجوبة...

قاطعته مرة أخرى ثرية بينما كان مبارك يقلب عينيه تائها أمام كلام بومبارديلا...
- ولماذا كان يظن نيكولاس أنك تملك الأجوبة...

- كان لدى نيكولاس قلب عظيم بإمكانه أن يحتوي العالم حبا... لكن الرصاصة وكما وهبته حزنا مبدعا، سلبته أنبل عاطفة بالوجود.. لقد صار واقعا الى أبعد الحدود وأصبح كل شيء بعيونه مجرد أرقام.. أنا هو الرقم الأهم في حياة نيكولاس بعد أن تحول الى القيصر.. لأنني الوحيد الذي يشبهه نوعا ما..
بدت الدهشة على وجه ثرية ثم عادت لتسأل بفضول...

- كيف ذلك؟ كيف تشبهه سيد بومبارديلا...

ابتسم المسن الوسيم وقام ثم اعتدل قبل أن يتجه إلى الثلاجة ويخرج منها زجاجة ويسكي صغيرة ويلتقم ما فيها دفعة واحدة ثم يلتفت نحو الحساء والصعلوك قائلا..

- ليس لنيكولاس أصدقاء أو أعداء... ولو كان له أصدقاء أو أعداء فيجب أن يكونوا أذكاء وللأسف لا أحد يصل لذكائه... يتكلم سكان كوكبنا الصغير قرابة السبعة آلاف لغة... تعلّمتها جميعا خلال عشر سنين بكل لهجاتها، أنت من المغرب مستر دكستر وبالضبط من مناطق عبدة وسط جنوب المغرب وأكبر تجمع سكاني هناك هي مدينة آسفي الأمر واضح من لهجتكما، تعيش على الأرجح قرب البحر... يمكنني أن أعرف ذلك من لون بشرتك... كما أي متأكد أنك بائع خضار أو فواكه... عرفت ذلك عندما لمست يدك في قصر مبالا... معاناتك عظيمة وحزنك أيضا لكن مستواك الدراسي شبه منعدم ولا تملك علما كافيا بل سرا عظيما.. تعرضت لحادث مؤلم في طفولتك وهذا واضح بالنسبة لي وللقيصر.... أما أنت آنسة نسرين فمن نفس المكان تقريبا مع اختلاف أصلك عن مستر دكستر البربري، لغة جسدك أخبرتني أنك تعرضت لاعتداء مؤخرا كما أنك صماء من الأذن اليسرى.. لاحظت ذلك عندما تنصتين لمستر دكستر أو عندما تركزين بحديثي فإنك تصغين بالجهة اليمنى فقط.... مستواك الدراسي لا بأس به... أنت أذكى من مستر دكستر وأكثر وعيا.. معاناتك أيضا كبيرة تحملين عاطفة عظيمة للأومة بداخلك.. أجزم أنك أم أو تحلمين أن تصيري أمّا.. وللتذكير فقط.. كل ما لاحظته يقينا انتبه له القيصر بمجرد التحدث معكما وأكاد أجزم أنّ رجاله يبحثون عنكم الآن في أرشيف كل المختفين بالمغرب وسيبدأ من مدينة آسفي وجهة عبدة وسيعرف كل شيء عنكم قبل أن تقابله وكل ما سيحتاجه هو.. السر وراء وصولكما إليه وإلى مبالا وإلى أنا..

لقد عاد القيصر إلى حيث يوجد الشخص الوحيد الذي يشبهه.. أنا أيضا أتذكر كل شيء منذ ولادتي... لدينا معا نفس قوة الذاكرة والملاحظة.. لقد احتجزي بالصندوق

الزجاجي من أجل الحفاظ على الشخص الوحيد الذي يمكن أن يكون ندا حقيقيا له في ذكائه... لقد قال لي قبل أن يدخلني رجاله إلى الصندوق الزجاجي منذ عشرين سنة...

ها قد حبست العالم كله بالخارج من أجلك...

وقد خرجت منه الآن لأنه يظن أن لديك الجواب على كل أسئلته مستر دكستر...

فهل لديك حقا كل الأجوبة؟

قام مبارك من على كرسيه وخرج من الغرفة الرئاسية متجها نحو دورة المياه دون أن تلاحظ عليه أمارات الفرع الذي تسلك إلى أوصاله بينما اختفت دموع ثرية التي تسمرت على كرسيها وقد بدت عليها علامات الخوف من انهيار كل أحلامها على يد القيصر الأعظم بعد الذي سمعته على لسان بومبارديلا، خيم سكون غرفة الطائرة طويلا قبل أن يعود مبارك من جديد ليخبر بومبارديلا بالوجهة القادمة قائلا مع ابتسامة عريضة موجهة لثرية كي يطمئن قلبها.

- لا تقلقي بشأن ما سمعتي آنسة نسرين، كل شيء تحت السيطرة...

(التفت جهة بومبارديلا) أعدك أني سأخلص القيصر من عذابات أحزانه للأبد خلال هذا الأسبوع، وجهتنا القادمة هي التشيك وبالضبط العاصمة براغ... يجب أن نقابل شخصا هناك من أجل تدوير حقائب الألماس وتحويلها إلى دولارات أمام أعين المسكين نيكولاس ماندي الذي سيحصل على كل الأجوبة... ولكنه سيجدها في العالم الآخر حيث سأرسله.

رد بومبارديلا مبتسما وقد ارتخت أسارير وجهه بفعل الويسكي وهو يتحسس شاربه الأبيض الجميل...

- أتمنى لك التوفيق مستر دكستر وأتمنى أيضا أن تفني بوعدك إذا ما نجحت في التخلص من القيصر وتخبطني بسرك.. كما أعدك بدوري أني سأكون عونك ومستشارك الأمين.. اتفقنا..

وثبت ثرية من على كرسيها وجذبت مبارك من يده اليسرى بقوة نحوها وأبعدته خارج الغرفة قبل أن تغلق الباب على بومبارديلا وتتجه بشريكها إلى أقصى جناح الطائرة قرب كابينة كابتن الطائرة وتأمّر المضيفة بالانصراف والغضب يملأ عيونها الكبيرة ثم قالت بنبرة حادة...

- هل من الضروري مبارك أن تطيع الجن في كل ما يأمرك به... لقد سمعت مثلي قصة ذلك المسكين.. ليس ضروريا أن نقتله أو نستولي على أمواله.. نحن الآن نملك من المال ما يكفي بقية عمرنا وأيضا ما يكفي أحفاد أحفادنا.. لا يوجد داع للقتل.. أرجوك..

- أكيد ثرية.. أكيد... أنا لا أرغب في قتل أي كان مثلك.. ولكن فورد اشترط منذ البداية قتل القيصر ومن تمّ فإنه لن يطلب شيئا آخر.. ولنفرض جدلا أني رفضت قتل القيصر كما يرغب فورد.. يجب أن تعلمي أن القيصر لن يتركنا نهنا بما حققناه من غنى كما أن الجن لن يحمينا في المستقبل وسيتركنا عرضة للمجرمين... إنها آخر مهمة وسينتهي كل شيء.. القيصر يبحث عن ند قوي يخلصه من أحزانه وها نحن سنحقق له أمنيته وبعدها سنحظى بحماية الجن فورد وماكينة عملاقة لضخ الأموال وبشكل قانوني..

صمتت ثرية للحظة وألقت ببصرها أرضا ثم سألت مبارك بنبرة تتخللها الحسرة والحزن...

- هل هذا رأيك مبارك أم أني أسمع رأي صديقك الجن؟
- إنه رأيي ثرية.. الجن يراقب بومبارديلا حاليا... إنه يكره المفاجآت... صبرا ثرية...
سيتتهي كل شيء.. قريبا سيتتهي هذا الكابوس.. قريبا سنخرج من هذه المتاهة..
قريبا ستصبحين أميرة الأميرات.

الاصطفاف معا هو البداية والبقاء معا هو التقدم والعمل معا هو النجاح...

هنري فورد

كاميليا

استيقظت كاميليا على طرق باب غرفتها قبل أن تتقدم نحوها الخادمة بخطوات قصيرة لتخبرها على فراشها بأن السيد تشارلز ينتظرها بالأسفل وأن عليها أن تكون جاهزة من أجل زيارة رسمية، أعادت عليها غطاءها وأخفت وجهها لتحجب الضوء عن عيونها ثم رنّ الهاتف الذهبي قربها وعلى نغمات البيانو التي يصدر التفتت بسرعة لتغلقه لكنها اكتشفت أنه السيد تشارلز، وثبت من سريرها على عجل وردت على المكالمات بصوت دافئ قبل أن تقفل الخط لتصفق بكفيها مرتين متتاليتين.

بعد نصف ساعة خرج جمع من الخادومات من غرفة كاميليا يهرولون بصمت على زرايي القصر ثم تفرقوا في أنحاء صعودا وهبوطا، كانت خطوات الشابة بطيئة على الدرج الرخامي الأسود بشكله اللولبي حيث كان في انتظارها السيد تشارلز ببدلته السوداء وفراشته الحمراء الأنيقة الملتفة حول عنقه، أمسك بيديها المغطاة بقفازات بيضاء لامعة مثقبة وقبلهما مبتسما ثم عدّل نظارته من على أنفه وقال:

- صباح الخير أميرتي.. آسف لأنني أيقظتك ولكنها زيارة رسمية مهمة وأحتاجك بجنبني الآن.. إنهم ينتظرون بالخارج...

ابتسمت كاميليا بصمت وابتعدت عن السيد تشارلز خطوات نحو باب القصر ثم التفتت نحوه قائلة بصوتها الساحر الذي ينفجر دلالة وأنوثة...

- أنا مستعدة.. هل ستخرج لنقابل ضيوفك.

فتح باب القصر الكبير ونزلت كاميليا درج القصر العريض بينما كان تشارلز يمسك بأطراف أصابعها، كانت بانتظارهما سيارة ليموزين سوداء يقف على جنباتها رجال ببدلات سوداء ونظارات سوداء وخلفهم آخرون بصدریات سوداء ضد الرصاص

وسراويل مثخنة بالجيوب مدججين بأسلحة أوتوماتيكية، لاحظت كاميليا أن أصحاب البدل السوداء يضعون أصابعهم على الأذن اليسرى بينما أيديهم اليمنى تتحسس أحزمتهم حيث أسلحتهم، كان واضحا أنهم يتبادلون التعليمات بصوت غير مسموع عبر أجهزةهم اللاسلكية لكنها كانت متأكدة بأنهم يتحدثون اللغة الألمانية وعرفت أن ضيوف الأمير تشارلز غير عاديون، تقدم أحدهم من باب الليموزين وفتح بابها الخلفي الأسود لينزل منه رجل كبير السن بلحية جميلة منمقة اختلط سوادها شيئا، كان يلبس بدلة كاشمير بيضاء عليها بقع حمراء غريبة، تقدم خطوة ثم وقف يسار الباب ومدّ يده اليمنى نحو السيارة لتخرج شابة جميلة شقراء ببدة وتنورة حمراوين أنيقين ذو قوام بين السمينة والنحافة قبل أن تقف يُمينة باب الليموزين، لاحظت كاميليا أيضا أن المسن مبثور اليد اليسرى بينما خرج الضيف الثالث من السيارة، شاب قصير القامة تبدو على وجهه آثار العنف ببذلة السوداء ونظاراته السوداء...

هذا هو رئيس الوفد الذي استيقظت من أجله.. هذا هو الضيف المهم..

تساءلت كاميليا مع نفسها للحظات..

كيف يمكن أن يكون هذا الشاب ضيفا مهما في نظر زوجها الذي تنابه نصف أوروبا...

إنه يمثل دوراً أكبر منه... وهؤلاء أيضا ممثلون.. أنا لا أفهم ما علاقة تشارلز هؤلاء الأشخاص مهما بلغت درجة أهميتهم... المسن رغم وسامته يزور زوجي رسميا ببذلة متسخة والشابة رغم جمالها تقني لباسها من أسواق الصين الشعبية التي

استعمرت العالم.. إنه أمر لا تحطئه عين... وهذا الشاب يبدو خريج سجون.. وجهه طرقات وشوارع مهما حاول إخفائها بالمساحيق... من هؤلاء؟؟

قُطع حبل التساؤلات من طرف تشارلز وهو يرحب بالضيوف (شالوم... شالوم) ويدعوهم الى الدخول لقصره بينما كان المسن يترجم كل حرف ينطقه من اللغة التشيكية بعد الترحيب والسلام اليهوديين إلى العربية على مسامع الشاب، كان بصر الفتاة ذو الشعر الأصفر يتجول في سماء القصر وأدراجة وأبوابه العملاقة، ومع كل حركة وكل نفس من الضيوف كانت حيرة كاميليا تزداد حدة.

فُتح باب زجاجي شفاف عملاق أمام الوفد الذي يتقدمه تشارلز نحو قاعة كبيرة جدرانها من البلور المقوى تشف من الحيطان زخارف من رسوم رومانية وفارسية وعربية، جلست كاميليا على كرسي خشبي نُقشت عليه حروف عبرية ثم جلس زوجها على يمينها قبل أن يدعو الحضور للجلوس قبالة معبرا عن سعادته وامتنانه، كانت القاعة تسبح تحت أمواج خفيفة من موسيقى كلاسيكية لا تكاد تُسمع، خيم الصمت للحظات أحست خلالها كاميليا بتدلل زوجها لضيوفه بينما يتدلل له الجميع ثم لاحظت أن الشاب يُسهّم بعينه اتجاهها خلف نظارته السوداء دون أن يلقي بالا لتشارلز الصامت..

إنه يحرق بنصف صدرها الناهد المٌطل من فستانها ذو البشرة الصافية الذي يلمع صحة وتنفجر منه الأنوثة كلما ارتفع وانخفض على سمفونية أنفاسها..

إنه يحرق بكتفها الأحمر العاري والمغطى بشعرها الطويل الفاحم كشلال من الحرير الأسود على فستانها المرصع باللؤلؤ..

إنه يحول بجسمها الرشيقي حيث تنساب عضلاتها الناعمة في تناسق أخاد مع ساقها الطويلتين كأعواد الخيزران وخصرها المتموج وكأنه مرسوم على لوحة زيتية من عصر الفن أو من عالم آخر....

إنه يحرق بعيونها الواسعة وحواجبها الرفيعة وأنفها المصقول ووجنتيها الحمراء وحواف حدودها المنقوشة وعنقها اللامع وأصابعها النحيفة العاجية الملمس وتجاعيد جيدها الذي يشبه طيات السوسن الأبيض.

إنه يحرق بمشيتها وهي تقترب من اللورد تشارلز كأنها مخلوق علوي موفد من عالم الأحلام، تنبعث منه رغبة هائلة يلجمها بثبات الملوك، رغبة تركزت في ذرة واحدة من السعادة واللذة والنشوة لا سبيل لوصفهم...

إنه يتساءل...

ضحك المسن الوسيم قبل أن يلتفت نحو الشاب ويطلب منه الإذن لبدأ المفاوضات ويطأطأ الأخير بالموافقة بينما كانت كاميليا تشاهد وتسمع دون أن تفهم الكثير من الأحداث الغامضة التي تمر أمام أعينها..

- شالوم مستر تشارلز... ليس لدينا الكثير من الوقت.. مستر دكستر....

أشار الشاب دون أن ينبس بحرف مقاطعا المسن الوسيم بالتوقف وفهم الأخير خطأه قبل أن يعيد صياغة بداية الحوار...

- شالوم مستر تشارلز.. لكي نختصر الوقت علينا... القيصر الأعظم الجديد لن يعطيكم العشرة بالمائة التي سبق واتفقنا حولها قبل النزول على أرض التشيك... لكنه قرر أن يضاعف النسبة.. سيهبكم عشرين بالمائة من مجموع ثروته بشرط أن تجهز المبلغ قبل عشرة أيام.

أحست كاميليا بزوجها يكاد ينتفض من شدة الصدمة عند سماع كلمة القيصر وبدأت على أساريه علامات الفرح والامتنان قبل أن يجيب.

- سعيد جدا بثقتكم وعطائكم.. ولكن سأحتاج للمزيد من الوقت.. يجب أن تخبر مستر دكستر أنني أنأى بنفسى عن حروب الجبابرة... مهمتى غسل الأموال... نشرها وإعادة تدويرها فقط.. ويوم يثبت جلوسكم على عرش القيصر الأعظم فسأكون سعيدا من أجلكم كما أنا سعيد الآن بتعاملي مع القيصر الحالي.. شعارنا.. الجودة.. الإتقان.. السلم.. نحن نحب الخير للجميع..

لاحظت كاميليا أن الشاب الذي خالته هامَ بمفاتنها وجمالها، لاحظته يسرح بذهنه بعيدا بينما كان زوجها يتبادل أطراف الحديث مع المسن الوسيم، وكأنه ينصت للموسيقى غير التي تتقاذف جدران القاعة، وبعد أخذ وجذب اتفق الوفد مع زوجها على خمسة عشر يوم كحد أقصى لتحويل المبلغ على حساب الشاب الصامت، كما أن الوفد أصرّ على بقاء فريق التأمين الألماني بقصر تشارلز إلى حين انتهاء العملية بسلام حيث فهمت دون أن تعرف قيمة المبلغ المتفاوض حوله، فهمت أن بإمكانه إنعاش اقتصاد أوروبا كاملة أو إعادة إعمار وطن بكامله خارج للتو من حرب طاحنة.

رنّ الهاتف الأحمر المعلق على مرآة كبيرة في أقصى القاعة لترتعد فرائس تشارلز دون أن يشعر به أحد، إنها الوحيدة التي تعلم أن لمس زوجها لأطراف شنبه الأبيض دليل ارتباك وفزع وخوف، قام بهدوء وتقدم خطوات بطيئة نحو الهاتف الكبير قبل أن يقربه من عينيه ثم يضعه على خذّه ليغطي اللون الأحمر نصف وجهه قائلا (شالوم)، كانت كاميليا تعلم أن الهاتف الأحمر لا يرن وخلال الخمس السنوات السابقة لم يرن سوى مرة واحدة فقط وتمّ تغييره بعدها، كان تشارلز يستعمل الهاتف الأحمر مرة

واحدة فقط ثم يغيره وكان ممنوعا على كل خدام القصر الاقتراب منه كما أن الرد على مكالمته لا تتم حتى يتعرف على قزحية وبصمة تشارلز الذي عاد مرعوبا نحو الشاب وأعطاه الهاتف وأخبره أن القيصر الأعظم يريد التحدث إليه.

أشار المسن الوسيم للشاب بأن يشغل مكبر الصوت ليستمع الوفد بأكمله للمكالمة التي دارت أمامها باللغة العربية، ورغم أن اللهجة مختلفة قليلا على ما عهدته كاميليا اللبنانية الأصل، إلا أنها فهمت تقريبا كل ما دار من حوار أمامها، كما أحسّت بذهول زوجها الذي خَصَّه أن يكون حاضرا لصراع بين جبابرة الإجرام في العالم حيث بدا صغيرا أمام عظمتهم.

سمعت كاميليا صوت القيصر عبر الهاتف مخاطبا الشاب..

- كلما اقترب لقائنا ازدادت حيرتي وعظم فضولي... كنت أنتظرُك بالهند عند أنطونيو أو بالنمسا عند هايل أو بالولايات المتحدة عند ألفريد أو بمصر عند عدنان... تركت كل هؤلاء وحللت حيث يمكن أن أجذك بسهولة وأيضا عند الشخص الوحيد الذي بيني وبينه عهد أظنك تعلم بنوده.. أنت رائع حقا.. حتى الفريق الألماني الذي وُكِّلت إليه مهمة تأمين ما سرقت من قصر مبالا يعتبر اختيارا رائعا.. وكأنك تعلم مسبقا كل حركة سأقوم بها... متى سنلتقي؟؟

حدقت كاميليا بعيون الشاب بعد أن نزع عنه نظارته السوداء وأحست بشيء من الرهبة وهي تتساءل..

من هو الشاب الذي يقول عنه القيصر أنه رائع؟؟ إن زوجها تشارلز لا يقيم وزنا لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية ويتكلم مع رئيس روسيا ندا لنده.. لكنه يصبح

حملا وديعا أمام القيصر بالهاتف.. نفس القيصر يقول عن الشاب أنه رائع وأنه يود مقابلته.. من يكون هذا المجهول الذي تنبعث من عيونه رائحة الظلام والقسوة؟؟ ثم سمعت صوته لأول مرة بعد طول صمت، إنه عادي جدا لا تكاد تميزه بشيء... صوته عادي...

حركاته عادية... لباسه.. شكله.. كل شيء فيه عادي.. إنه مثل كل الناس.. لكنه يتكلم كلاما غير كل الناس..

فكيف تفسر رده على القيصر الأعظم الذي تعلم أن بإمكانه تعيين أي رئيس بأي دولة شاء... القيصر الذي يحرك العالم بأصابع خفية ومجرد السؤال عنه من طرف أي سياسي يلقي به في غياهب الظلام..

كيف تفسر رد هذا الشاب العادي لدرجة الجنون على القيصر... كيف تفسر ما تسمع..

- سنلتقي بعد شهر يا هذا.. قريبا سأخلصك من حزنك.. لك أن تختار المكان.. ولك أن تستعد كيفما شئت.. لك أن تتخذ كل الإجراءات الأمنية التي تبدو مناسبة والتي تحسبها ستنتقذك مني.. افعل ما شئت.. بعد شهر من الآن سأصبح القيصر الأعظم رغما عن أنفك وأنف العالم.. قريبا سأغير كل شيء على ظهر هذا الكوكب..

تألاآت عيون كاميليا رعبا وهي تتأمل تلك الثقة الغريبة التي تتخلل كلمات الشاب وهو يهدد أقوى رجل بالعالم...

هل يعلم ما يفعل؟؟

هل هو واع بما يتقيء ثغره؟؟

و كأن الصدمة جراء رده لم تكن لتكفي يومها المجنون، وكأنها لم تكن تعلم شيئا عن مصيرها.

رد القيصر ضحوكا سعيدا مبتهجا رغم أن الشاب وصفه بالحزن...

- أنت فعلا اسم على مسمى... أنت فعلا مبارك يا مبارك.. لقائنا بعد شهر بمعشوقتي روما.. قرب نافورة الأمنيات تريفي بمقهى سان بيير الساعة العاشرة صباحا لدي مفاجأة لك.. أنا متأكد أنها ستال إعجابك مستر مبارك.. بلغ تحياتي للآنسة ثرية.

رد الشاب الذي عرفت كاميليا اسمه للتو بثقة..

- هل تظن أنك أراعبتني بتعرفك على اسمي الحقيقي... يؤسفني أن أخبرك أن إسمي الحقيقي هو الغول.. الغول الذي سيلتهمك... لن أخلف الموعد مستر نيكولاس ماندي..

أفقل الشاب الخط على القيصر...

لقد أقفل هذا الشاب الخط على القيصر.. هل يعقل هذا..

أشار الشاب إلى المسن الوسيم ليقرب منه ثم همس على مسامعه طويلا ليضحك ثم يغمض عينه ويفركهما بأصابع يده السليمة ثم يشير إلى تشارلز ليقرب أيضا ويهمس بأذنه طويلا أمام استغراب كاميليا من وشوشتهم، أعادوا الكرة مرتين... ثلاث...

انتهى الأمر.. تعرّق الزوج واحمرّ وجهه قبل أن يمسك بأصابعها ويسحبها بلطف نحو الشاب برأس مائلة تنظر للأرض...

التفت المسن ضاحكا وهو يخاطب الجميلة التي ترافقهم...

- إن الناس في عصرنا هذا لا يعرفون قيمة الأشياء وفي نفس الوقت يعرفون ثمن كل شيء...
شيء...

دار بذهن كاميليا أن زوجها تحول الى خادم لهذا الوفد، إنه ذليل خانع وكأنه عاد إلى عصر الرق بينما هم يُنكَّتون.

دقائق كانت كافية لتعرف كاميليا أنها كانت ضيفة على وفد تفاوض لتبييض أموال مهولة ثم كانت شاهدة على حوار بين أباطرة الإجرام بالعالم ثم أخيرا حضرت لصفقة بيعها بسوق نخاسة على موسيقى شوبان وموزارت.

لقد اشتراها الشاب بثمان لم يستطع زوجها اليهودي تشارلز أن يرفضه لتتحول في لحظات من أميرة إلى مجرد شيء يملكه من يدعى...

مستر دكستر.. أو مبارك.. أو الغول.. أو ربما يكون هو القيصر الأعظم الحقيقي.

بعض البشر لا يصغره سوى كلامه والبعض الآخر يجبرك كلامه على احترامه...

ارسطو

السائح

أين هي القبة... ما محلها من الإعراب.. لماذا قبل جيبني في ذلك اليوم... لماذا تركت كل شيء.. لماذا أنا هنا... إنهم سواء.. كل الرجال سواء.. ولكنها جميلة.. جميلة بشكل لا يوصف.. ما الذي أفعله هنا...

دخل الوفد المكون من رجلين وامرأتين إلى فندق راديسون بلو ألكرون هوتل براغ الواقع جنب محطة موستاك والقريب من القطارات الرئيسية في براغ، كان الوفد محاط بمجموعة اشخاص يبدو أنهم مكلفون بحراستهم، بينما كان الشاب يتبادل أطراف الحديث مع الرجل الأكبر منه سنا، كانت النسوة خلفهم يتجاهلن بعضهن كما لو أن تيارا كهربائيا من الكره يتبادل المشاوير بين عيونهن الحاقدة، تقدم أحد الحراس نحو المسن وحاوره باللغة الألمانية مبينا أن عليهم تأمين الغرفة قبل أن يدخلوها، وبعد دقائق دخل الوفد الى حيث سبقهم ملوك ووزراء ورؤساء جميع دول العالم... الجناح الملكي... من بين الأغلى ثمنا بالعالم.

لمسات عصرية أنيقة بديكورات كلاسيكية ورومانسية باهظة الثمن ورحابة ترزح فيها الخيول الأصيلة، غرف جلوس منفصلة بإطلالة رائعة على قلعة براغ، جلست ثرية في قلب الجناح الملكي حيث يستقبل الملوك ضيوفهم على أريكة صفراء طويلة يحف جنباتها خشب أسود نقشت عليه تحف فنية جميلة من العصور الوسطى، تبعها بومبارديلا بعد أن تناول زجاجة ويسكي صغيرة من الثلاجة الحائطية السوداء وهو يتأمل اللوحات على الحائط والتحف على الرفوف الرخامية والنوافذ الزجاجية العملاقة، صب لهما قدحا ويسكي على مكعبات الجليد وسط الكؤوس البلورية وناولها واحدا ثم دعا مبارك وكاميليا إلى الجلوس..

- ما بالك مستر مبارك.. تفضل... تفضلي أنسة كاميليا... هذا هو اسمك.. كاميليا..
 مرحبا بك.. لماذا كل هذا التجهم على وجهك... ينبغي أن تكوني سعيدة..
 كان وجه ثرية محمرا ملتها ككرة الشمس قبل الغروب وهي ترتشف كأسها كاملا
 وتطلب المزيد، تقدمت كاميليا خطوة نحو الطاولة قبل أن يمسك مبارك بيدها
 ويسحبها بلطف نحوه دون أن ينطق ثم يتجه بها نحو الغرفة الملكية المطلة على قلعة
 براغ ليحمر وجهها وتتألاً عيونها بالدموع دون أن يلقي لهم بالا ثم يغلق الغرفة..
 أمرت ثرية المسن بنبرة حادة...

- أعطني كأسا آخر بومبارديلا...

لم تتمالك ثرية نفسها بعد أن تناولت الكأس لتصرخ بقوة وتقف وتقذفه نحو باب
 الغرفة بكل قوتها لتتأثر أجزاءه بأرجائها، ثم همت متوجهة نحوها قبل أن يمسك بها
 بومبارديلا ويهدىء من روعها ويضمها إلى صدره كما يفعل الوالد العطوف مع
 ابنته..

أين هي القُبلة... ما محلها من الإعراب.. لماذا قُبَل جيبني في ذلك اليوم... لماذا تركت
 كل شيء.. لماذا أنا هنا... إنهم سواء.. كل الرجال سواء.. ولكنها جميلة.. جميلة
 بشكل لا يوصف.. ما الذي أفعله هنا..

هكذا حدثت ثرية نفسها، ما معنى تلك القُبلة التي بنت عليها ناطحات سحاب من
 الآمال وعروش من الأحلام وبحارا من الحب والمودة...

- ما معنى هذا.. لماذا.. هل من تفسير... قل لي بريك بومبارديلا.. أرجوك..
 أجلسها بومبارديلا قربه مبتسما على الأريكة، عانقها بيده المتوردة ثم أمسك بيدها

قائلا:

- يجب أن تكوني واقعية آنسة ثرية.. كاميليا جميلة بشكل غير طبيعي.. لقد لاحظت مفاجأتك عندما دخلنا قصر اللورد تشارلز... يجب أن تعترفي بصدمتك أيضا من جمالها... حتى النساء يمكن أن تقعن في عشقها، هذا دليل على أن مستر مبارك إنسان وبشر مثل كل الناس... أنا أيضا في شبابي لو صادفتني امرأة مثل كاميليا لأخذت عقلي معها.. يجب أن تكوني واقعية ثرية.. الجمال قوة مدمرة مثله مثل الحقد والكره والغضب.. لا تنسي أن كاميليا أميرة وكل الظروف كانت بجنبها لتصل لتلك الدرجة من الجمال.. من الحكمة أن لا تستسلمي للغضب.. أنت أيضا جميلة ولكن الظروف مختلفة.. لا تحكمي على مستر مبارك بمجرد أنه لم يتمكن من لجم شهوته ورغبته.. من العدل أن تضعي نفسك في موقف مشابه لتعرفي حجم ما يمر به.. لو شئت الأقدار وتعرفتي على رجا متكامل بعيونك يتدفق وسامة وهيبة وعظمة ورجولة وفحولة ثم انقلع قلبك به حبا وشغفا... هل كنتي لتفضيه.. هل كنتي لتمنعي نفسك عنه وعن مرادته.. الفرق بين الرجل والمرأة في مثل هاته المواقف يميل للأقوى فقط.. ولو كانت لدى المرأة نفس قوة الرجل العاطفية والمادية لتصرفت مثله تماما ولو كان للرجل نفس عاطفة المرأة لتصرف تماما مثلها في عملية تكرارية لا تنتهي.. لقد تعرض لأكبر فتنة يمكن أن يواجه أي رجل على هذه البسيطة، امرأة ساحرة الجمال ومال وقوة وسلطة خلفها سر رهيب يمنحه علما غير محدود، إنه كطفل أمام حلوى غيّبت عقله ولا يمنعه منها أحد، مستر مبارك لا يتحكم في نفسه الآن.. إنه شاب... هناك رغبة وشهوة تتدفق أسفل ظهره هي السبب في العمى والسكر.. بمجرد أن تنفجر تلك الطاقة سيخرج مبارك من الغرفة ويقدم لكي اعتذاره الذي يجب عليك أن تقبله.. لكنه سيعود بعدها لسحر كاميليا

مرة أخرى وسيعتذر مرة أخرى وسيكذب.. الجميل والغريب والمضحك في الأمر هو أن الكذب دليل حب وليس العكس.. قولي لنفسك أن مبارك عندما سيكذب مبررا شهوته ورغبته فإنه سيبرر لنفسه خوفا من أن تضيعي منه ولو كان العكس فسيعترف بالحقيقة وسينهى الأمر.. إذا كنتي تحبينه فعلا أو لا تتخيلين المستقبل من دونه فيامكانك استرداده بسهولة... يجب فقط أن تكوني ذكية وصبورة.. عزائك ثرية هو أن الإحساس بعدم القدرة على الدفاع عن نفسك في مثل هاته اللحظة دليل على امتلاكك قلبا بريئا رغم كل تجاربك..

مسحت ثرية دموعها قبل أن يمسك بومبارديلا بيدها ويدعوها للخروج للتنزه قليلا إلى أن يحل الظلام.

رافقهما الى باب الفندق الفخم حارسان قبل أن يركبا سيارة كاديلاك فخمة تابعة للأمبريال ديكو هوتل، كانت ثرية تفكر بما قاله بومبارديلا وهي تحرق في السحر المعماري للمباني المشيدة بآخر الفنون الحديثة وأخرى من الطراز الباروكي وعصر النهضة، لاحظت سيارة الحراس الألمان خلفهم فوق جسر تشارلز الذي يصل ضفتي الفتلافا ويربط المالاسترانا بالبلدة القديمة، توقفوا أمام الساعة الفلكية في بلدية براغ القديمة، نزلت ثرية من السيارة ثم أمسكت بيد بومبارديلا الذي بدأ يستعرض على مسامعها تاريخ صناعة الساعة في العصور الوسطى وأنها تُعد ثالث أقدم ساعة فلكية في العالم وأقدم ساعة لا تزال تعمل، أحست ثرية بشيء من الاطمئنان وهي تمسك بذراع بومبارديلا.

حدثت نفسها أنه يحاول أن ينسيها أن مبارك الذي ظنّت أنها ستبدأ معه حياة جديدة تغير في أول امتحان وأول تجربة.. وتساءلت عن مصيرها معه....

زارت مع بومبارديلا قلعة براغ وشاهدت البلدة القديمة قبل أن يعرفها على الحي اليهودي يوزيفوف وساحة فاتسلاف حيث المتحف الوطني ثم برج جيغكوف، التفت على حزنها عندما أخبرها بأن كاميليا تعاني مما قد تحسدها عليه، أخبرها أن الجمال النابغ يكد لأصحابه ويتعقبهم دون شفقة أو رحمة ولأنه خير للناس أن يكونوا من طينة العامة، وأن دممي الخلقة أسعد الناس لو فقهوا، لأنهم يملكون حرية الاطمئنان والבלاهة حتى في الأماكن الحافلة وحتى وسط المعارك والحروب، فلن يحاسبهم أحد عن الهزيمة وقد يقتاتون من ولائم النصر دون أن يهتم بسرقتهم أحد آمنين مطمئنين، أما الذكاء والجمال والتفوق والجاه والحسب والنسب فلهم ثمن يجب أن يُدفع وفي حينه كما تدفع كاميليا ثمن جمالها، ثم ختم بقوله أن المخلصين العشاق لا يعرفون من الحب إلا جانبه التافه، أما الخونة المنقلبون فيذوقون علقمه وويلاته ويغترفون من كل كؤوسه.

مرت ساعات حلت فيها عتمة الليل لتترك المجال لأنوار المدينة التاريخية قبل أن تعود الى ديكو هوتل، لم تعقل ثرية شيئا من كل ما شاهدت رغم جماله سوى كلمات بومبارديلا الساحرة، كان كيانه يحاول أن يهضم تصرف مبارك الذي وكما أخبرها بومبارديلا بالحرف عاد إليها ليصالحها ويبرر فعله الشنيع بكل غباء على أنه كان مجرد استعراض قوة أمام اللورد تشارلز وأن تصرفه دعاية للقيصر القادم حيث أن الجميع سيهابه في المستقبل، لم تكن تنتظر تبريرا غيبيا كهذا، ولكنها أحست برغبة قوية في تصديقه لدرجة أن التبرير الغبي نال منها للحظات أمام نظرات بومبارديلا المبتسم وهو يتساءل ويتعجب...

- النساء جنس مدهش... لديهن حدس فظيع يلاحظن به كل شيء عدى ما هو واضح وضوح الشمس...

دخلت ثرية غرفة النوم حيث كانت كاميليا منكمشة تحت الغطاء الحريري كقطعة صغيرة تتوارى عن أنظار الكلاب الشرسة بالشوارع القاسية بصقيعها، التفتت نحو ثرية التي أحست من خلال نظرات كاميليا أنها عضو في عصابة الذئاب التي اغتصبتها، اقتربت منها ودار حوار خال من الحروف والكلمات، قالت ثرية بعيونها لكاميليا أننا لسنا كذلك وأن مبارك ليس كذلك وأن بومبارديلا ليس كذلك، كل ما في الأمر يا كاميليا هو سحرك الذي لم يستطع مرافقي الغبي مقاومته، نحن لسنا ذئابا ولسنا مجرمين، بل نحن ضحايا أيضا في هذا العالم الظالم المظلم، أخذت بيدها ورافقتها إلى الحمام.

مرت عشرة أيام في فندق ديكو هوتل لم تتذوق ثرية فيهم طعم جمال مدينة براغ ولا قصور المالاسترانا ولا المتاحف ودور الأوبرا ولا قلعة فيش بل كانت أجمل اللحظات هي التي كانت تقضيها مع الوسيم، حيث تحتسي قهوة الصباح يوميا رفقة بومبارديلا بينما عاد مبارك كما توقع المسن ليضاجع كاميليا المرتعبة من القيصر متى خرجوا تحت الحراسة المشددة، وتذكرت قوله عندما أضحكها بقوله أن تلك الرغبة فسيولوجية محضة لا علاقة لها بالحب والإرادة وأن الشاب يحاول الوفاء فيعجز بينما يحاول الشيوخ أمثاله الخيانة فيعجزون، ضحكت حتى بانت نواجدها وقهقهت بشدة عندما سألته عن سر استعادت البسمة إلى حياتها فكان جوابه أن تبحث عن أكبر حماقة ارتكبتها في حياتها وترتكبها من جديد لأن للشباب ذاكرة وللبنسمة ذاكرة وللسعادة ذاكرة فمتى ارتكبت حماقتها القديمة دفعت روحها دفعا إلى الابتسامة

وانتشاء الروح بدل البحث عن الغيبات، سألته مستغربة عن ماهية الغيبات التي يشير إليها فقال مبتسماً...

- الحياة بعد الموت والرجل الوفي... أشياء تؤمن بها النساء لكنها لم تشاهدها قط...
ضحكت كثيراً ثم تساءلت ماذا لو لم تلتقي بالعجيب بومبارديلا الذي بدأ يرمي بمسلماتها في مزابل التقليد ويغرس في حدائق رأسها أفكاراً جميلة رغم كثرة أشواكها، إنه يطلي أفكاره بتعابير سحرية تمجد الحماقة لكنها تأسر حواسها التي تتبع ذلك المزمар الطروب، ماذا لو بقيت رفقة مبارك الذي سحرته امرأة أخرى ولم يصلوا للقيصر بعد ولم تهناً بعد... ما الذي ينتظرنا مع الجنى فورد..
سألها مباشرة على حين غفلة..

- هل يمكن أن تخبريني بسر مبارك؟

من أين يستقي معلوماته؟ صديقني ثرية أنا أرغب بمساعدتكما... مبارك شخص عادي جداً ولا يملك ما يؤهله لما وصلتم إليه.. هناك سر خلفكما ثرية وأشك أنكما ستكملان الرحلة على هذا الإيقاع.. هلا أخبرتني ثرية... يمكنك الوثوق بي..
رفعت عيونها للسماء.. أمعنت النظر... ساحت في مستقبل كثيف الضباب لحظة وقالت لنفسها أن الحديث مع بومبارديلا كالحديث مع إله فاتن مشدود، الحديث معه أشبه بالعزف على كمان حنون أو بيانو رقيق، أوثار قلبها تهتز مع كل كلمة تخرج من ثغره لتخضع لأفكاره فيما يشبه الاستعباد، ولذة الاستعباد معه لا تشبه أي لذة عرفتها بحياتها على قتلهم، أجابت بومبارديلا...

- سأجعله يخبرك بنفسه بعد أن ينتهي أمر القيصر... أنا أثق بإنسانيتك وعلمك الواسع مستر بومبارديلا.. صدقتي لقد ارتحت لك يوم رأيته لأول مرة.. لكن لا

أستطيع الآن... إنه سر أكبر من أن تستوعبه في الوقت الراهن.. ثم إن أول كلمة قلتها لي في السرداب تحت الأرض هي أني بريئة لحد الغباء.. أنا لا أنسى... (ابتسامة) ابتسم بومبارديلا قائلاً:

- صحيح ما زلت عند رأيي... ثرية فعلاً بريئة لحد الغباء... إنه أمر رائع ولكنه في الزمن الخطأ وسط المخلوقات الخطأ.. كونك بريئة لا يعني أنك غبية فعلياً.. إنه أمر محير... لكن لا يهم الآن.. أنتظر أن تخبريني بنفسك يوم ترين أني أستحق ذلك... أتمنى أن لا يكون الأمر تافهاً.. فهذا العصر غريب... تشدنا اليه الالغاز رغم تفاهتها ما دامت محجوبة عنّا..

تقدم منها حارسهما الشخصي ليخبرهما أن مستر دكستر أمر بعودتهما في الحال قبل أن ينفذا تعليمات القيصر الجديد، لم يسبق لمبارك خلال الأيام السابقة وأن طلب عودتهما بل كان يحبذ فكرة أن تخرج ثرية وتتركه مع السلعة التي اشتراها بملايين الدولارات، لكن الاستدعاء يعني أن هناك جديداً ينتظرهم بديكو هوتل.

بعد العودة تفاجأت ثرية بمبارك وكاميليا وقد تجهزا للخروج منتظرين عودتهما وبومبارديلا أمام الحراس، أخبرها أنهم سيغادرون براغ في الحال، تساءلت عن الوجهة القادمة لتعلم أنهم سيرحلون إلى كنيسة مهجورة بشمال إيطاليا حيث لم يتبق الكثير من الوقت قبل لقاء القيصر.

ساعة من الزمن كانت كافية ليحلق الوفد الرباعي فوق أرض التشيك متجهين إلى إيطاليا عبر الطائرة الخاصة، كانت ثرية وكاميليا تطلان من النوافذ هائمتان بتفكيرهما في مصائر مجهولة تنتظرهم بينما تقدم بومبارديلا من مبارك ليخبره بشيء زعرع كيان الذبابة فورده..

- لقد سبق وأخبرتكم مستر مبارك أنني أتذكر كل شيء..

رد مبارك بالإيجاب على المعلومة قبل أن يكمل بومبارديلا...

- في كوغندا ونحن نتجه نحو قصر مبالا لاحظت شابا إفريقيا يبدو وكأنه سائح تائه

وسط الجموع قرب قبيلة مباكو... الأمر يبدو عادي جدا في بلد ذو طبيعة ساحرة..

ولكن الغير عادي.. هو أن أشاهد نفس السائح بباب فندق ديكو هوتل اليوم... هل

لديك تفسير مستر مبارك...

لم يُجب مبارك ولكنه تذكر في الحين ذلك السائح الإفريقي يوم خرج من عيادة

الطبيب يشكو قلة النوم، لقد ساعده للوصول إلى بيت العجوز... تذكر أنه كان

شاهدا على سرقة الورقة النقدية بسوق الخضار... ثم ردد ذلك على مسامع الذبابة

فورد بعد أن اختلى مع نفسه...

من هو هذا السائح يا فورد... من هو؟

ردت الذبابة ولأول مرة بشيء لم يسبق لمبارك وأن سمعه منها...

- إنه كيتو... نحن في خطر مبارك... يجب أن نقتل القيصر بسرعة.. وإلا

فلن أستطيع إنقاذ كوكب الأرض.

صدق ما تراه وانس ما سمعت أو ستسمع.....

وليام شكسبير

كنيسة الأم مالينا

وقفت العجوز مالينا أسفل درج باب الكنيسة وهي تلتحف سترة صوفية واسعة بيضاء اللون منمقة الأردن، كان الجو شديد البرودة، وأصوات عجلات السيارات رباعية الدفع السوداء تحرث الحصى والأتربة وسط البراري متقدمة نحوها بعيون قاسية، هففت بثغرها في الهواء ذؤابات شعرها الأبيض الخارج من تحت عصابات الحمراء المربوطة بإحكام على رأسها الضئيل، نزل من السيارة الأولى بومبارديلا ومبارك ثم بانت نسوة حسناوات من خلف باب السيارة الثانية قبل أن يحيط حراس الأمن الألمان بجنبات الكنيسة، تقدم بومبارديلا نحو العجوز ملقيا التحية بالعبرية...

- شالوم..

أسهمت العجوز بعيونها السوداء القائمة الحسناوات خلفه قبل أن تجيب..

- إنه بيت الرب... لا مكان هنا للخطيئة طيلة مقامكم..

التفت اتجاه معبدها المغطى بعشرات الأشجار وسط غابات فاريزي شمال إيطاليا، كان الجو غائما يدق ناقوس أمطار غزيرة، دخلت العجوز ليتبعها الوفد الرباعي داخل الكنيسة البيضاء الصغيرة ذات المنابر المضلعة والمخروطية بصلبانها السمكية وسط صمت خشوع، شموع وردية كثيرة تذوب أمام مذبح العذراء، صليب السيد المسيح معلق عليه آثار التعذيب والدماء يهب العجوز مالينا إيماناً قويا وإحساسا بروح الرب تطوف بجنبات وأركان بيتها الأزلي

رافقت كل فرد على حدة نحو غرفته حيث سيقضي الوفد قرابة العشرين يوم، ذلك ما أخبرها به أبونا ميخائيل قبل يومين عندما جاء في زيارته الشهرية إلى الغابة المهجورة

حيث ترك مئات السكان منازلهم المجاورة في منطقة فال دي سوزا شمال غرب إيطاليا بسبب حرائق مهولة أكلت الغابات بأكملها ولم ينبج من الحريق غير كنيسة الأم مالينا، لقد رفضت مغادرتها، إنها تؤمن بأن الرب له أسبابه، وأن للكنيسة رسالة أو مهمة يجب أن تكملها قبل أن تختفي.

مرت عشرة أيام على الوفد الذي كان يلتقي ليلا لتناول وجبة العشاء التي كانت تحضر العجوز مالينا بعد شكر الرب على كل النعم التي وهبهم إياها، تكفل الوقت بفتح أبواب قلب كاميليا لثرية حيث كانتا تتبادلان أطراف الحديث طيلة اليوم في الغابة تحت الحراسة المشددة، عرفت خلالها ثرية أن قلب الحسنة اللبنانية لم يتحسر على بيعها لمبارك الذي كان ودودا رغم تعطشه لجسمها، ولكن صدمتها كانت عظيمة لأن اللورد تشارلز الذي كان يدّعي حبها لسنوات كان كاذبا، لم تكن تحبه ولكنها كانت مغرمة بحبّه لها إلى أن تبين أنه يعشق المال أكثر أو يخاف على نفسه أكثر، إنها متأكدة أن مبارك سيعاملها برفق، إنه طيب وبسيط، اعترفت أنها تجهل لماذا يريد أن يصبح القيصر الجديد كما اعترفت بخوفها على مصيرها مع أشخاص ما زالت تجهل كل شيء عنهم، لم تقدم ثرية إجابات شافية لكامليليا، كانت تغير مسار الحوار كلما تساءلت عن سرهم، طمأنتها عن مستقبلها معهم كذبا لأنها كانت تجهل مصيرها أيضا، ثرية سألت مبارك ما مرة عن ما يخطط له الجني فورد، أصرت وألحت إلى أن أخبرها أنه يعد خطة للقضاء على القيصر وأنه غير متواجد معهم بالكنيسة...

الجن الذي ينقذهم دائما تركهم وسط الغابات القارّة والموحشة شمال إيطاليا.

مرت أيام شتوية طالت على الجميع باستثناء ثرية التي كانت تسعد بفسحاتها مع بومبارديلا بالغابة حيث تستمتع بأحاديثه ولغوه واستهزائه من كل شيء، كان يرى

أن الانتصار سيكون حتماً للأدكى وليس الأقوى في الحرب بين مبارك والقيصر، كما أنه كان يرجح انتصار القيصر حسب معرفته به، كان يؤمن بالشيء ونقيضه في نفس الوقت أمام استغرابها، فتارة تظنه مؤمناً عابداً عندما يتحدث باحترام عن الأم مالينا وتارة تخاله ملحداً كافراً وهو يستهزئ بمعتقداتها بينما كان يبرر أقواله وتصرفاته بأنها تساؤلات أكثر من كونها حقائق، لأنه يبحث عنها تماماً كما كان القيصر يبحث عنها، أخبرها ما مرة أنه خير لها أن تكون التعيسة العارفة من أن تكون السعيدة المخدوعة، ورغم أنه كان يؤمن بأن الأكثر رعباً من العمى هو أن يكون الوحيد الذي يرى إلا أنه كان يجذب الحزن المختلط بالمعرفة على السعادة المغلفة بالغباء، وكان أكبر مثال على رأيه هو تصرف مبارك حيث علمها أنه لولا الصدمة لبقيت مخدوعة لمدة أطول، قال يوماً بجملة التي علقت برأسها طويلاً...

- الصدمة قاسية ولكن الفطن الذكي لا يتغاضى عن صدقها.. الصدمة على الأقل صادقة أنسة ثرية كما الحقيقة...

وقف مبارك في ذلك المساء الذي اتسم بهدوء شامل موحش قرب الحائط الخشبي للكنيسة الصغيرة، كانت خلفه بضع كراسي طويلة فارغة لطالما انتظرت المؤمنين يوم القداس منذ تلك الحرائق اللعينة، تطلع ملياً في الصور الصغيرة الحجم المصنوفة تباعاً والتي تحفها إطارات من الخشب المحفور لباباوات وقديسين لا يعلم عنهم شيئاً، وأخرى أصغر منسوخة من لوحات شهيرة أصلية من القرون الوسطى مرسومة بقلم الخبر الثخين، رفع رأسه عالياً حيث علقت أكبر لوحة لقديس يبدو أنه شهيد أو ملاك تتدفق عيونُه إيماناً، يرتدي درعاً براقاً سميكا يغطي بصفائحه كل جسده فوق حصان أبيض عظيم يرفع قائمته الأماميتين عالياً متحدياً بهما فكي مارد

عملاق بشع المنظر في تصور واضح للشيطان عدو الرب، سمع خلفه قعقعة خطوات بومبارديلا الذي علّق على الصورة وهو يدخن سيجارا فخما متعجبا بين دؤابات الدخان الأبيض الخفيف المتصاعد في أشكال لولبية متداخلة قائلا:

- إنها الحرب بين الخير والشر... أغلب الناس تظن أن أحدهما سيتنصر يوما.. لكن التاريخ يقول العكس.. أظن أن الأمر سيبقى على هاته الحالة إلى أن تكفّ الشمس عن تزويدنا بالحرارة والضوء..

أجابه مبارك وهو يتحسس بيده اللوحة ثم تساءل بعفوية..

- لاحظت أن هؤلاء الناس كانوا يكتبون تاريخهم ويدوّنونه بالفن أكثر من تدوينه بالكتب.. هل أنا محق؟ هل أصبت؟

ابتسم بومبارديلا مجيبا...

- إلى حد ما.. الفن لغة عالمية لا تحتاج من أي إنسان أي مجهود لتقديره.. ما تشاهده لوحة معبرة يمكن أن تُبهر شعب الإيسكيمو بالقطب الشمالي أو الهنود الحمر قبل أن يبادوا، يمكن لأي إنسان أن يحب بيكاسو أو بيتهوفن أو موزارت أو أم كلثوم أو إيديت بياف أو فرانك سيناترا دون أن يعي كلمة واحدة مما يقولونه أو ما يرسمونه وقد يفهم عنهم أغبر أشعث في أقصى صحاري إفريقيا دون الحاجة لمترجم، يجب فقط أن يكون إنسانا، إن من يرون فقط معاني القبح في الفن وآيات الجمال سفهاء لا عذر لهم وأخاهم أضلّ الناس سواء السبيل، أما من يرون الجمال وتهتز مشاعرهم لمجرد رؤيتهم لوحة أو سماع لحن ساحر فهم الأصفياء حقا وهم رجاء الإنسانية وأخال الحياة خلقت من أجل تلك اللحظات المبهرة..

التفت مبارك قائلا وقد بدا يانعا بشوشا...

- هل تعلم مستر بومبارديلا.. منذ وعيت على هذا العالم العفن وأنا أحلم أن أصير رساما شهيرا.. أعلم أني رسام رغم أني لم أمسك ريشة بحياتي.. ظروف الحيوانية لم تسمح.. كان في غرفتي الصغيرة الكثير من صور المجلات للوحات فنية عالمية لا أعلم من رسمها أو موطنها.. كنت أجلس الساعات أحرق بجهاها وأتخيل سعادة الرسام الذي رسمها.. لكن الواقع كانت له الكلمة الأخيرة.. فمذ الصغر وأنا أكافح فقط لأبقى على قيد الحياة.. ولا أعلم لماذا كنت أصر على الحياة حتى.....

صمت مبارك فجأة فأردف بومبارديلا سائلا..

- حتى ماذا؟.... حتى ماذا مستر مبارك؟

- لا يهم.. قد أخبرك يوما.. بعد أن ننقذ القيصر من حزنه..

- هل ما زلت مصرا على أن السائح الإفريقي مجرد صدفة مستر مبارك..

- ثلاث أيام وملتقي القيصر.. أريدك بجاني لتشاهد بأم عينك أني أنا القيصر

الجديد.. وستعرف أن لا مجال للصدفة معي..

ابتسم بومبارديلا ثم نزع قبعته البيضاء وضعها تحت إبطه وشفف شعره الناعم الى الخلف قبل أن يعيدها قائلا:

- سنرى مستر مبارك.. أنا أتساءل يوميا والفضول ينهشني.. أتساءل كيف ستقضي

على نيكولاس وأنت لم تغادر الكنيسة قط كل هاته المدة... أنت تقضي يومك بالغباء

مقطوعا عن العالم مثلنا.. لم تلتق بأحد.. لم تتحدث مع أحد.. غير كاميليا وثرية

وأنا.. حتى الحراس أنا من يترجم لك عنهم بما ترغب به من أكل وشرب.. أعلم

يقينا أن القيصر سيفعل كل ما بوسعه ليمنعك من قتله حتى ولو كان يرغب في ذلك.. أما أنت فلم تفعل شيئا...

لم يخبره بومبارديلا أنه كان مختلفا خلال تلك المدة...

لم يخبره أنه كان بسيطا متسائلا مدافعا عن نفسه بالصمت ومرتبكا أحيانا...

لم يسأله عن علمه الذي اختفى..

لم يسأله عن قوته التي أحسّ بأنها غادرته رغم أنه حاول جاهدا رصدها..

سُمع ذوي باب الكنيسة الذي دفعته ثرية بقوة ليرتطم بجنبات مدخلها وهي تصرخ وتحاول أن لا تقع من شدة الصدمة...

مبارك... مبارك... بومبارديلا...

أمسك بها بومبارديلا قبل أن تلفظ اسم كاميليا ثم يغمى عليها أمام نظرات خائفة من العجوز مالينا، هرول مبارك إلى الخارج وركض نحو صوت صراخ كاميليا المفزع مئات الأمتار داخل الغابة الموحشة تحت السماء الغائمة قبل أن يتصدع بالمشهد الذي رَجَّ أحشائه وجعله يخر أرضا على ركبتيه، وقف خلفه بومبارديلا وبين ذراعيه ثرية بينما طأطأت العجوز مالينا رأسها قبل أن تضع يدها على جبينها وتلوح بها على كتفها كناية على مشهد الموت الذي يدعو العبد المؤمن للاستغفار والاستعداد لملاقاة الرب.

كانت كاميليا واقفة تحت جدع شجرة عظيمة ودماء كثيرة تغطي كامل وجهها وفستانها الأبيض بينما كانت تصرخ من فظاعة ما نُشر أمام أعينها..

لم يخرَّ مبارك أرضا بسبب الدماء على وجه كاميليا ولكنه رقع أمام مشهد الحراس الألمان الخمسة عشر المعلقين من كواحلهم عرايا على أغصان الشجرة العظيمة

والذين سُلِخت جلودهم بالكامل ليصيروا جثثا حمراء جليّة الأعصاب والعروق والأوردة في مشهد مفرع لم يتخيله في أحلك كوابيسه.

وضع بومبارديلا ثرية أرضا تحت وابل الأمطار التي بدأت تهطل على الغابة، تقدم نحو كاميليا ليمسح عنها دماء وجهها بينما نهض مبارك الذي لم يستفك من صدمته بعد، خطى نحو أحد الحراس المعلقين وأخرج من فمه هاتفا صغيرا بدأ لتوّه يرنّ في يده المرتعشة، قال لنفسه أنه القيصر يقينا وتمنى أن تعود الذبابة لتنقذه من الشيطان الأعظم.... ثم ضغط على زر الرد.

- نعم..

- هل يمكن أن أكلم مستر بومبارديلا...

لم يكن صوت القيصر، ولكنه كان صوت شخص آخر..

- من المتحدث؟؟؟؟...

- الوقت ليس في صالحكم.. أود أن أكلم مستر بومبارديلا من فضلك..

تقدم مبارك من بومبارديلا الذي وضع كاميليا بين ذراعيه قبل أن يجيب المخاطب.. أنصت بومبارديلا للمخاطب ثواني معدودة ثم أقفل الخط قبل أن يتجه نحو العجوز مالينا ويهمس بأذنها حديثا طويلا تحت الأمطار القوية لتبتسم وتعاانقه أمام دهشة مبارك الذي كان يتساءل حول شخص المتكلم ثم يزداد فضولا حول ردة فعل الأم مالينا..

التفت بومبارديلا نحو مبارك قائلا:

- يبدو أنك فعلا مبارك.. لا أعلم هل هي رعاية الرب أم هو الحظ.. لا أعلم..

القيصر الأعظم سيفجر الكنيسة بعد قليل.. خذ الهاتف.. سيرن بعد أن يغادر.

حمل مبارك ثرية بين ذراعيه بينما تكفل بومبارديلا بكاميليا وقد مسحت الأمطار عنها دماء الحراس التي كانت تتقاطر من عليها، أمام باب السيارة الرباعية الدفع الكبيرة لاحظ مبارك أن العجوز مالينا تستعد لترافقهم قبل أن يسأل بومبارديلا عن السبب مستغربا...

- سأخبرك بعد أن نبتعد عن هنا..

خرجت السيارة السوداء من الغابة بسرعة، ورغم أن بومبارديلا مبثور اليد اليسرى إلا أنه لم يفقد شيئا من حنكته في السياقة، رن الهاتف مرة أخرى بيد مبارك بعد أن أفرعه صوت انفجار عظيم وسط الغابة وصلت رياحه الساخنة نوافذ السيارة ليحجب..

كان صوت القيصر هاته المرة...

- كنت أعلم أنك ستخرج من الغابة، إنه مجرد جس نبض بسيط لأعرف مدى قوتك.. لقد تأكدت أنّ بإمكانك قتلي مستر مبارك.. ليس لأنك الأقوى ولكن لأنك تملك سرا رهيبا يفترس أحشائي، رغم أنك جندت مرتزقة كاليغالي الألمانية لأنها خارجة عن سيطرتي.. أحببت أن تفهم أن بإمكانني قتلك متى شئت... كنت أرغب بقتل العجوز التي تأويك لكنك فاجأتني كالعادة عندما غادرت الغابة ومعك العجوز.. أنتظر قرب النافورة بمقهى سان بيير.. الساعة العاشرة صباحا... إلى اللقاء مستر مبارك.

أغلق الخط، التفت بومبارديلا إلى مبارك على يمينه قائلاً:

- إنه القيصر...

- نعم.. القيصر.. هل ستخبرني... من كان المخاطب الأول؟

ابتسم بومبارديلا وضحك طويلا بينما كان مبارك يمتعض من ضعفه بسبب غياب الذبابة وأحس بقوة المعلومة كما أخبرته كثيرا، وقبل أن يجيب بومبارديلا المنتش بعلمه، لاحظ على مبارك فجأة أسارير البهجة، ثم تالأأت عيونه التي كانت تتقاطر جهلا لتنفجر من خلالها ثقة مدمرة، وكأن شخصا آخر حلّ بدل مبارك البسيط، وكأنه مخلوق يحتوي على مخاليق بداخله، وكأن نسبة الأدرينالين تضاعفت عشرات المرات مسببة بدل الخوف نشوة عظيمة ذاب في لذتها، ابتسم مبارك وقد بدى خبث الشياطين على ملامحه أمام اندهاش بومبارديلا المبتسم دوما، وكأن بومبارديلا كان سعيدا أيضا بعودة الشيء الذي يجعل من مبارك القيصر الأعظم...

كان ينصت بخشوع للذبابة التي عادت أخيرا وكأنه يسمع أروع سمفونيات موزارت وشوبان وبيتهوفن، لقد عاد فورد بعد اختفائه قرابة الشهر من الزمن، عاد وقد اكتملت خطة قتل نيكولاس ماندي، عادت الحشرة وعادت معها قوة مبارك الذي سيصبح غولا عظيما.

تأكد بومبارديلا من ذلك عندما قال مبارك الذي كان حائرا قبل بضع ثوان...
قال مخاطبا العجوز مالينا...

- أنت هدية من السماء أُمي.. سعيد أني كنتُ السبب في عثورك على ابنك سلمان خان...

لقد أنقذنا جميعا...

لا تأسي على الكنيسة، لقد شاءت الأقدار أن تكون حلقة وصل بيني وبين ابنك..
و أيضا لأنني سأبني من أجلك أكبر كنيسة في العالم..

سأسميها كنيسة الأم مالينا.

إذا أردت أن تكون قويا تعلم كيف تقا تل لولءك...

مءء ءل كلال

فانديتا

ازدادت حيرة بومبارديلا رغم سعادته الواضحة بعودة مستر مبارك الى سابق عهده وقوته، لم يلاحظ أي شيء رغم قدرة ذاكرته الخارقة على تذكر كل التفاصيل، فمنذ عرف الشاب الصعلوك الذي يسعى لإزاحة القيصر من عرشه لم يلاحظ شيئاً يستدعي الاهتمام...

مبارك لا يضع أي سماعات داخل طبله أذنيه، لا يتلقى مكالمات هاتفية تملي عليه أية تعليمات، لم يخرج للفسحة بالغابة سوى أربع مرات مع كاميليا خلال عشرين يوماً، يحدث ثرية عن توافه الأمور عند جلوسهم للعشاء، لم يغب عن نظره طيلة مقامهم بالكنيسة، كان سطوحيا وتافها أحيانا من خلال حديثه معه طيلة تلك المدة...

عَلِمَ منه أنه يجب الرسم الذي لا يعلم عنه أي شيء...

إذن ما الذي حصل بعد أن غادروا الغابة تحت وقع الانفجار الهائل للكنيسة..

من أين علم بمكالمة سلمان خان... الذراع الأيمن للقيصر؟

كيف علم بأنه ابن العجوز مالينا...

كيف ذلك وقد كان يجهل كل شيء قبل بضعة دقائق من الانفجار..

بعد يومين خرج بومبارديلا رفقة مبارك من مصحة سانتا ريتا الصغيرة وسط روما حيث ترقد كاميليا، كان بومبارديلا يعلم أنها ستعرض لانهايار عصبي من هول المجزرة التي شاهدها بالغابة، كان وقعها أقل حدة على ثرية وكأنها سائرة على طريق القسوة بخطوات بطيئة لكنها فعّالة، فضّل مبارك أن تبقى بالمستشفى رغم توسلاتها لمرافقتهم خوفاً من المجهول حيث تطوعت العجوز مالينا للعناية بهن الى حين عودتهم، لم تغادر عيون مبارك الجوال الذي اقتناه وسط المدينة طيلة اليومين

السابقين، لاحظ المسن الوسيم أنه يبحر في عالم الأنترنت بتركيز شديد حيث لم يكن يسمع ما يجول حوله لساعات على المقاهي رفقته، رغم أن قدماء لم تطأ إيطاليا من قبل، كان من الطبيعي أن يستمتع ولو قليلا بجمال مدينة روما كما الحال في براغ، لكنه لم يفعل، تركيزه شديد وعيونه تتحدث دون أن يقول كلمة واحدة، وكأنها تقول سأنفّر لكل شيء بعد أن أقتل القيصر، يقينا...

قال بومبارديلا لنفسه إنها مهمة ثرية، ثرية أسرع، ثرية لا تحتاج هذا الوقت، لكنها ليست هنا، إنه وحيد الآن.. كما أنه لا يثق بي.. لو كان العكس لتكفلت من أجله بالمهمة، ما الذي يخطط له هذا الشاب... إنه يعاني... هل لديه انفصام في الشخصية.. قد تكون بداخله شخصيتان..

الأولى بسيطة عادية خائفة مهزوزة مرتبكة...

و الثانية ذكية عبقرية خسيصة مجرمة...

لا أعلم... ما زلت لا أعلم..

أحس بومبارديلا بشيء من الشفقة على الشاب المتعرق المشدود الأعصاب لساعات وساعات أمام هاتفه المحمول وهو يفرك أعينه الحمراء قبل أن يتنهد ويخرج نفسا عميقا ثم يقول...

- لقد انتهى القيصر...

كانت الساعة تشير إلى التاسعة وخمس وأربعين دقيقة، لم يتبق من الوقت إلا ربع ساعة تفصل لقاءهم بالقيصر، اعتدل مبارك جالسا ثم وقف أمام نظرات بومبارديلا المشدودة قائلا..

- هيا بنا مستر بومبارديلا... يجب أن نخلص نيكولاس من حزنه..

استقلا سيارة أجرة صغيرة وبعد دقائق كان المسن الوسيم والصعلوك يقفان أمام أكبر نافورة باروكية في روما وأشهر النوافير بالعالم، كان الشاب يتطلع إلى القصر العتيق الضخم خلف النافورة بتأثيلها الحجرية والممرية المنحوتة، وكأنه لاحظ للتو مظاهر حضارة هندسية ثقافية حُرفية عاشت هنا خلال القرون الوسطى حيث يُمثل تمثال نبتون مجسداً إله البحر عند الرومان في قلب النافورة فوق عربة تجرّها أحصنة بائنة العضلات محاطة بفتيات فاتنات عذارى حسب الأساطير اللاتينية في مشهد يرمز للخصوبة والفحولة والنقاء والكمال الذي تنفجر من تحته مياه النافورة معبرة عن محيطات العالم أجمع، لاحظ بومبارديلا انبهار مبارك بالمشهد وكأن الشاب الذي مرَّ وجهه طويلاً بهاتفه ليس هو مبارك المنبهر بجمال التماثيل والذي يستعد للقاء القيصر الأعظم أمام مئات السياح الأجانب الذين يجلسون على جنبات النافورة وبعض العشاق الواقفين الذين يعطونها بظهورهم قبل أن يرموا في قلبها قطعاً نقدية ضاحكين مبتسمين للحياة بُغية تحقيق أحلامهم.

دقت عقارب الساعة بيد بومبارديلا مؤذنة بحلول العاشرة صباحاً وأيضاً...

إنه موعد لقاء القيصر الأعظم بمبارك الصعلوك...

وقفت أمامهم سيارة نقل بضائع صغيرة سوداء اللون، فُتح بابها الجانبي أوتوماتيكياً قبل أن يظهر خلفه داخل الظلمة في السيارة ظِلُّ كرسي متحرك عليه رجل مُقعد يلبس بدلة أنيقة بيضاء اللون بجيبها الأيسر على صدره وردة حمراء، خرج أسفل السيارة لوح فضي لامع قبل أن يتقدم الكرسي المتحرك مُصدراً أزيزاً خفيفاً ليتضح بعدها أن وجه الجليس يحجُّبه قناع أبيض تعلوه حواجبٌ ثخينة سوداء وشارب أسود نحيف يتجه للأعلى نحو الحدود البنفسجية اللون والتي توسطها أنف نحيف

من البلاستيك المقوى، وقف الكرسي المتحرك أمام قدمي مبارك ثم أغلق باب السيارة التي تحركت ببطء لتختفي وسط الأزقة المقابلة للنافورة وسط عشرات السياح، لم يكن القناع يسمح بمشاهدة أي جزء من وجه الرجل المُقعد الذي حرك يده القابضة على زر فوق منضدة جلدية مستطيلة يسار الكرسي ليخترقهم متجها نحو المقهى الصغيرة خلفهم حيث حُجزت طاولة صغيرة بيضاء عليها مزهرية وردية حولها أربع كراسي صغيرة، توقف الكرسي ثم استدار بهدوء قبل أن يتقدم نحوه مبارك ويتبعه بومبارديلا، رفع الرجل يده اليسرى بصعوبة بالغة وهي ترتعش قبل أن ينزع عنه القناع ببطء شديد، ظهرت على رأسه نظارة فضية اللون كانت مثبتة بإحكام حول عنقه الصغير، وضع القناع على الطاولة ثم أنزل النظارة على عيونه لتحيط بنصف وجهه المرعب.

سمع مبارك صوت الذبابة فورد وهي تخاطبه بنبرة تتخللها النشوة..
اضحك مبارك... اضحك مبارك.. إنه القيصر الأعظم بلحمه وشحمه... لقد انتصرنا.

ابتسم مبارك قبل أن يجلس على يمين القيصر الأعظم بينما تحولت نظرات بومبارديلا المبتسم الى أخرى قاسية لم يسبق أن رآها الصعلوك منذ عرفه ثم احمرت عيونه التي كانت ترقص بين الدموع والغضب لدى من سيشاهدهم، لم يعلم مبارك هل هو الغضب أم الحزن أم الرغبة بالانتقام، كان وجه القيصر عبارة عن كومة لحم مستديرة تتخلله ثقب متفتحة مشوهة حيث أن ثغره لم يُعد صالحا للاستعمال، بعد أن نزع عنه القناع لاحظ لمبارك تلك العيون الخضراء التي شاهد لأول مرة على اللوحة في غرفة بومبارديلا بالدهليز تحت أرض كوغندا، إنه القيصر الأعظم، لكنه صار مخلوقا

مشوها لا يصلح للحياة دون حزن، طأطأ رأسه قليلا وبدا وكأنه سيبادر بالحديث بينما كان مبارك يرثى لحاله، ثم صدر فجأة صوت من ساعات مخفية تحت الكرسي المتحرك.

تابع بومبارديلا بتركيز شديد حوار الخصمين كشاهد على قوتها وذكائها.

- تفضل مستر مبارك.. تفضل أستاذي العزيز... إنها العاشرة بالتمام والكمال.

عاد التركيز على ملامح مبارك بعدما أخبرته الذبابة بأن الشخص الجالس قرب هو القيصر الأعظم وحذرت من عدم التدخل بينها وبينه وأن يرّد بالحرف أجوبتها...

- إنه لا يشبه حارس المرمى ولا الصعاليك أصدقائك... إنه ليس ريجيني ولا ماتيلد ولا مبالا ولا بومبارديلا... إنه القيصر الأعظم الذي يحكم أخطر منظمة إجرامية بالعالم دون أن يخرج إلى العلن منذ عشرين سنة... أي خطأ أو هفوة منك قد تؤدي إلى تدمير المستقبل الذي وعدتك به.

ثم بدأ مبارك بالحديث على لسان الذبابة التي دوختهم جميعا.

- شكرا على ضيافتك أيها القيصر.. شكرا على كل ما بنيت خلال حياتك، يسعدني أن أكون المالك الجديد لعرشك.

سُمعت ضحكة وقهقهة طويلة عبر ساعات الكرسي بينما كانت الأعين الخضراء خلف النظارات الغريبة هي المتحرك الوحيد وسط الوجه البشع، أحست الذبابة ببركة مبارك من خلال سماعها لقلبه الذي زادت حدة ضرباته...

- لا تقلق مبارك، إنه يتحدث من خلال نظاراته بتقنية جد متطورة تقرأ حركة قزحيته وتحولها الى حروف وكلمات يتكلف معالج جد قوي بالتعبير عنها كما يرغب القيصر... لقد أصيب منذ عشر سنوات بمرض يدعى انحلال الجلد الفقاعي... إنه

مرض نادر جدا يلتهم جلد المريض ولحمه ولم يتم اكتشاف العلاج إلا مؤخرا في ألمانيا.. لقد فقد تقريبا كل لحم جسمه وهو بالكاد يستطيع الكلام.. لذلك تمّ تصميم هذه الآلة من أجل تمكينه من الكلام... لا تقلق.. إنه القيصر الأعظم الحزين كما أخبرك بومبارديلا..

استمرت ضحكات القيصر عبر الساعات طويلا قبل أن يقطعها بومبارديلا مخاطبا إياه بنبرة حادة..

- هذا الشاب سيخلصك من حزنك نيكولاس.. لماذا ترفض الرحيل عن هذا العالم.. لماذا؟

صمت... ثم حدّقت عيونه المشوهة بملامح بومبارديلا قبل أن يعود الصوت عبر الساعات..

- يجب أن يكون أهلا للعرش الذي سأتركه له... يجب أن أتأكد من أنه أقوى مني وأذكى وإلا فلن أسعد بالعالم الآخر سواء كان عدما أو حسابا..

رد عليه بومبارديلا في الحال بحدة كانت واضحة من خلال تعابير وجهه حيث احمرت وجنتاه لتسطع الشعيرات البيضاء الكثيفة وسط لحيته السوداء.

- إذن إرم أوراقك وأثبت له أنك القيصر الأعظم... ضحك مرة أخرى...

- أنا هو الحائز على اللقب وأظن أن من يريد الحصول عليه هو الذي يجب أن يصعد للحلبة أولا... مستر مبارك يريد الحصول على عرشي ولن أتركه يفعل حتى يثبت أنه يستحقه.

رد مبارك قبل أن يكمل القيصر حديثه...

- نحن لسنا على حلبة ملاكمة... أؤكد لك نيكولاس أنك ستموت بعد لحظات ولكنني أذكر أنك وعدتني هدية... لذلك فأنا أرغب في الحصول على هديتي لأهبك الموت الذي تستحق.

- صحيح مستر مبارك.. أحسنت.. نحن لسنا على الحلبة.. كما أني وعدتك هدية وأنا شخص يحترم العهود... حسنا كما قال أستاذي بومباديلا الذي صار حرا بسببك.. سأرمي بكل أوراقتي لأرى هل يمكن أن تقتلني كما تدعي... لكن قبل ذلك أحب أن أقدم لك هديتك كما وعدتك.

التفت برأسه نحو النافورة حيث وقفت نفس سيارة نقل البضائع الصغيرة التي قدم عليها القيصر قبل أن يُفتح الباب من جديد ويخرج رجلان يلبسان سترات صفراء طويلة كتب على ظهرها جمعية الرفق بالحيوان تابعة للمجلس البلدي لروما، كانا يحملان صندوقا خشبيا كبيرا قبل أن يتقدما نحوهم ويضعوا الصندوق على بعد أمتار من الطاولة حيث يجلس الثلاثة، سمع مبارك صوتا داخل الصندوق يوحى للسامع أن به حيوانا مفترسا وأنتظر أن تخبره الذبابة عن محتوى الصندوق ليتفاجأ بصمتها الطويل المقلق قبل أن تطمثه...

- لا تخف مبارك... أنا لا أعلم ما في الصندوق ولكنني متأكدة أن أمر القيصر انتهى...

التفت القيصر بهدوء نحو مبارك قائلا...

- هذه هديتك مستر مبارك... والآن حان وقت الحقيقة لتأكد من مدى قوتك...
أشفاق كثيرا لأعرف كيف ستقتلني بعد ما سأخبرك به مستر مبارك...

لنبدأ إذا... أول مرة يتم اختراق منظومتي المعلوماتية كان عندما أمرت بقتل ماتيلد برقم سري بعد أن وصلتني منه رسالة تفيد بأني بعثت بشخص إليه من طرفي دون علم، تساءلت حينئذ عن الشخص الذي تجرأ واستعمل اسمي والذي يمكنه أن يصل الى تلك الشيفرات، أنا من أسس منظومة الشيفرات ولا يمكن أن يصل إليها غير سلمان خان والذي لا توجد أي صلة بينك وبينه، ثم أستاذي بومبارديلا الذي أسجنه، إذن من بإمكانه التجسس على شيفراتي... عندما تحدثت معك أول مرة بالطائرة الخاصة بماتيلد عرفت من لهجتك أنك مغربي وبحكم معرفتي بكل لغات العالم ولهجاتها، أظن أن بومبارديلا أخبرك بالأمر مقابل أن تطلعه على شرك أيضا... عرفت المنطقة التي يجب علي البحث فيها، منطقة عبدة وهي نظم ثلاث مدن أكبرها مدينة آسفي، بعثت الكثير من رجالي وأنفقت أموالا طائلة إلى أن وجدت صورتك بين المبحوث عنهم من طرف الشرطة المغربية رفقة جارتك ثرية وعرفت أنكما متهمان بقتل العجوز التي كنت تكتري عندها، لقد قتلتها بالسم وسرقت أموالها، وعرفت أيضا أن ثرية تجهل أنك القاتل، لقد كانت ساعة وقوع الجريمة بالمستشفى لأنها تعرضت لشبه بتر لأذنها اليسرى لسبب أجهله، وتساءلت كثيرا كيف يمكن لهذا الصعلوك خريج السجون القادم من افريقيا الشمالية والحديث السن أن يهددني بالقتل، صدقني لقد جن جنوني وقتلني الفضول إلى أن رأيت بأم عيني كيف حررت بومبارديلا وكيف قضيت على مبالا في دقائق وكيف تسببت بشوة ساحقة في يوم واحد، لذلك طلبت منك أن تخبرني بسرّك إذا ما قدرت علي... يجب أن أعرف سر قوتك ومن أين لك بكل تلك المعلومات، تعقبت حياتك منذ نشأتك فلم أجد أي شيء أو أمانة توصلني إلى ما أنت عليه الآن... شاب سكير صعلوك عدواني يشتم

ويترامى بالحجارة عندما يتشاجر في مقاهي القمار الرخيصة، رائحة الخمر لا تفارقه حتى في وضوح النهار، ملامحه غدت أكثر قذارة مع ملابسه المتسخة في سوق خانز حيث يبيع الخضار الفاسدة، لا تملك أسرة تهتم لحالك، والدتك تركتك صغيراً لعمك الذي اختفى فجأة بينما كنت أجمع كل المعلومات عن أسرتك، ساقني البحث عن عمك الى منظمة يان سو الصينية والتي لم تخترها بالصدفة لأنها خارجة عن إطار تعاملاتي.. إنها منظمة مارقة رفضت دوما الانضمام لوصايي تماماً كالمنظمة الألمانية التي استعملتها لحمايتك طيلة مقامك بالتشيك، لقد اشترت هديتك من الصينيين مستر مبارك....

عمك هو الذي يوجد داخل الصندوق الخشبي مستر مبارك...
سُمع صوت خريشة داخل الصندوق أمام فرع مبارك الذي لم يستطع أن يخفي وقع المفاجأة على وجهه حيث أنه نزع نظارته السوداء ببطء قبل أن يقف ويخطو ببطء ليتحسس بيديه اللوح الخشبي الخشن بينما كان قلبه يخفق بسرعة مخيفة وكأنها طبول الحرب التي كانت تُقرع خلال العصور الوسطى، عادت إلى ذهنه ذكريات مخيفة في توقيت غير مناسب تماماً، جعلته يتنفس بصعوبة بينما استمر القيصر في حديثه عندما لاحظ أنه حرك شيئاً خفيفاً...

- يبدو أنك أهملت قصة عمك مستر مبارك وشغلت نفسك بي أكثر من اللازم... لقد ازدادت اهتماماً بشخصك عندما رأيت ما فعلت بالمسكين، يبدو...

قاطعته مبارك والتفت نحوه صارخاً بوجهه وعيونه تكاد تنفجر غضباً...

- إنه ليس مسكيناً... إنه لا يستحق الحياة...

صمت قاتل..... ثم عاد القيصر ليكمل حديثه...

- لا بد وأنك تكرهه بشكل هستيري... أتخيل أن هذا البيدوفيل دمر حياة الكثير من الأطفال وأنت من بينهم... وأعترف أنني تفاجأت عندما رأيت ما بالصندوق بعد أن اشتريته.. لقد نفذوا أوامرك بالحرف مستر مبارك.. لقد سَمَلُوا أعينه وجزعوا أنفه وقطّعوا أذنيه وبشروا أرجله من الركب وأيديه من الرُسخ ثم غطّو البثور بلحمه حول صابونة الركبة والكعبرة فوق رسغه حتى صار كائنا رباعيا تماما كالدواب، ثم قطعوا جزئا من لسانه وصعقوه بالكهرباء منذ اختطفوه على تسجيل صوت كلب ينبح كلما حاول التحدث أو الصراخ.. علّموه أن ينبح كالكلاب إذا جاع... كل هذا قبل أن يحرموه من عضوه التناسلي... إنه لا يستطيع أن يتفوه بكلمة واحدة.. إنه لا يعرف الآن غير النباح... وكأنك طلبت منهم أن يحولوه الى كلب أو يقتلوه كالكلب... لا أعلم... كانت المعلومة خارج الاتفاق بعد أن اشتريته بعشرة أضعاف الثمن الذي دفعت لهم...

إذا كان هذا الفعل من صنيعك فإنه انتقام اسطوري يجب أن يدوّن في كتب التاريخ...

وهو دليل على أنك لم تعد تملك قلبا...

لا شيء أسهل من الكراهية أما الحب فيحتاج الى نفس عظيمة.....

شمس التبريزي

وداعا

عاد مبارك ليجلس على الكرسي محاولا إخفاء ارتبائه بالمقهى قبالة النافورة، كان يرغب بالحديث الى الذبابة التي أحست بتلك الرغبة الجارحة قبل أن تبادره بالرد على استفساراته حتى يكمل مهمة قتل القيصر الذي فاجئها أيضا...

- يجب أن تتمالك أعصابك مبارك.. الوقت غير مناسب للعواطف الغبية الآن.. لقد نفّذت رغبتك كما طلبت مني بالحرف.. تذكر أنك طلبت مني أن يموت كالكلاب يوم عرضت عليك أن تتركه وشأنه.. لقد نفّذت أمرك بالحرف مبارك... إذن لا داعي للجزع.. أعترف أنه فاجأني أيضا والسبب واضح... لا يمكنني أن أتواجد بأمكنة متعددة في وقت واحد... ليس في استطاعتي أن أعرف كل شيء... لقد أخبرتك بهذا الأمر منذ البداية... أنا مجرد ذبابة.. وأنت الأداة.. يجب أن تنفذ الآن ما اتفقنا عليه... أنت على بعد خطوة واحدة من تحقيق كل أحلامك مبارك... أنت أمام أبواب الجنة... عليك فقط أن تتركني أتصرف...

نظر مبارك اتجاه القيصر... هداً من روعه ليتمالك أعصابه ثم قال:

- شكرا على هديتك أيها القيصر... سأحافظ على حياتها عشرات السنين ليكون الانتقام بقدر قوتي ولتعلم كل من سيتعامل معي في المستقبل أن القيصر الجديد لا يشبه القيصر القديم في شيء... لأنه ببساطة أخطر وأذكى وأشرس مما قد يتخيله الجميع.. أظن أنه قد حان الوقت لنودعك نيكولاس... كفاك حزنا..

حرّك القيصر فجأة ولأول مرة فمه المشوه وسمع صوت حشرة عبر ثغره وكأنه يودُّ أن يُعبر عن سعادته بما سمعه من قبل مبارك قبل أن تنزل دموع من عيونه الخضراء وسط كومة اللحم المتدلي عليها، ثم عاد صوته عبر السماعات تحت الكرسي...

- لا أستطيع أن أعبر لك عن كل ما أرغب به.. كنت أود أن أعانقك ولكنك كما ترى... المرض لا يسمح لي بالكثير من الأمور... أريد أن أعرف الآن كيف ستقتلني مستر مبارك بعد أن عرفت ما بداخل الصندوق وقبل أن تجيبني على سؤالي....
قاطعته بومبارديلا غاضبا...

- الشاب يخبرك عن موتك بعد قليل... لما لا ترمي بأوراقك كاملة لكي ينتهي الأمر... ألا ترغب أن ينتهي الأمر... لماذا ما زلت متشبثا بهذه الحياة... أخبره كيف ستختطفه أمام مئات السياح والشرطة ليخبرك بدوره كيف سيقتلك أيضا أمام الجميع...

التفت القيصر ببطء جهة بومبارديلا قبل أن يقول...

- أرى أنك تستعجل موت تلميذك أستاذي.. لن أسمح بذلك كما أخبرته وكما أخبرته.. حسنا.. حان وقت الحقيقة مستر مبارك قبل أن تدخل الصندوق الزجاجي الذي ينتظرك في كوغندا...

ما إن أكمل القيصر رده حتى وقفت أمام النافورة ثلاث سيارات رباعية الدفع نزل من عليها اثني عشرة فردا ضخام الهيئة يحملون أسلحة أوتوماتيكية متطورة بساتر سوداء وأقنعة مشابهة لقناع القيصر وسراويل مثخنة بالجيوب وأحذية عسكرية، وقفت على جنبات النافورة بعشرات الأمتار سيارتين تابعة للوقاية المدينة وأخرى للهلال الأحمر وثلاث سيارات أخرى صفراء عليها خطوط سوداء تابعة لرجال الشرطة، كان رجال الأمن والإسعاف والمطافيئ يقفون جنب عرباتهم وكأنهم ينتظرون حدثا ما، تقدم المقنعون نحو المقهى وجها أسلحتهم نحو مبارك وبومبارديلا الجالسين، لاحظ مبارك أن مئات السياح الواقفين على مشارف نافورة

تريفي لا تحرك ساكنا وكأن مشاهدة عشرات المسلحين في موقع سياحي شهير أمر طبيعي، حتى العشاق يقبلون بعضهم ويلتقطون الصور الفوتوغرافية وكأن المسلحين مخلوقات غير مرئية، أخبرت الذبابة مبارك قائلة..

- لا تقلق مبارك... انتظر حين أن يرمي جميع أوراقه... ابتسم وقُل...-

ابتسم مبارك في وجه القيصر أمام علامات استغراب بومبارديلا...

- هل هذا كل ما لديك نيكولاس؟ هل من مزيد..

- نعم مستر مبارك يوجد المزيد.. أخبرتك من قبل أني تساءلت عن شرك الذي يمكنك من تجميع كل تلك المعلومات... وبما أنه يقينا نوع جديد من التجسس الذي لا أعلم عنه شيئا لحد الآن... ولأنني أعرف كيف تتجسس معظم المنظمات الحكومية بالعالم وعلى رأسهم وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والكي جي بي الروسية، قررت أن أغير المنظومة بأكملها، قبل لقائنا فقط بيوم واحد، غيرت الخطة... غيرت الكثير من رجالي.. غيرت شيفرات الأوامر... قتلت كل من شككت بخيانتهم أو بإمكانية خيانتهم يوما للمنظمة التي أسست لسنوات طويلة... غيرت كل شيء... في عالم التجسس من الصعب التعرف على خطوات العدو إذا ما كانت حلقة المنظومة التي يصدر منها الأوامر ضيقة.. وكلما ضاقت كلما صار من الصعب الوصول إلى المعلومة.. لذلك حصرت حلقتي بيني وبين حاسوبي الشخصي من خلال أوامر غير واضحة يتلقاها الجميع... حتى أوفى شخص يعمل عندي لا يعلم عنها غير القليل... سلمان خان... وإليك الآن كل ما ينتظرك مستر مبارك... البارحة فقط تعاقدت لأول مرة مع منظمة مختصة في القنص وتخطيط جرائم بدقة بحيث تبدو وكأنها حوادث... اسم المنظمة لا يعرفه غيري لأنها مجهولة من كل الجهات الحكومية

بالعالم، كما أن محادثاتي كانت تمر عبر نظاراتي في غرفة محكمة من المستحيل التجسس عليها، وقبل ذلك كله حجزت ميدان نافورة ترفني بأكمله من أجل تصوير فيلم سينائي، كل من تشاهدهم حولك مستر مبارك مجرد كومبارسات وممثلون ما عدى رجال الشرطة والإسعاف...

بينما القيصر مستمر في رمي أوراقه على الطاولة ظهر خلف الجميع مجموعة من الأشخاص يجرون عربة غريبة بذراع حديدي طويل علقت عليه كاميرا كبيرة خلفها شاب جالس على كرسي أسود مكتوب عليه كلمة مدير التصوير بحروف لاتينية، كان ينظر من خلال عدسة الكاميرا بينما كان الجميع يتصرف وكأن شيئا لم يكن، وتأكد لمبارك وبومبارديلا أنهما ضيوف على موقع تصوير فيلم سينائي وأن القيصر فعلا يتحكم بالمشهد من أوله إلى آخره

- سيتم تصوير لحظة القبض عليك قبل أن أسجنك بالصندوق الزجاجي وقد أقتل أستاذاي بومبارديلا دون أن يرمش طرف أحدهم.. وقد يصفقون لجمال المشهد أيضا...

قالت الذبابة لمبارك خلال انشغال القيصر بشرح خطته...

- لا تخف مبارك... كل شيء ما زال تحت السيطرة... يجب أن نخبرنا بالمزيد... يجب أن يلقي كل ما في جعبته...

ابتسم مبارك مرة أخرى قبل أن يقول...

- هل هذا كل ما في جعبتك يا نيكولاس؟

- لا مستر مبارك... تعاقدت لمزيد من الاحتياط أيضا مع منظمة مكسيكية غير معروفة مختصة في القتل وبالضبط... في القنص... يوجد على البناية خلفك مستر

مبارك قناص يترصد كل ذرة أوكسجين تستنشق وكل حركة من أصبعك... يكفي أن أعطي الأمر بعيني لتنفجر رأسك في الحين.. كما أنه ليس الوحيد... يوجد آخر بالبنية على يمينك وآخر أيضا بالبنية على يسارك... ولتأكد بنفسك... ارفع إحدى يديك...

رفع مبارك يده اليمنى كما طلب القيصر لتظهر عليها فجأة ثلاث نقاط حمراء منبعثة من ضوء ليزر ويتأكد من صدق قوله...

- كما لاحظت مستر مبارك.. كل شيء هنا تحت سيطرتي... من المستحيل عليك أن تعلم بكل ما خططت له البارحة فقط، أعتى الأنظمة في العالم قد تحتاج لأسابيع وشهور لجمع البعض مما أخبرتك به... إذن كيف لك أن تقتلني وأنت لم تغادر الكنيسة طيلة الشهر الفارط... كيف لك أن تقتلني أيها الصعلوك؟؟؟ لقد جعلتني أستخدم كل الإمكانيات المتاحة لي رغم أنني أعلم أنك صعلوك عفن.... ولذلك ستخبرني عن شرك يا هذا مهما طال بك الزمن داخل الزنزانة حتى لو اضطررتي الأمر لتقطيعك إلى أجزاء صغيرة...

ابتسم بومبارديلا قائلا بعد أن فرغ القيصر من تفصيل المشهد...

- صحيح... لقد كنتُ شاهدا على ما ذكرت نيكولاس... مستر مبارك لم يتلق أي مكالمة ولم أسمعته يتحدث مع أي كان طيلة المدة التي كنت تجهز فيها لهذا المشهد... كل ما فعله هو بضع ساعات من الإبحار عبر الأنترنت خلال الست ساعات الفارطة... ولكي تزداد حيرة فكل اتصالاته عبر النت كانت عبارة عن أوامر صادرة منه شخصيا وأنا أجزم لك أنه لم يتلق أي تعليقات... لم يتلق كلمة واحدة... لم يتلق حرفا واحدا... أنا أتشوق لمثلك لمعرفة سره الرهيب وأيضا أتشوق لمشاهدة الطريقة

التي سيخرج بها من هذا الفخ.. لأنه إن فعلها حقاً.. سنكون شهداء على مولد أعظم
قيصر عرفه التاريخ... القيصر الذي يمتلك كل العلم دون جهد ودون عناء يستحق
اللقب بدون منازع.

نظر مبارك إلى بومبارديلا وبدى على محياه وكأنه انزعج من المعلومات التي قدمها
الأخير إلى القيصر مجانا، وقبل أن يرد على القيصر اقترب من المشهد شاب وسيم
يلبس قميصاً أبيضاً مزركشاً يحمل لوحة سوداء بها قطع بالأعلى كتب عليها.
مشهد رقم واحد من فيلم (القبض على السر) تاريخ...

سُمع صوت طقطقة اللوحة بعد أن صرخ الشاب بالجميع... أكشـن....
اقتربت العربة التي تحمل مدير التصوير وهو يدس عينه بعدسة الكاميرا فوق رأس
مبارك وبومبارديلا قبل أن يقول القيصر...

- كل شيء هنا تمثيل... المخرج هناك يتحدث مع مساعديه.. حول المشهد الذي لا
يعلم عنه شيئاً لمجرد أنه تلقى شيكا بمليون دولار... الجميع هنا ينتظر مشهداً
سينمائياً... الحقيقي هنا هو نحن وما تصوره الكاميرا فوق رأسك أيها الصعلوك...
إذن... هلا أخبرتني بسرّك... يا صعلوك..

رفع مبارك يده وضمّ جميع أصابع كفه دون الإبهام قبل أن يبدأ بسرد خطة الذبابة
ويتفاجأ من كلماته التي تخرج من شفاهه قبل أن يفاجأ بها القيصر نفسه...

- وصفي بالصعلوك عدة مرات دليل على ارتفاع نسبة الأدرينالين يليه الإحساس
بالخوف أو الفرحة العارمة.. أظن أنها الفرحة بقرب موتك نيكولاس... أنظر الى
أصبعي هذا نيكولاس (الإبهام).. إنه إشارة النهاية.. إذا كنت تظن أن التعاقد مع
منظمات مجهولة سيسمح لك بسجني فأنت واهم.. لقد جنيت ثروة هائلة من

الدكتاتور مبالا بسبب فضولك الغبي يوم كان في استطاعتك قتلي.. لكن للأسف... أنفقت أكثر من نصفها من أجلك... وكما سمحت لك أموالك بتوظيف منظمات سرية لتختطفني كذلك فعلت أنا... لقد جلبت من أجلي ثلاث قناصين محترفين أيها القيصر وهذا يدل على عدم إحاطة بقدراتي.. دفعت أموالا عظيمة لكل الموظفين هنا... كل السياح والعشاق... حتى الشرطة... كل ذلك من أجل مسرحيتك... الكل يظن أنه فيلم... لكن السيناريو الذي ستقدمه للمخرج في هذا المشهد غير ممتع... سأقدم لهم فيلما به مشهد أجمل من مجرد اختطاف بئس لصعلوك مثلي.. إذا كان لديك أيها القيصر ثلاث قناصة فيؤسفني أن أخبرك أن معي خمسة وعشرون قناصا هم الأمهر بالعالم... نصيب الطلقة الواحدة من أسلحتهم الجدد متطورة اتجاه رأس كل المرتزقة خلفنا مليون دولار للقناص الواحد...

كما يؤسفني أن أخبرك بأن القناصة الثلاث انفجرت رؤوسهم لحظة أشرت بإبهامي قبل ثوان.. ولتأكد أنت هاته المرة... أنظر جيدا....

رفع مبارك السبابة بسرعة وبعد جزء من الثانية سُمع صوت آهات وصرخات خاطفة سقط بعدها كل المسلحين خلفهم أرضا، اقتربت كاميرا مدير التصوير من رؤوسهم المملوطة بالدماء بينما صفقت فجأة شابة تجلس مع عشيقها بحرارة لجمال المشهد قبل أن يكمل مبارك...

- اسمع يا نيكولاس... لقد بدأ التصفيق قبل أن ينتهي المشهد.. أظنك أخبرتهم أن لا يكفوا عن التصوير مهما حصل ومهما شاهدوا من غرائب.. انظر اليهم يصورون جنودك المرتزقة والابتسامة على محياهم من جمال المشهد.. أظن أننا انتهينا

نيكولاس.. بقي أن أرفع الأصبع الثالث لترحل إلى العالم الآخر وينتهي حزنك حيث ستجد كل الإجابات هناك...

وثب بومبارديلا من مكانه واضعا يده فوق الطاولة مخاطبا مبارك بنبرة حادة...
 - لا تفعل مبارك... لن تستفيد شيئا من قتله... كل شيء سيصبح ملكك الآن..
 سُمع ضحك القيصر من السماعات التي تترجم حركات عيونه بينما كان يُعبر بصوته الحقيقي عبر وجهه المشوه عن سعادته بما أخبره به مبارك قبل أن يقول...
 - شكرا أيها القيصر الأعظم... شكرا... لقد أثبت عن جد أنك تستحق اللقب.. بقي أن تفي بوعدك وتخبرني عن شرك قبل أن تأمر بقتلي.. لست بحاجة لأعرف تفاصيل التفافك على كل ما خططت له من أجل سجنك بالصندوق الزجاجي... أريد منك فقط أن تفي بوعدك وتخبرني بسررك كما اتفقنا مستر مبارك... يستحيل على كائن من كان أن يبلغ ما وصلت إليه من دقة في جلب الأخبار وذكاء وقوة دون مساعدة من طرف قوة عظيمة جبارة كالتي تقف بجانبك... يجب أن تفي بوعدك...
 همّ مبارك بالوقوف بينما صرخت الذبابة بقوة...

- تذكر مبارك... لا مكان للأخلاق في تعاملاتنا... لست مجبرا على المحافظة على وعدك.. ارفع إصبعك وأنهى الأمر مبارك... أنت على بعد حركة صغيرة لتصير ملك العالم... ارفع إصبعك مبارك... ارفع إصبعك وينتهي الأمر....

فكّر مبارك في لمح البصر بكل ما مرّ به منذ عرف الذبابة وكأنه قطار سريع يسير أمام أعينه، كان من بين ركابه العجوز التي قتل بالسم وخلفها مباشرة ثرية تنظر إليه من خلال نافذة القطار السريع وكأنها تلومه على جريمته وأيضا على الزج بها في هذا العالم العفن ثم رمق أصدقاء السجن الذين باعهم أحياء بعيونهم التي صارت عجائن

بيضاء كدليل على الموت البشع قبل أن يُسَهَم بنظرات ماتيلد السمين ورأسه التي يعلوها ثقب غائر على جبهته الملطخة بالدماء، ثم تلاه الدكتاتور مبالا بقبعته العسكرية منزوع الأعين وكأنه تعرض للانتقام فضيع من شعبه، ثم توجه بنظراته إلى القيصر الذي شفع له حزنه لدى مبارك...

قال محدثا نفسه أن هذا الكائن يستحق أن أفي بوعدتي له قبل أن يدفع بومبارديلا بقوة ويقترّب من الثقب حيث كانت تمتّ أذنٌ على رأس نيكولاس ماندي الحزين ثم يهمس إليها بالسر الذي مكنه منه والذي سيمكنه من العالم أجمع يوما ما...

طأطأ القيصر رأسه وهي ترتعد كطفل صغير يعاني من شدة البرد واقترب بدوره من شفتي مبارك ليسمع سره الرهيب الذي اختصره الصعلوك في كلمة واحدة قبل أن يطلق العنان للإصبع الثالث..

همس مبارك على مسامع القيصر قائلا.... إنها حشرة.

مرت ثوان لم تنطلق خلالها الرصاصة الموعودة نحو رأس القيصر أمام غضب مبارك والذبابة من تصرف بومبارديلا، لقد وقف الأخير حاجزا بينه وبين القناصة الذين تلقوا أمر قتل المُقعد على كرسيه المتحرك، تأكد مبارك أن المسن الوسيم لا زال يجب تلميذه الذي كان بمثابة ابن له يوما ما، صرخت الذبابة بمبارك ليزيح بومبارديلا عن طريق القناصة أمام ضحك القيصر الذي كان ينتظر موته متسائلا...

- لم أفهم عنك.. أنت مخلوق حقير... دعني أخبرك أيها القيصر الأعظم أنك لن تهنا بقتلي... إنها البداية فقط... لقد كنتُ مثلك يوما ما... ستمنى اليوم الذي تموت فيه دون أن تجد من يحقق لك أمنيتك.. سأودعك على وقع انتصاري... سأودعك على وقع ذكائي.....

أمسك مبارك بقميص بومبارديلا وسحبه اليه بقوة ليُخلي السبيل للقناصة وتظهر في الحال عشرات النقط الحمراء المضيئة بكامل البدلة البيضاء لنيكولاس المقعد، جزء من الثانية كان كافيا ليصير القيصر جثة حمراء مخرومة بعشرات الثقوب بعد أن ارتعشت وكأنها تعرضت لمس كهربائي عابر قبل أن يخرج من ثغره المشوه نفس دافئ يحمل روحا عاشت معذبة لسنين إلى أن جاء من يخلصها من عذاباتها وأحزانها.

التفت بومبارديلا نحو الجثة الهامدة ولاح في عيونه حزن عارم أمام نظرات مبارك القاسية، سُمع صوت عداد الكتروني أسفل الكرسي، ارتدى المسن الوسيم فجأة في حضن الصعلوك ودفعه بضعة أمتار إلى الخلف بعيدا عن كرسي نيكولاس الذي انفجر قبل أن ترميهم كتلة من اللهب بعيدا قرب السياح الذين هرعوا خائفين من هول الصدمة.

أزاح مبارك جسد بومبارديلا المغمى عليه قبل أن يقف ويعرج خطوات للخلف، اكتشف أن قوة الانفجار أثرت على أذنيه بحيث لم يعد يسمع تعليقات الذبابة، أحس بالآلام مُبرحة في ذراعيه، تلمس بيده الجروح على جبهته وعظمة خده وأنفه، لاحظ من خلال حروق بومبارديلا على ظهره وسائر جسده أنه أسوأ حالا منه بكثير، فهمم للتو أنه أنقذه من الهلاك وأن نيكولاس ماندي لم يكن يسمح بالهزيمة ولو على جثته، لم يكن في حاجة للذبابة لكي تخبره أنها لم تتمكن من كشف كل أوراق القيصر الذي قرر قتله بعد أن عرف أنه ميت لا محالة دون الحصول على جواب شافٍ، ورغم أنه لم يكن في استطاعته تلقي تعليقات الذبابة إلا أن التحركات التي تلت المشهد كانت تدل على أنها اتخذت كل الإجراءات لحمايته، طوّق عشرات من رجال القيصر الأعظم الجديد ميدان ترفيقي بالكامل فجأة ونزعوا كل الكاميرات والهواتف المحمولة من

الحاضرين، أحس مبارك بأن المهمة انتهت، ولأول مرة شعر فيها بالفعل أنه القيصر الأعظم كما وعدته الذبابة، ولو أن الأمور لم تسر على أكمل وجه ولكن المهمة تمت بنجاح، تم إخلاء المكان من آثار الفيلم السينمائي في دقائق ومنعت الأموال الطائلة التي أنفقت على مئات الشهود من التساؤل حول غرابة المشهد، تقدم مبارك من بومبارديلا الذي فتح عينه وغاص بهما في سحاب مدينة روما القطني وعلامات الحزن تعتري كيانه، كان مبارك يشاهد الدموع تنزل من على وجنتيه لشق طريقها بين دماء وجهه وجروحه، تقدم من مبارك رجل مسن طويل القامة، بملامح داكنة أقرب للحمرة يرتدي بدلة سوداء أنيقة بشارب محفوف رقيق فوق شفيتين كبيرتين وأنف عظيم قائلاً:

- يجب أن تغادر المكان مستر دكستر... سلمان خان في خدمتك سيدي...

التفت مبارك الذي عاد له سمعه على نغمات خادمه الجديد وتأكيدات الذبابة من صيحة زعمه وكلمات بومبارديلا التي كان يردد وهو طريح أرض نافورة ترفي...
 كرّر بدموع حارقة عبر شفتيه المرتعشة... وداعا نيكولاس.... وداعا نيكولاس...
 وداعا أيها الوغد.....

تبدأ الحرية حين ينتهي الجهل لأن منح الحرية لجاهل كمنح سلاح لمجنون...

فيكتور هيغو

الجزء الثاني

أنت حر

حطّت طائرة الهليكوبتر الخاصة بحديقة قصر إيفانا دالبور بالنمسا والتابع لمجموعة قصور نيكولاس ماندي أمام صفّين طويلين من الخدم والخدمات بأزيائهم الموحدة التي كانت ترفرف من تأثير المروحية العملاقة حيث كان الذكور يلبسون بنطلونات سوداء وقمصانا بيضاء تعلوها ربطة عنق الفراشة بينما كانت الإناث ترتدي سترات طويلة سوداء بأحزمة بيضاء مربوطة بإحكام فوق الحوض أسفلها جوارب طويلة وربطات عنق جميلة، تدلّى ببطء من جانب الهليكوبتر العظيمة سلّم طويل بعد أن اختفى هدير المروحية، نزل سلمان خان بخطوات ثابتة وهو يمسك بيد العجوز مالينا، وقفا على يمين السلم قبل أن ينزل المالك الجديد للقصر أمام نظرات الخدم الخاوية والتي كانت تتساءل في صمت عن القدر العجيب الذي مكّن صغير السن ذلك من أن يملك الدنيا، تلى نزول القيصر الجديد الحساء كاميليا ثم لاح للجميع كرسي متحرك يجلس عليه بومبارديلا تدفعه الجميلة ثرية، وبدى للجميع أنهم سكان القصر الجدد، تقدم سلمان خان من مبارك ليعرفه بأسماء الخدم ومهامهم قبل أن يشير إليه بالتوقف ويسلم عليهم فردا فردا بأسمائهم الثلاثية كاملة غير منقوصة أمام اندهاشهم، توقف أمام إحدى الخدمات الصغيرات بالسن وبعد أن سلم عليها باسمها أخبر سلمان خان بأن يوافق على طلب العطلة المفتوحة الذي تقدّمت به قبل أيام من أجل أن تطمئن على أخيها يوهان المريض والذي يرقد بمستشفى دوسلدورف بألمانيا، ثبت لسلمان خان والخدم أن مستر دكستر يستحق لقب القيصر قبل أن تطأ قدماه قصر نيكولاس، كان الحزن لا يزال مخبيا على وجه بومبارديلا بينما استحوذت الدهشة على ثرية وكاميليا بعد أن دخلوا قصر القيصر الأعظم.

فتح بابه الكبير حيث كانت خلفه نافورة مستديرة عميق مقسمة لثلاث مستويات جليلة الألوان والأرابيسك في قاعها بسبب نقاوة المياه التي تنفجر من خلالها، تقدمت ثرية أمام مبارك الذي انبهر بمسافة البهو الرخامي الهائلة أمامه والذي تحفُّه عشرات الأعمدة الرخامية ينعكس عليهم ضوء ثريات الكريستال الشاهقة والمليئة بشموع طويلة رسمت لوحة فنية فريدة، كان في أقصى البهو درجان لولبيان يلتقيان بالطابق الثاني للقصر حيث علقت صورة عملاقة لحساء جميلة بفستان أحمر تحمل بين يديها رضيعاً، نُحِت على سقف القصر بأكمله لوحة فنية خالدة بما مئات المحاربين المذرعين على أحصتهم يقاثلون بسيوفهم جماعات من البؤساء والفقراء بملابسهم البالية وأسماهم المقطعة وسط غبار كثيف بينما يعلوهم ملائكة بأجنحة ترمي الجنود بنبال فضية عبر أقواسهم الصغيرة، أمر مبارك سلمان خان أن يأخذ ثرية وكاميليا والجددة مالينا في جولة لباقي القصر الذي يضم أكثر من مائة وخمسين غرفة وعشرة حمامات سباحة مغطاة وثلاث بالحديقة الخلفية للقصر، ثم عاد مبارك نحو بومبارديلا ودفع الكرسي المتحرك إلى غرفة عظيمة على يمين البهو وكأنه صاحب القصر منذ زمن، كان بأقصى الغرفة كرسي ذهبي كبير أمامه مكتب فاخر خلفهم لوحة فنية عملاقة للكونت مونتي كارلو وعلى يمينها عمود ذهبي عملاق يحمل مئات الشموع، جلس مبارك على الكرسي، تحسَّس بيديه نعومة خشب السبستان الذي صنع منه عرشه، أغمض عينيه ثوان معدودة إلى أن بادره بومبارديلا بالحديث...

- أظنك مستر مبارك...

أوقفه مبارك في الحين مشيراً إليه بإصبعه قائلاً:

- أنا لست مستر مبارك.. أنا مستر دكستر.. لا وجود لمبارك بعد اليوم..

عاد بومبارديلا ليكمل حديثه دون أن يغادر الحزن ملامحه..

- أظنك مستر دكستر تعلم أني لست غيبا... سأخبرك بكل ما أعلم ولك كامل الحرية في اتخاذ الموقف الذي يناسبك..

لقد اختفى عنك (الشيء) الذي جعل منك ما أنت عليه الآن عندما استضافتنا العجوز مالينا.. وعاد ثلاثة أيام قبل أن نلتقي القيصر... لا أعلم ما هو.. ولكني تأكدت من أنه يفوق كل تصوراتي... إنه يغيرك تماما مستر دكستر... أنت في حضرته شخص آخر وعندما يغيب عنك فإنك تكون أنت كما أنت.. إنه يدفعك الآن دفعا لقتلي لأنه يظن أني أشكل خطرا عليك لأنني أعلم الكثير.. هذا ما لاحظته من خلال حركة عيونك.. المشكل الذي تعاني منه منذ خرجتُ من المستشفى هو أن ضميرك يرفض ذلك، أنت تتساءل مع (الشيء) حول الجدوى من قتلي وتقول كيف لهذا المقعد أن يشكل خطرا عليه، كما أن ضميرك سيأنبك كثيرا إذا ما قتلتي.. ستلوم نفسك بقية حياتك لأنك قتلت الشخص الذي أنقذك من الموت.. (الشيء) الذي يساعدك لم يتنبأ بالقنبلة التي كان يجبأ القيصر تحت كرسيه والتي كانت مرتبطة عبر آلة صغيرة بدقات قلبه، لقد كان القيصر أذكى من (الشيء) الذي يساعدك بحيث أنه جعل آخر ورقة هي أن تقتل نفسك بنفسك، عندما أمرتَ بقتل نيكولاس فلقد حكمت على نفسك بالموت.....

لقد تعرضتُ لشلل نصفي من أجلك مستر دكستر بعدما اخترقت إحدى شظايا الانفجار أسفل ظهري وأظن أن الشيء ما زال يطالب بقتلي رغم أنه تأكد من أني مصاب فعلا... سأفعل كما طلب منك نيكولاس... سأطلب منك أن تخبرني عن

ماهية ذلك (الشيء)... إن كان ولا بد لك من قتلي... أخبرني.. ما هو هذا الكائن الذي ينصت إلينا الآن؟

ما الذي يريده منك؟ لماذا أوصلك إلى كرسي القيصر؟ أنت تملك كل شيء الآن.. أنا أستاذ رياضيات مقعد ومسلم كما عهدتني... سلمان خان بجانبك لبقية حياتك ولن يخونك لأنه خلق من أجل أن يكون خادما وفيما... إنه ذكي جدا ووفي لحد لا يوصف، لولا صدفة لقاءك بالعجوز التي بحث عنها عشرات السنين لأنها ربته صغيرا لكنت في عداد الأموات، لقد أنقذك لأن نيكولاس أمر بتفجير الكنيسة رغم علمه بأن العجوز تقطن بها ومن حسن حظك أن سلمان خان فضل والدته على نيكولاس رغم وفائه اللامحدود... أنت تملك كل شيء مستر دكستر... بقي أن تخبرني قبل أن تتخلص مني...

ما هو ذلك الشيء الذي نصّبك على عرش القيصر؟

ما هو ذلك الشيء الذي يريد تغيير العالم؟

سمعت قعقعة خطوات سلمان خان على رخام البورتورو المعروف بالذهب الطبيعي وهو يتجه نحو مبارك قبل أن يستأذنه من أجل إخباره بشيء مهم...

- لقد ترك لك القيصر رسالة صوتية سيدي... هل ترغب بسماعها هنا أم لوحده؟ أشار إليه مبارك بالرغبة في سماعها وهو على كرسيه قبل أن يضع سلمان خان آلة صغيرة سوداء على المكتب الطويل ويضغط على زر صغير عليها بينما كان مبارك ينصت لتحذيرات الذبابة من مغبة ترك بومبارديلا على قيد الحياة...

- إذا سمحت لك الظروف بأن تسمع هذا التسجيل مستر مبارك فهذا دليل على أنك نفّذت ما وعدتني به أول مرة عندما سنحت لي فرصة قتلك بالطائرة.. لكن يبدو

أنك كنت السباق لذلك، ما دمت تسمع هذا التسجيل يسعدني أن أخبرك أنك انتصرت علي وأنت فعلا تستحق الدخول الى قصري، لقد تركت تسجيلاً صوتياً لصديقي العزيز سلمان خان أعتذر فيه عن قتلي لوالدته التي لطالما بحثنا عنها، ذلك أن القبض عليك تطلب مني الكثير من التوضيحات وأولها أستاذي بومبارديلا... أتمنى أن أعرف السر وراء قوتك يوم ألتقيك مستر مبارك وأن أموت على ذلك، فلطالما تساءلت عن كل شيء والحق أنني كنت أود سجنك من أجل الحصول على الأجوبة التي بحثت عنها منذ حللتُ ضيفا على هذه الدنيا، لقد وهبت لك كل ما أملك مستر مبارك لأنك تستحق ذلك، سلمان خان سيتكفل بكل الإجراءات اللازمة ليصبح كل شيء في ملكك قانونياً، كما أن بإمكانك أن تستأمنه على حياتك، إنه مخلوق وفي وصديق عظيم، بقي في جعبتي طلب واحد مستر مبارك وأتمنى أن لا ترفضه لي قبل أن أختتم وقد صار كل شيء في قبضتك... أتمنى أن تُلحق بي أستاذي بومبارديلا إلى حيث أنا الآن.. أنا لا أعلم يقيناً... ولكن قد يكون تمت عالم آخر ولن أجد أفضل من أستاذي كرفيق أسبح معه في بحار العوالم الأخرى...

أتمنى أن تصيبك لعنة الحزن وتختلج مع القوة التي تملك لتتمكن من تغيير العالم بشكل مبهر... تحياتي أيها القيصر الأعظم...

وقف مبارك وتوجه نحو مرآة كبيرة من خشب البوينجا حيث نحث عليه عشرات الولدان المجنّحين بأقواسهم وسهامهم الصغيرة التي تُطل من عليها نبال العشق، كان مبارك يتأمل ملامح وجهه الذي بدى عليه التعب والإرهاق من قلة النوم ومن الذبابة التي لا تكفُّ عن الحديث...

- لا تترك مشاعرك تتحكم بك مبارك... بومبارديلا يعلم عنك الكثير وهو يشكل خطرا كبيرا علينا.. رغم أنه مقعد إلا أنه ذكي للغاية... يجب قتله الآن مبارك... أدخل الرمز بالهاتف وسيتتهي الأمر فعلا...

دخلت الجميلة ثرية بخطوات متأنية واتجهت نحو بومبارديلا قبل أن تضع يدها على كتفيه وتنحني على كرسيه لتطمئن على أحواله وهي تهمس بأذنيه مبتسمة، كانت كاميليا تقف خلفها بعيدة بعشرات الأمتار بينما كان مبارك يراقب سكان القصر ويتذكر أنه قبل أسابيع معدودة كان صعلوكا يتحين الفرص لسرقة دريهمات قليلة، وها هي الآن حياة شخص متوقفة على إشارة منه وسعادة جارته المومس بالسطوح بين يديه، أمسكت بمقابض الكرسي المتحرك وعادت به خطوات الى الخلف، أشار إليها بومبارديلا لكي تتوقف ما دام القيصر الأعظم لم يوافق على بقائه حيا بعد، كانت تبريرات الذبابة مقنعة ومزعجة في نفس الوقت، بدأت ضربات قلبه تزداد سرعة لثواني أمام انتظار حُكمه من طرف بومبارديلا ونظرات ثرية المستغربة، أحسّت بأن المسن الوسيم ينتظر شيئا من مبارك المرتبك، تركت الكرسي المتحرك وتقدمت نحوه وهمست في أذنه بصوت خافت...

- مبارك... انتهى الأمر.. لقد نُفذت كل أوامر صديقك.. لا أسرار بعد اليوم.. لا دماء.. يكفي ما حصل بسببنا لحد الآن.. لقد حصل الجن على ما يريد ووصلت لمبتغاك..

عادت نحو بومبارديلا من جديد قبل أن تدفع الكرسي المتحرك ببطء نحو باب الغرفة وتسمع مبارك يأمرها بالتوقف، عادت أدراجها نحوه بوجه غاضب وقبل أن تتفوه بكلمة التفث القيصر الأعظم مخاطبا سلمان خان...

- أقدم لك الآنسة نسرين... إنها أميرة القصر... كل طلباتها تعتبر أوامري...

نادى على الحساء كاميليا في أقصى الغرفة لتتقدم نحوه قبل أن يمسك بيدها قائلاً:

- وهذه أميرة أخرى بالقصر... والدة مالينا أميرة أيضا وسأجعلها ملكة على أكبر

كنيسة بالعالم وهذا القعيد على الكرسي المتحرك صديقي.. ولا قتل بعد اليوم... ولا

دماء... لقد انتهى الأمر...

قاطعته بومبارديلا سائلاً..

- (والشيء) مستر دكستر... هل ستخبرني عن (الشيء)؟؟؟

رد مبارك وهو يسحب كاميليا من يدها خارج القاعة العظيمة....

- يوما ما... يوما ما صديقي بومبارديلا... من دواعي سروري أن نترك نيكولاس

ينتظر بالآخر...

صعدت ثرية رفقة بومبارديلا وكاميليا والعجوز مالينا حيث غرفهم التي جهزها

الخدم بناءً على أوامر سلمان خان، بينما تبع مبارك الذبابة الى غرفة نوم نيكولاس

ماندي، اكتشف القيصر الجديد معاناة الساكن القديم حيث كانت غرفته عبارة عن

قاعة إنعاش ورعاية المرضى بعد التخدير، كان بها سرير أبيض صغير على جنباته آلة

مراقبة ضربات القلب وضغط الدم وأخرى لقياس درجة الحرارة ومعدل التنفس،

على يمين السرير طاولة صغيرة بيضاء يصطفُ عليها عشرات من أنواع الحقن

والأنابيب والآلات الحادة التي تصلح لعمليات الجراحة الدقيقة ومقاومة الغثيان

والارتجاف والقيء أثناء الجراحة، وأخرى لوقف النزيف المفرط والتفريغ المخاطي

القيحي وخياطة الجروح، ضغط مبارك على زر أسفل سرير نيكولاس ليفتح باب

سري بالغرفة البيضاء الخاوية، أضاءت القاعة الصغيرة وأنارت بمجرد أن وضع

أقدامه داخلها، شاشات كبيرة مجتمعة شكلت دائرة عملاقة قبالة طاولة الكترونية كبيرة مليئة بالأزرار، خلفها مكتبة كبيرة تحتوي على آلاف الملفات الصفراء تحتها عشرات الأقراص الصلبة المنيرة والتي تشير على أنها مرتبطة بالشاشات والحاسوب العملاق أمامها، قالت الذبابة معلقة على المشهد...

- إنها غرفة نيكولاس يا مبارك... من هنا هددنا بطائراته في السماء عبر إحدى شركات بيع الأسلحة الأمريكية.. من هنا سرقت شيفراته... من هنا قرصنتُ تسجيلات الجنرال مبالا.. من هنا عرفت كل ما خطط له... هنا توجد كل أسرار نيكولاس... لقد بدلت مجهودا عظيما لأتمكن من الوصول اليه... خلفك يوجد تسجيلات لعشرات المئات من كل السياسيين بالعالم.. حتى الأحمق الذي يحكم البيت الأبيض الآن، يمكنك ابتزازه بما تملك هنا بالمكتبة خلفك... لقد وفيت بوعد مبارك وجعلت من الغول الصغير الذي كان صعلوكا أقوى رجل بالعالم... إنها هديتي لك مبارك.

أغلق الغرفة السرية وصعد إلى الحديقة الخلفية للقصر حيث طال جداله مع الذبابة حول بومبارديلا، رفض مبارك أن يقتل أي شخص بعد موت القيصر، لم يُفلح فورد في جعله يُغير رأيه رغم كل التبريرات ورغم أنه وفي بوعدة بأن يجعله القيصر الأعظم، بعد ساعات أمام الحديقة، بدأ الظلام يرخي بذيله حول القصر على بخار المياه الساخنة الصاعدة من المسبح الكبير الذي تحفه أضواء زرقاء وتنبعث من قاعه لتختفي في سماء غابات النمسا حيث ترقد تحفة نيكولاس المعمارية، القت الذبابة فورد على مسامع مبارك آخر تعليماتها التي يجب إرسالها عبر هاتفه ليقابلها بالرفض مرة أخرى، نادى على أحد الخدم وأمره بأن يبلغ الأميرة ثرية بالحضور في الحال، كان

الأمر يستغرق عندما كان يعيش مع ثرية بالسطوح ثانية واحدة وها هو يكتشف بعد ساعة في القصر أنه يحتاج مدة طويلة ووساطة إذا احتاج جارته من أجل كلمة أو استفسار.

أخبرها عندما حضرت أن الجني فورد يطلب منه كتابة بعض السطور على هاتفه باللغة الإنجليزية التي لا يفهم وأنه يريد أن يعرف محتوى الرسالة قبل أن يبعثها، لم يكن يرغب بأن يأمر بقتل بومبارديلا بدون علمه لكنه كان الطلب الأخير حسب قول الذبابة، أمسكت ثرية بالهاتف وبعد أن طالعت محتوى الرسالة قالت:

- إنها قائمة بأسماء عشرات الأشخاص... إنهم يحملون نفس الاسم العائلي.. يبدو أنهم أسرة والأوامر تفيد بقتلهم جميعا... ما بال هذا الجن مبارك... يجب أن تفرق عنه مبارك... كفاك قتلا... لقد فعلت كل ما طلبه منك إلى اليوم... أنت لست مجرما..

قال مبارك لنفسه أن ثرية مُحَقَّقة فعلا فيما ذكرت، فهو ليس مجرما ولم يكن مجرما يوما ما، ولكنها الظروف، إنها السبب وراء كل ضحاياه لحد الساعة، شكرها مبتسما وأخبرها أنه لن يقتل بعد اليوم وأنه سيفارق الجن المهووس بالقتل قبل أن يرافقها إلى مدخل القصر ويعود إلى خلوته.

- من هؤلاء يا فورد؟ ألم تقل أن الأمر انتهى؟

- نعم لقد انتهى الأمر إلى غير رجعة... لكن بومبارديلا نبهني إلى شيء لم أتمكن من رصده.. إنه السائح الإفريقي... إنه يشكل خطرا عليك... إن خطره علينا أكبر بآلاف المرات من خطر بومبارديلا... والأسماء التي كتبت على هاتفك هي لتلك العائلة اللعينة... يجب التخلص منهم جميعا... لن أطلب منك قتل بومبارديلا مرة

كن ما شئت... لقد انتهت مهمتك...

رغم أن الحديث سرّه في قرارة نفسه لكن الذبابة لم تُجبه على سؤاله الذي لطالما طلب منها الرد عليه، كما أنها باغتته بإمكانية أن ترفض ثرية الزواج منه، سألها وكلّه أمل أن تحبّه بحقيقتها وأيضاً سئل عن رد فعل ثرية جارتها...

- لم تجبني يا فورد عن سؤال الذي طرحت عدة مرات... من أنت.. وما الذي تسعى إليه؟ ولماذا تظن أن ثرية يمكن أن ترفضني كزوج؟

سمع مبارك ردّ الذبابة الأخير قبل أن تختفي عن مسامعه لمدة لم تخطر على باله.
- مبارك... بالنسبة لثرية أظنك أطفأت شمعتها يوم لم تتمالك نفسك أمام جمال الأنثى كاميليا، تغيرت مشاعرها كلياً تجاهك بسبب غبائها العاطفي، تماماً كما فعل بك غباءك الذكوري، وأظن أنك تفوقت عليها في نسبة الغباء لدرجة أنك لم تلاحظ أنها لم تعد ترغب في البقاء جنبك، لقد نفذت أمرك كسكرتيرة تعمل بالأجرة.. أسدت لك نصيحة وغادرت بسرعة نحو القصر لتتسامر مع بومبارديلا، لقد دمرت ذلك الشيء الذي يمنح القوة للأنثى ويجعلها تقدم حياتها قرباناً للذكر... استيقظ من غباءك مبارك... أدرس.. تعلم.. اقرأ.. حاول أن تفهم العالم... أما فيما يخصني.. فلقد أخبرتك منذ اليوم الأول أنني سأبوح لك بمرادي يوم أتأكد من استعدادك... سأخبرك بمن أنا يوم أعلم أنك صرت أهلاً للجواب... سأخبرك يوم تنضج وتكتمل كما أريدك... لن تضطر للسؤال ساعتها... بل أنا من سيأخذ بيدك إلى العالم الجديد... العالم الذي ستحقق فيه كل أمنياتك التي لم تجرباً عليها حتى في أجمل أحلامك....

أمّا الآن... وكما سبق وأخبرتك... أنت —————

يستطيع الكذب أن يدور حول الأرض في انتظار أن تلبس الحقيقة حذاءها.....

مارك توين

وداعا موناليزا

استيقظ جورج على قبالات ساخنة من حبيبته ساندرنا بينما كان صوت ابنته كاثلين مع كلبها ماكس يملأ جنبات الحديقة التي تطل عليها غرفته، عانق ساندرنا بقوة لينفجر شوقه المضطرب لجسدها الملتهب، أدخل أنفه داخل صدرها لتدغدغ حواسه رائحة عطرها الأخاذ، دفعته ضاحكة وحاولت أن تبتعد عنه قبل أن يمسك بالروب الأحمر الذي يبرز مفاتها الصارخة، وضع يده على شعرها الأسود الناعم المسترسل وقبّل عيونها الواسعة الساحرة ثم التقم شفيتها المكتنزة الشهية، احتضنته بدورها وهمست وهي تداعب أذنه بشفتيها...

- مبروك يا حبيبي.. ألف مبروك..

أغمض جورج عينيه انشأاً بمحبوبته ثم فتحها ببطء قبل أن يُقبّل يدها البضة الناعمة والمدهونة بالكريم، تحسّس خدّها الأسيل والذي يشوبه احمرار لطيف ثم عانقها مرة أخرى قائلاً...

- انتظر عودتي الليلة بفارغ الصبر.. لولا الموعد مع الرئيس لما تركت كل هذا الحب.. ابتسمت ساندرنا وأخبرته أنها بدورها مشتاقة لحلول الليل وأنها ستنتظره بالروب الأسود المرقط الذي يعشق كثيراً، ولكنه سيتأخر على مواعده مع الرئيس إذا ما ظل بفراشه دقائق أخرى، دخلت كاثلين فجأة تركض قبل أن ترتمي بحضن والدها بينما كان كلبها ماكس يلهم خلفها معبراً عن سعادته بذيله اللطيف، أمسكت ساندرنا بيدها وأخرجتها من الغرفة وهي تخبرها أن عليهم الخروج للتسوق وترك أبيها يجهز نفسه للقاء الرئيس.

وقف جورج عاريا يطلع على نفسه بالحمام أمام المرأة، قال لنفسه وهو يمشط شعره الأشقر الطويل ويغسل وجهه الناصع ويحَقِّف صدره المصقول المربع وعضلات بطنه المحدودة وذراعه القوية بأنه أكثر الناس حظا في هذا العالم.

بعد مرور ساعة من الزمن كان جورج فلوير جاهزا للخروج الى لقاء الرئيس، أطل من غرفته على الحديقة وشاهد ساندرا رفقة ابنته كاثي وهي تفتح الباب الخلفي لسيارة الرينج روفر مع سائق العائلة، نزل الدرج الزجاجي الملولب المؤدي الى باب الفيلا الذي فُتح اوتوماتيكيا بواسطة بصمته، فتح مستودع سيارته بالمربأ واختار من بينهم الكرايزلر التي اقتنى العام الماضي في المعرض الدولي للسيارات في باريس. على أبواب متحف اللوفر قرب هرم أي ام باي كان مئات الصحفيين يتأهبون لأخذ صور فوتوغرافية للفنان العالمي جورج فلوير حيث سيقدم آخر إبداعاته اليوم أمام الرئيس الأمريكي الذي حضر خصيصا من الولايات المتحدة الأمريكية لمشاهدة التحفة الفنية التي رسم المبدع الأمريكي الجنسية والذي يعيش بباريس رفقة زوجته وابنته الوحيدة، لم يكن جورج يسمح بالاطلاع على أعماله سوى في الافتتاحيات العالمية حيث يتم اكتشاف العمل الإبداعي من طرف الجميع في آن واحد.

كانت صالة عرض اللوحة مليئة عن آخرها بدبلوماسيين ورجال أعمال وفنانين وكتاب وصحفيين من شتى أنحاء العالم، كل الكراسي كانت محجوزة ولم يتبق سوى ثلاث خصصوا للرئيس الفرنسي والأمريكي ثم كرسي الفنان العملاق والذي أجمع العالم على عبقريته، دخل جورج فلوير على صوت تصفيقات الحضور الحارة وهو يلوح يديه للجميع قبل أن يسلم على الرئيسين اللذان وقفا احتراما له وتقديرا لما

قدمه من أعمال سيسجلها التاريخ على أنها تحف خالدة انظمت دون أدنى شك لأعمال ليوناردو دافنشي ومايكل انجلو وبابلو بيكاسو وتيتيان وفان جوخ. كانت اللوحة في أقصى القاعة قبالة الحضور مغطاة بإزار أبيض ناعم الملمس، اقترب مدير متحف اللوفر لويس بيرن من اللوحة قبل أن تنطفأ أضواء الصالة ويجلس الجميع لمشاهدة لوحة جورج فلووير الأخيرة، عم الصمت القاعة وحُبست أنفاس الجميع أمام اللحظة التاريخية قبل أن يسحب لويس بيرن الإزار وتنفجر القاعة بتصفيق حار دام لدقائق أمام التحفة التي يشاهدها العالم في بث مباشر بكل قنوات العالم واليوتيوب وكل وسائل التواصل الاجتماعي، إنها لحظة تاريخية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لدرجة أن الرئيس الأمريكي أخبر جورج فلووير أن اللوحة تهدد عرش لوحة الموناليزا بكل تأكيد.

اقترب الرئيس الأمريكي من اللوحة العملاقة حيث رسم جورج فلووير امرأة عجوز في بيت مظلم تفتش الأرض، كانت تفاصيل تجاعيدها الشاحبة مرسومة بدقة رهيبه كما أن عيونها كانت مفتوحة عن آخرها ومتنفخة بشكل مرعب، اختفت فزحياتها خلف جفونها تاركة المكان للون الأبيض كعنوان للموت، مهارة جورج كانت واضحة حيث لم يهمل أدق الشنايا بيديها المعروقة المتشنجة ذات اللون الأزرق الداكن والسواد العميق بثغرها المفتوح الذي يدل على أن الروح خرجت منه غنوة، كانت طيات عباءتها الرثة الخشنة توحى بالفقر المدقع والشحاة وتدل على عبقرية الرسام الذي لم تنسى ريشته كل تفاصيل الغرفة، التفت الرئيس وشدّ على يد جورج فلووير قائلاً:

- أنت عبقرى مستر جورج... لا ينقص هذه التحفة الخالدة سوى أن تنطق لتخبرنا بالموت الذى ينتظرنا جميعا... لوحتك تجعل المرء يوقن أن هاته العجوز ماتت مسمومة دون أى إشارة إليه... وكأنك تريد أن نخبرنا أن هاته الحياة سمّ قاتل لا محالة وأننا فقراء شحاتون مهما بلغنا من مراتب ومهما عظم شأننا... هل لك أن نخبرنا باسم لوحتك الخالدة مستر جورج..

ابتسم جورج فلوير شاكر الرئيس الأمريكى على إطرائه قبل أن يختم...
- اسم اللوحة سيدي الرئيس لم أحده...

صمت لثواني معدودة ثم ارتسمت على ملامح وجهة الناصع البياض ابتسامة جميلة، فرك شعره الأشقر الطويل الناعم ثم قال:
أظن أنى سأسميها باسم العجوز نفسها...

وضع الرئيس الأمريكى يده على كتف المبدع وسأل من جديد باحترام وتقدير...
- وما اسم العجوز مستر جورج؟

- أظن أن اسمها (مماس) ... مماس سيدي الرئيس...

يمكن للإنسان أن يصعد أعلى القمم لكن لا يمكنه البقاء فيها طويلا.....

جورج برنارد شو

عالم جديد

اختفى صوت الذبابة فورد عن مسامع مبارك الذي استيقظ صبيحة أول يوم وهو يملك ثروة ونفوذ نيكولاس، كانت أول ليلة ينام فيها قرير العين بعد شهور من الأعصاب المشدودة والدماء الكثيرة التي أهرقت بسببه، كانت ليلة جميلة رفيقة كاميليا، أجمل امرأة بالكون، وقف أمام مرآة الحمام يحدق بجسمه الهزيل ووجهه المشروط وقال في نفسه أن القيصر يجب أن يكون غير هذا الشاب الذي حولته الظروف والفقر الى مسخ، جلب سلمان خان إلى قصره تنفيذا لأوامره فريقا طبيا مختصا في عمليات التجميل هو الأكفأ في العالم، تمت دراسة حالة مستر دكستر ومساعدته نسرين من قبل البروفيسور جوردان أكبر استشاري في جراحة التجميل والترميم بإنجلترا، حيث قرر إجراء عملية ترميم وجه مبارك بأحدث التقنيات التي توصل إليها علم الجراحة في لندن وأيضا وعد نسرين بإعادة حاسة السمع لأذنها اليسرى بعد أن فقدت الأمل في ذلك، لم يسمح مبارك بأن يرافقه بومبارديلا رغم الحاح ثرية التي أصبحت تمضي معظم وقتها معه لتنصت لحكاياته وفهمه للعالم، بينما كان يمضي مبارك معظم وقته مع كاميليا التي رافقتهم الى لندن لإجراء العمليات الجراحية، استغرق مقامهم في لندن ثلاثة أشهر أجرى فيهم مبارك أربع عمليات جراحية ترميمية بينما احتاجت ثرية لعملية واحدة كانت كافية بأن يعود إليها سمعها تدريجيا.

وعاد القيصر الجديد إلى قصره بالنمسا بعد شهور من الغياب بوجه آخر لا يحتاج لمساحيق تساعد على إخفاء الشوارع على وجهه واكتشفت ثرية وكاميليا أنه كان وسيما ولكن الحياة غطت بقسوتها كل حرف من ملامحه وجعلته كائنا غير الذي كان

ينبغي أن يكون، وبعد مرور أشهر أخرى على عمليات التجميل بدأ الملل يصيب قلب مبارك وثرية وأحسا معا وكأن الخوف ما زال مسيطرا عليهم جراء الأحداث السابقة، وكأن شيئا ما كان يمنهم من الاستمتاع بالحياة، تذكر مبارك ما مرة جملة الذبابة الأخيرة بأنه حر وأن بإمكانه أن يفعل ما يشاء متى يشاء، لقد اختفى خطر نيكولاس وكيثو، إذا ما الذي يمنعه من أن يستمتع بحياته كما قالت الذبابة، قالها يوما بينما كانت كاميليا تغوص بحمام السباحة شبه عارية بالحديقة الكبيرة بينما كانت ثرية تساعد بومبارديلا على شرب دواء الصباحي على كرسيه المتحرك...

- ما الذي فعله هنا ثرية؟ لماذا لا نسافر؟

كانت ثرية تطرح نفس السؤال على بومبارديلا الذي أكد لها أن جواب السؤال لا يملكه غيرها، نعم... لماذا لا تستمتع بالحياة وقد صارت غنية مع جارها الصعلوك، أليس هذا ما كانت تحلم به... أليس هذا ما سعت إليه... أليس هذا ما خاطرت بنفسها من أجله، أم أنها قرّت من عالمها بحثا عن شيء آخر... أجابت...

- أظن أنه الخوف مبارك... ما وصلنا إليه لم نكن نستحقه... لو كان الطريق الذي سيوصلنا لهذا الثراء طبيعيا لكنت أنا من اقترحت عليك الاستمتاع بكل هذه الأموال... ولكننا وصلنا هنا فوق جثث كثيرة... أنا لا أستطيع أن أشاهد التلفاز أو تصفح الأنترنت مغبة أن أشاهد أخبار الحرب الأهلية التي شبت في كوغندا وصور الضحايا وأشلاء الجثث والأطفال المهجرين واللاجئين... هل تظن أنني لم أفكر بالأمر... أظن أن هذا ما جعلك تركز في قصرك أيضا...

رفع بومبارديلا يده السليمة ببطء ووضعها على رأس ثرية ثم نظر إلى مبارك قائلاً:

- هذا دليل على أنكم تملكون ضميراً مهما غلب عليه الشر والرغبة والتوحش... إلا أنه لا زال مستيقظاً فطنا يرفض أن يهجر صدوركم... حاولوا أن ترموا الماضي خلف ظهوركم واستمتعوا بالحياة فإنها قصيرة جداً...

ابتسم مبارك ضاحكاً من قول بومبارديلا...

- لقد صدق الكهل ثرية... يجب أن نبدأ من جديد وننسى كل ما حصل..

ابتسمت ثرية من كلام المسن الوسيم وأحست بدفع يده على شعرها قبل أن تقف وتعود الى غرفتها لجلب كتاب الجريمة والعقاب لدوستويفسكي الذي كانت تود مناقشة بعض أفكاره مع بومبارديلا، التفت مبارك إليه قائلاً:

- لا تنسى اتفاقنا مستر بومبارديلا... لا تخبر ثرية عن العجوز أو الصندوق الخشبي في أقصى الحديقة... كل من في القصر يظنون أنه كلب مسعور... أنت الوحيد الذي يعلم محتواه... لا تخذلني صديقي... هل ترغب في مرافقتنا؟

ابتسم بومبارديلا ثم اشتد به سعال حاد طويل قبل أن يجيب...

- أنا مجرد كهل مشلول... سأفقد عليكم متعتكم...

- لا تقل ذلك صديقي... سأكون سعيداً بمرافقتك لنا.. كما أن ثرية لن ترغب في السفر بدون حضورك... لقد أصبحت المتنفس الوحيد لجارتي الطيبة... أكاد أجزم أنها أصبحت تحبك يا هذا... فأنت تسحرها بخزعبلاتك.. لقد أصبحت متعتها الوحيدة.. وكل ما يسعدها يقينا سيسعدني... حتى لو كنت أنت...

في اليوم التالي غادرت الطائرة الخاصة بمبارك مطار فيينا متجهة الى سريلانكا كأول وجهة سياحية اختارتها ثرية حيث حققت أولى امنياتها عندما حطت أقدامها مطار بندار أنايكا، لطالما شاهدت سحر تلك البلاد على الأنترنت وها هي تشاهد بأم عينها

منطقة البازار وتتسوق كل ما تقع عيونها عليه من تحف فنية يدوية رائعة وأحجار كريمة ومجوهرات غالية قبل أن تزور رفقة بومبارديلا الحدائق النباتية الملكية بينما كان مبارك يسترخي رفقة كاميليا على شواطئها الخلابة، زارت حديقة أيتام الأفيال وبحيرة كاندي وتجولت على ضفافها قابضة على الكرسي المتحرك تتسامر مع صديقها المقعد، شاهدت عروض ثقافية وتعرفت على تقاليد غريبة، زارت حدائق نباتية رائعة بها أجمل وأغرب أنواع النباتات في العالم، اكتشفت مزارع الفراولة وسهول هورتون حيث البحيرات الجميلة والشلالات المذهلة والمراعي البرية، كان الجميع يعودون مرهقين الى الجناح الملكي بفندقهم الخمس نجوم بمدينة نورا ليا، استمتعت بشلالات ايلاروانا وزارت قمة ايلاروك واستمتعت بأجمل الإطلالات بالعالم، قضت أسابيع بشواطئ مدينة بيتوتوتا، كانت تشاهد مبارك يتعلم ركوب الأمواج والغوص مع كاميليا وهما يضحكان ويتعانقان قبل أن يُخفيا تحت المياه العذبة النقية، لم تُفوّت ثرية زيارة العاصمة كولومبو التاريخية وشواطئ جبل لافينيا حيث النسائم العليلة وكل ما تشتهيه النفس من وسائل ترفيهية، كانت تحتّم أغلب الليالي في حفلات موسيقية على نغمات فلكروية متنوعة حيث انفجرت عبرها الرغبة بالرقص رفقة بومبارديلا المقعد، كانت جل تحركاتهم تتم تحت حراسة مشددة من طرف فرق تأمين مخصصة تكتب تقارير يومية في كل لحظة لخدام القيصرا الأعظم سلمان خان، اكتشفت متحف سيريلانكا الوطني وتعرفت على تاريخ البلاد الذي كان يسرده على مسامعها بومبارديلا وكأنه مرشدها السياحي، اقتنت مئات الهدايا من أسواقها الشعبية الجميلة لكل الخدم بقصرها في النمسا، مرت عشرة أيام حاملة في بلد تخيلت أنه أجمل بلد في العالم قبل أن يقترح مبارك على الجميع السفر الى الهند، وكما كانت

سيريلانكا الوجهة التي كانت تحلم بها ثرية فإن الهند كانت الوجهة التي لطالما حلم أن يزورها مبارك، كان متنفسه الفني بمدينة آسفي بعد الخمر والحشيش هي السينما الهندية حيث كان يشاهد رفقة صديقه عاطف أفلام الممثل الشهير شاروخان، لقد حلم طويلا بزيارة الهند لكن لم يخطر بباله أنه سيزورها يوما وفي جعبته كل تلك الأموال والحرس والنفوذ والسلطة، وليست الأحلام كالواقع، بل من المستحيل أن يتطابقان حيث أن أحدهما ينتصر دائما، لم تكن الهند كما تخيلها مبارك أو كما صوروها له في أفلامهم التجارية، بل كان بلدا عظيما وشعبا عظيما غير المعاقين الذين لطالما عشقهم في السينما، فهم ذلك عندما شاهد تحفة ضريح تاج محل بمدينة أغرا وبنيتها العريقة والآثار الضاربة في عمق التاريخ، عرف أن السينما تكذب حينما تصور الشعب الهندي بتلك السخافة وأن الحقيقة مغايرة لكل الأكاذيب، اكتشف قلعة أغرا الحمراء ومسجد تشارمينار في حيدر آباد والحدائق الخلابة والقصور العجيبة ذات العمار الإسلامية، اكتشف مومباي موطن صناعة الغباء الذي يحتل العرب المرتبة الأولى في استهلاكه على صعيد العالم، تجول رفقة كاميليا وثرية بشواطئ تشوباتي وجوهو، زار ضريح هومايون نيودلهي والقلعة الحمراء المطلّة على ضفة نهر يامونا الرائعة، تجول بالمعابد الهندوسية المقدسة جنبا الى جنب مع الأضرحة والمباني الإسلامية وكأنهم متحف حي للأديان وتعارف الحضارات، زار متحف غاندي والمعابد المقدسة في تشيناي حيث الإبداع المعماري الأصيل، حضر مهرجانات موسيقية وثقافية لم يخطر على باله يوما أنها موجودة على الكوكب، لعب مع كاميليا في ملاهي وندرلاند التي لم تستطع ثرية أيضا أن تمنع نفسها من اللعب وإدخال البهجة والسرور إلى قلب المسن الوسيم بومبارديلا، تجولوا بكل متاحف الهند العلمية،

سافروا الى مدينة كوتشي السياحية واكتشفوا كل الجزر الخلابة عبر يخت يساوي ملايين الدولارات اشتراه مبارك بكلمة، بقي اليخت راسيا أسابيع طويلة أمام جزيرة بولغاتي وشهرين متتاليين أمام روعة جزيرة جوندو حيث كانت السباحة والغوص هما الهواية المفضلة لمبارك وكاميليا بينما كانت ثرية تقضي يومها في مناقشة بومبارديلا أفكاره وفلسفاته وكأنها تحمل معها مدرسة فلسفية متحركة، ثم زاروا شلالات سوجيارا في وايناد واكتشفوا محمياتها الطبيعية الخلابة وحقول الأرز على ظهور فيلة عظيمة في مشهب مهيب قرب البحيرات الجميلة الطبيعية الخلابة، أمضوا بعدها ثلاثة أشهر في شواطئ غوا الساحرة ذات المياه النقية الصافية وأجوائها الليلية الصاخبة، كانت تنتهي غالبا بليلالي حمراء تحت وقع أجود الخمور العالمية وأغلاها، زاروا حقول الشاي في دارجيلنغ حيث الأجواء الرومنسية والشاعرية تحت ضوء آلاف الشموع بجناحهم الملكي، ارتحلوا بعد عشرة أيام إلى مدينة شيملا الساحرة قرب جبال الهمالايا ثم معابد بيون بحدائقهم الرائعة ذات النوافير الجميلة، ثم حديقة الصخور في تشانديكار حيث تخلد تماثيل عبارة عن تحف فنية نادرة قرب محميات طبيعية بما مئات أنواع الطيور والحيوانات قبل أن يزوروا قصر الماء في جايبور المدينة الوردية، دهش مبارك من جمال القصور والحصون المهيبة والساحرة التي تأخذ الأبواب ببهرجتها وزينتها وزركشاتها التي تعكس الثراء الفاحش الذي عاشه عمارها قديما، اندهش أيضا من حجم الزوار الذين يحجون إلى نهر الغانج المقدس، كما صدمت ثرية عندما أخبرها بومبارديلا في مدينة الله آباد أن حج كومبه ميلا الهندوسي الذي يحدث أربع مرات كل اثني عشرة سنة ويتنقل بين أربعة مواقع يحضره أكثر من خمسة وعشرون مليون إنسان من جميع أنحاء العالم ليعتبر بذلك أكبر حج ديني يحدث في

التاريخ البشري، لم يكن يعلم مبارك أن الهند تمتلك أيضا منتجعا للتزلج الذي تعشق الحسنة كاميليا والتي تحسن حالها ونسيت زوجها الذي باعها يوما في سوق نخاسته، لقد أصبحت أكثر إشراقا وأكثر جمالا من ذي قبل، استمر مقامهم بالمنتجع أربعين يوما، قبل العودة الى قصرهم بالنمسا لينعموا بالراحة شهورا أخرى كانت كافية لتشحنهم طاقة ورغبة في السفر من جديد، كان سلمان خان يتكلف بكل رغبات مبارك كما أخبرته الذبابة، أصر لرد جميله أن يبني كنيسة للأمم مالينا في أي مكان ترغب به وبأي تكلفة لكنها رفضت أن يُبنى بيت الرب من أموال القيصر الأعظم التي لا تعلم مصدرها، كانت ترغب فقط في العيش قرب ابنها الذي فقدته صغيرا قبل أن تجمعهم أقدار الرب حسب قولها.

في صباح هادئ بينما كانت كاميليا تستمتع بحمام الشمس الدافئ ببايو أسود أنيق من قطعتين فوق الأريكة البيضاء الناعمة أخرج مبارك رأسه من مياه المسيح الزرقاء مبتسما، وقبل أن يدعو الحسنة الرشيق لتلحق به تحت الماء سمع صوت الذبابة تخاطبه..

- أرى أنك نفذت وصيتي بالحرف أيها القيصر الأعظم...

عادت الذبابة بعد شهور من غيابها عن مسامعه، أحس بظلمة شديدة تختلجه عندما سمع صوتها، لقد نسيها ونسي الدماء الكثيرة التي واكبت الحشرة أينما حلت، كان يفكر في مضاجعة عشيقته قبل أن تنطفأ شعلته، خرج من المسيح بسرعة، شعرت كاميليا بارتباك وغضب مبارك عندما سحب فوطته بعنف من على أريكته، ابتعد عنها بخطوات حزينة أمام بومبارديلا المقعد الذي كان يقرأ كتابا في الجانب الآخر من

المسبح تحت شمسية عظيمة، تصلب بعيدا قرب سور القصر وكأنه ينصت لشيطان
مارد ألم به...

- أرى أنك غير سعيد بعودتي مبارك... لن أزعجك أيها القيصر الأعظم.. أحتاج
فقط أن تبعث ببعض المال لجمعية خيرية وسأنصرف عنك وأتركك تستمتع بحياتك
الجديدة كما وعدتك...

لم يجب مبارك الذبابة، أحس لحظتها أنه في حاجة لثروة لتطلع على رغبات الذبابة قبل
أن ينفذها، لقد أصبح صوت الذبابة مزعجا بشكل لا يطاق، تذكر يوم سمعها أول
مرة ذلك الإحساس الخبيث بالجهل والضعف، هرول لغرفتها حيث كانت تستعد
للخروج رفقة بومبارديلا للتسوق في أحد مولات فيينا، وبعد أن أخبرها بعودة الجن
فورد شاركت مبارك نفس الإحساس الكريه قبل أن تغتم هي أيضا وكأن مصيبة
حلت بهم...

- ما الذي يريده ذلك الملعون... لا تنفذ شيئا من أوامره...

- مستحيل ثرية... كل ما ننعم به هو من صنيعه... كما أنه أخبرني أن أرسل فقط
بعض المال لجمعية خيرية لمصابي السرطان... ستكتبن التحويل بنفسك وتتأكدن
منه قبل أن ترسله ثرية... لا يمكن أن أخبر سلمان خان بالأمر... من المفروض أني
أعلم ما أفعل... سيكتشف سلمان أني جاهل ولست بالقيصر الذي أدعيه إن سألته
سؤالا كهذا

أمسكت ثرية هاتفها بينما كان مبارك يملي عليها حروف اسم الجمعية ومبلغ التحويل
قبل أن تبحث عنها في الأنترنت، اكتشفت أنها فعلا جمعية خيرية شهيرة لمحاربة داء

السرطان وأن مقرها في طوكيو، لكنها تفاجأت من هول المبلغ الذي طلبت الذبابة تحويله...

- إنها تطلب تحويل عشرين مليون دولار مبارك.. هل يعقل أن تحتاج جمعية خيرية هذا المبلغ؟

- ليس هذا فحسب ثرية... الجن فورد طلب مني أن يتم تحويل هذا المبلغ شهريا للأبد... إنه يخبرني أنه آخر طلب وأنه لن يعود ما دام التحويل مستمرا... هل إذا أرسلنا التحويل سيختفي الجن للأبد؟

- إنه يخبرني أنه لن يعود إلا إذا احتجته... وما دام التحويل مستمرا فإنه سيختفي دون رجعة.. ستتكفلين بأمر التحويلات ثرية... لم تعد لي طاقة لتحمل صوت الجن.. وأظن أنك أيضا لا تطيقين حضوره...

حولت ثرية المبلغ على الحساب الذي أملتة عليها الذبابة قبل أن يسمع مبارك صوتها للمرة الأخيرة...

- استمتع بأموالك وقوتك مبارك... ما زال أمامك الكثير لتكتشفه... ستجدي متى احتجتني أيها الغول العظيم...

ولأول مرة أحس مبارك بحاجته لمعانقة ثرية، لقد شعر برابطة قوية تجمعهما حيث أنها كانت فعليا ملجأه الحقيقي والوحيد، لكنه رغم حاجته لمعانقتها لم يفعل، قال مبتسما...

- لقد كانت الشهور الماضية رائعة جعلتنا ننسى الرعب الذي مررنا به... ما رأيك ثرية بالسفر سويا الى حيث ترغيبين... فقط نحن...

طأطأت ثرية رأسها وكأنها استحت من أن تجربها برفضها للدعوة، لقد دمر مبارك ما كانت تحس به يوم ارتقى في حضن امرأة أخرى، كما أنها الآن لا ترغب في أي علاقة حيث كانت جلساتها مع المسن بومبارديلا كافية لتسقيها من كأس الحاجة لمن يستمع إليها بحب ويخفف عنها همومها، فهم مبارك أنها رفضت دعوته من عيونها الكبيرة وتذكر يوم وصفته الذبابة بالغباء الذكوري، لم يتمالك نفسه قبل أن يعانقها ويقبلها على جبينها مرة أخرى، أراد أن يثبت لها أن لها مكانة خاصة بين كل المحيطين به، تركها وخرج الى حيث كانت كاميليا تنتظره، اختفت الذبابة عنهم خمسة عشر سنة، المدة التي كان يتم فيها تحويل تلك الأموال الطائلة الى جمعية مصابي السرطان...

اختفت الذبابة السرطانية بعدما تأكدت من أنها صارت على بعد خطوة واحدة من تغيير العالم.

لا خير في حياة يحياها المرء بغير قلب ولا خير في قلب يخفق بغير حب....

مصطفى لطفي المنفلوطي

المتنبى

رن جرس الباب بينما كانت ساندرا تعد وجبة الغذاء والسلطة التي يعشق زوجها جورج في المطبخ الأمريكي الفسيح، اقتربت من الشاشة الكبيرة قرب الثلاجة الفخمة السوداء لتتعرف على الضيف وهي تطالع مذكرة مواعيد زوجها على لوحها الالكترونية، لقد نسيت زيارة العميد توفيق تماما والذي تقدم بطلب لقاء جورج فلوبير قبل أسبوع، أمرت الخادمة المكسيكية روز أن تقود الضيف إلى الصالة الكبيرة حيث يستقبل جورج ضيوفه من الهيئات الدبلوماسية ومراسلي القنوات والصحفيين الذين يزورونه باستمرار من أجل مقابلات رسمية ولقاءات تلفزيونية، وقف العميد توفيق بباب الصالة منتظرا جورج قبل أن تستقبله ساندرا بابتسامتها الرقيقة، جلس على أريكة جلدية حمراء طويلة يحفها إطار خشب التنوب، كانت قبالة شاشة عملاقة على الحائط أسفلها مكتبة منجدة بالجلد يحيط بها حزام أصفر براق ومدفأة بيضاء قربها قضبان حديدية عليها مزهرية مستديرة سوداء، وضع نظاراته فوق الطاولة الزجاجية الصغيرة قربها، أخرج من جيبه ظرفا أصفرا صغيرا وبدأ يجول ببصره ويطلع على أناقة بيت الفنان العالمي جورج فلوبير، كانت جدران الصالة مغطاة عن آخرها بلوحات فنية جميلة ومختلفة، سمع صوت أقدام على الدرج الزجاجي اللامع قبل أن يقف العميد توفيق ببذلة السوداء الأنيقة، أمسك بربطة عنقه بطرف أصابعه وحركها يمينا ويسارا قصد تعديلها..

- مرحبا بك عميد توفيق بفرنسا... اعذرنى على التأخير ولكني كنت منهمكا في عملي قبل أن تذكرني ساندرا بموعدنا... مرحبا..

- سعيد جدا بلقائك مستر جورج... لي الشرف أن أقابل أعظم فنان تشكيلي أنجبه العصر الحديث.. لقد انتظرت هذا اللقاء بفارغ الصبر... أشكرك كثيرا على استقبالي رغم أنني لم أكن أرغب بمقابلتك في مثل هاته الظروف... أعذر منك كثيرا...
 - بل عميد توفيق... لا تقل هذا... أنا سعيد بلقائك مهما كانت الظروف...
 - شكرا مستر جورج.. اكتشفت للتو أنك صورة طبق الأصل من الممثل العالمي ليوناردو ديكا بريو.. بل أنت أشد وسامة منه.. (يبتسم) لن آخذ من وقتك الكثير وسأدخل في صلب الموضوع مباشرة لكي لا أضيع وقتك الثمين...
 - تفضل عميد توفيق.. اجلس.. مرحبا بك... أنا في الخدمة...
 - شكرا مستر جورج...

جلس العميد توفيق وصمت بضع ثوان، أحس جورج بأن الضيف كان محرجا جدا وأنه يبحث عن الكلمات التي سيبدأ بها الموضوع الذي قدم من أجله قبل أن يكمل...

- لقد أحدثت اللوحة التي عرضت مؤخرا بمتحف اللوفر ضجة عالمية وصل صداها لكل أنحاء الأرض... إنها تحفة فنية خالدة حقا... لكن... صمت....

- لكن ماذا عميد توفيق؟

- أعذرني مستر جورج لكنني لا أعرف من أين أبدأ صراحة... الكلمات تتوقف بحنجرتي.. هل لي بكأس ماء من فضلك..

نادى جورج على الخادمة لتحضر كوب ماء، بلل العميد توفيق ريقه، وضع الكأس على الطاولة والارتباك واضح على حركاته...

- حسنا... آسف مستر جورج... ولكن الكلمات لن تكفي...

فتح الظرف الأصفر وأخرج منه ثلاث صور فوتوغرافية صغيرة ووضعها فوق الطاولة الزجاجية قبل أن يدفعها بأصابعه قبالة جورج ليُشاهدها...

- هذه الصور مستر جورج هي لجريمة قتل وقعت بالمغرب وبالضبط بمدينة آسفي.. إنها صور عجوز تعرّضت للتسميم من طرف جيرانها قبل أن تتعرض للسرقة والنهب... أنظر جيدا مستر جورج... إنها تشبه لوحتك بأدق تفاصيلها... إنها نفس العجوز التي رسمت وكأنك كنت حاضرا مسرح الجريمة...

وقف جورج فلووير وعلامات الدهشة على ملامحه قبل أن ينادي على زوجته ساندرا بصوت عال، عمّ الصمت الصالة دقيقة من الزمن وساد نوع من الخشوع والرهبنة قبل أن يتساءل جورج بنظرات حادة للعميد توفيق...
- هل تظن أن لي علاقة بالجريمة يا هذا... ما الذي تقصده... هل تهمني بأي شيء...

التفت جورج فلووير الى زوجته وصرخ فيها قائلاً:

- اتصلي بكايال المحامي حالا ساندرا... إنهم مجانيين...

وقف العميد توفيق مفزوعا وهو يلوح بيديه قائلاً:

- لا حاجة للمحامي مستر جورج... أعتذر... نحن لا نتهمك بتاتا... نحن نبحث فقط عن إجابات..

- أي إجابات... أظن أنك لست من الشرطة أساسا... أنتم مجموعة من النصايين تريدون ابتزازي..

- صدقني مستر فلوبيير... أنا من الشرطة المغربية... يمكنك أن تتأكد من بطاقتي أو من القنصلية.. كما أنه من المستحيل أن تكون لك علاقة بالجريمة وفق التواريخ التي تحققنا منها...

- ما الذي تقصده بالتواريخ؟

- هذه هي الأجوبة التي أبحث عنها مستر جورج... سأشرح لك الموضوع لكن حبذا لو تهدأ من روعك... أولا لقد سَمِيت اللوحة رسميا في متحف اللوفر ب(عماس).. إنه اسم العجوز المقتولة في الحقيقة... ثانيا... الجريمة وقعت بعد أن رسمت اللوحة بأسبوع... هذا يعني أنك تنبأت بموتها سبعة أيام قبل وفاتها... هذا هو المحير مستر جورج...

استدار جورج فلوبيير بسرعة وطأطأ رأسه واضعا يده على لحيته الخفيفة الشقراء قبل أن يشير إلى العميد بأن يتبعه الى معبده حيث يتخضع مع لوحاته الفنية أمام استغراب ساندرا التي تعلم أن زوجها لم يسمح لمخلوق من قبل أن يدخله، تبعه العميد النحيف بظهره المنحني والذي بدا جليا على ملامحه حاجته لسجائره التي يدمن عليها، دخل جورج الاستوديو الذي تنفجر فيه طاقاته الإبداعية، قاعة كبيرة في الطابق الأول بالفيلا العائلية، ذهل العميد توفيق أمام كمّ اللوحات المعقلة على جدران الاستوديو وأخرى موضوعة أرضا بيضاء داخل إطارات خشبية لم يرسم عليها شيء بعد وبورترية عليها رسوم من الطبيعة ومنحوتات خشبية وفخارية ولوحات زيتية ومائية مدهشة، في أقصى الاستوديو طاولات خشبية طويلة وأخرى صغيرة الحجم تقف على أعمدة نحيفة عليها مساحيق ملونة معجونة بالزيت وأخرى كيميائية وفُرش كثيرة مرتبة حسب الطول مصنوعة من شعر السمور ووبر الجمل

برؤوس صغيرة مدببة وأخرى على شكل مراوح صغيرة وأخرى عريضة لشتى الاستخدامات، نادي جورج على العميد توفيق وهو يقف أمام حامل خشبي لآخر لوحة انتهى من رسمها، كانت مغطاة بإزار أبيض لم يطلع عليها أحد من قبل بما فيهم زوجته ساندرا التي كانت تقف على باب الاستوديو مذهولة.

- إنها آخر لوحة رسمتها أيها العميد توفيق.. لقد فرغت منها قبل أسبوع.. هل تريد أن تراها؟

اندهش العميد من طلب جورج وأخبره بأنه شرف عظيم له وأنها ستبقى ذكرى خالدة في تاريخ حياته حيث أنه سيكون أول من سيطلع على لوحة العملاق جورج فلوبيير، سحب الأخير الإزار ببطء ليعود العميد توفيق خطوات إلى الخلف واضعاً كلتا يديه على رأسه وكأنها معجزة خالدة بينما ازدادت دهشة ساندرا أمام هول ما شاهدت.

كانت اللوحة عبارة عن عسكري سمين أسود البشرة بنياشين لا تحصي على صدره يجلس على عرش عظيم بقبعة عسكرية، كانت باللوحة تفاصيل مذهلة للكرسي المرصع بالأماس البراق واللباس العسكري حيث لم ينسى جورج ثناياه الدقيقة وشعر صدره الأشعث وتلك الشفاه الكبيرة، لم يكن ينقص الصورة شيء غير عيون الجنرال التي اقتلعت من مكانها تاركة المكان لسواء دموي غامق، تلعثت الكلمات بشفاه العميد توفيق...

- إنه... إنه... إنه مبالا... مبالا رئيس كوغندا... لقد قتل الليلة من طرف المتمردين الذين دخلوا قصره بسبب تسجيل انتشر على الانترنت... آخر الأخبار تتحدث على أنهم اقتلعوا عيونهم.. كيف يُعقل أن تُرسم اللوحة قبل أسبوع؟؟؟؟؟

تقدمت ساندرا من زوجها وهي مبتسمة ثم أمسكت بيده قائلة....
- يبدو حبيبي أنك تمتلك موهبة أخرى جبارة زيادة على عبقرية الرسم... أنت
تستشرف المستقبل يا جورج قبل حدوثه... إنها هدية من السماء لأجمل وأروع زوج..
جورج فلوير المتنبّي الذي تخاطبه السماء.

إذا أردت أن تصنع أتعس إنسان في العالم، أعطه كل ما يريد.....

جان جاك روسو

المستنقم

لاحظت ثرية أن الشيب بدأ يلتهم لحية بومبارديلا في الثلاث سنين الأخيرة، كما أن المرض ألم بجسده ليصبح وهنا نحيفا رغم الجمال الذي لم يغادره، لكن ذلك لم ينقص من وقاره وهيبته في صدرها، كانت ترفض أن يساعدوا أحد من الخدم في تمريره بحيث كانت تتكلف بكل حاجياته من مأكّل ومشرب ودواء ولباس، جلست قربه تحت الشمسية البنفسجية الكبيرة بمسبح القصر الذي ارتحلوا اليه قبل عام في ريو دي جانيرو بالبرازيل حيث أن مبارك لم يعد يستحمل الجو البارد الذي يحل في فصل الشتاء بالنمسا، أمسك بومبارديلا بزجاجة الويسكي فوق الطاولة قربه وصب لنفسه قدحا على مكعبات الجليد ليطفأ نار جسده بسبب الحرارة المفرطة، خطفت ثرية كأس الويسكي من شفتي بومبارديلا قبل أن يرتشف منه...

- كفى بومبارديلا... أنت تؤدي نفسك عن قصد..

رد الكهل دون أن يلتفت إليها قائلاً:

- لقد تعبْتُ خلفك ثرية... أنت تقضين يومك بالتسوق وإهدار المال على التفاهات ومبارك لا يكف عن الترحال بنا من بلد الى بلد ليكتشف العالم... لحسن الحظ أن التعب نال منه أيضا.. ولولا ذلك لبقينا في الصين سنوات أخرى... ابتسمت ثرية قبل أن تحجبه وهي تمسك بأنفه كطفل صغير...

- أولا... أنت تعلم أن السفر من دونك لا طعم له عندي أيها الكهل الذي يشارف على الموت... ثانيا... ما الذي ترغب به وأنا مستعدة لتنفيذه حالا.. قل لي كيف أجعلك سعيدا.. أو على الأقل كيف يمكنني أن أنتزع منك ابتسامة فقط... هل تعلم أي لم أرك تضحك من قلبك يوما... أنت لا تبسم أو تضحك سوى لتتهكم أو

تستهزئ بالمحيطين بك... كيف أجعلك تضحك من قلبك... قل لي حبيبي... (مبتسمة)

- من المستحيل أن أضحك أيتها الغبية... أعترف أنني لم أعد أستطيع الاستغناء عن غباءك... وأود أن تبخثي عن عشيق حقيقي بدل السخرية من الكهل المريض أمامك... أنظري إلى مبارك هناك.. لقد بدأ الملل من كاميليا الحسناء يتسلل إلى قلبه.. إنه يفكر فيما يجب عليك أن تقومي به اليوم قبل الغد.. أنت جميلة ورائعة أيضا.. مئات الشباب يرغبون بالتزواج معك.. في كل بلاد ذهبنا إليها بأوروبا وآسيا وأمريكا والعالم كانت أعينهم تلتهم جسدك وعيونك وشعرك الذهبي وهم لا يعلمون أنك غنية بشكل لا يتصورونه.. لماذا لا تفتحين الباب لأحدهم لينهل منك وتنهلين منه الذرية التي تحلمين بها... لماذا.. افعلي ما يحلو لكي كما يفعل مبارك... كاميليا هناك تخوض حربا طاحنة للحفاظ على حيويته ورغبته بها... انظري كيف تتزلف له وهي تلمس صدره العاري وخده وشعره بينما هو مستلقي تحت أشعة الشمس لا يشعر بوجودها... إنها تظن أن بإمكانها إحياء ما مات بداخله بمجرد أن تبدي رغبتها في مضاجعته... وتظن أن سحر جسمها الرائع سيشفع لها... ذلك الجسد الذي حفظه عن ظهر قلب وخطّ شوارعه وأزقته وحاراته بلسانه وأسنانه التي صارت ناصعة البياض... لا شيء يمكنه أن يحافظ عليه ويقيه جنبها غير الأطفال... وأظن أنه حسم أمره بالرفض عندما أجهضها العام الماضي بعد أن حبلت.. الحقيقة التي تعلمها بصمت.. هي أنها تخشى من تكرار تجربتها مع اللورد تشارلز الذي باعها كما أنها ستفقد لقب الأميرة وكل ما يوفره لها مبارك... أكاد أجزم أنه ندم على المبلغ الهائل الذي دفعه مقابل شرائها... إنه يحس بأن شخصه أصبح

يستحق أحسن وأجمل منها... افعلي مثله ثرية... بإمكانك أن تعيشي مع الرجل الذي
ترغبين به.. الوقت يمر بسرعة...

امتعضت ثرية وردت بحدة على سخرية بومبارديلا...

- لقد سألتك عن ما يسعدك أيها الكهل اللعين ولم أسألك عني أو عن ذلك الأحمق
وعشيقته.. أريد أن أعرف ما الذي سيجعلك تبسم أو تضحك من قلبك..

- حسنا... هل يمكن أن تخبريني بالشيء الذي مكّن مبارك من القيصر الأعظم؟
ضحكت ثرية بأعلى صوتها وهي تفرك شعر رأس بومبارديلا الحريري بعد أن نزع
عنه قبعته الإيطالية..

- أنت عنيد بشكل لا يوصف.. لقد وعدتك بأني سأجعل مبارك يخبرك بنفسه لكنك
أغلقت كل الأبواب في وجهي يوم سألتك عندما كنا في رحلة بمدينة البتراء
بالأردن.. سألتك يومها أمام الأبواب العظيمة المنقوشة بالكامل من الصخر..
سألتك إن كنت تؤمن بالجن فاستهزأت بي عشرة أيام كاملة وأعطيتني دروسا طويلة
في فلسفة الغيبيات... هل تذكر؟

- نعم.. أذكر كل شيء ثرية... أرجو أن لا تقولي لي بأن الجن هو من يساعد مبارك...

- لن أقول لك شيئا.. سأتركك تفكر بالموضوع...

- وكما أقول لك دوما.. أنت غبية... رغم كل ما علمتك إياه هاته السنين ما تزالين
مصرة على الإيوان بالترهات والخرافات... أنت تلميذة فاشلة حقا... لقد حصلت
على قطعة من فؤادي بسبب طبيعتك ثرية... كل ما أعلمك إياه هو تقدير مني لك.. لا
أحبذ فكرة أن تكوني نسخة طبق الأصل من تلك النساء اللاتي يبحثن عن رجل
أقوى وأغنى وأذكى متناسين أنهن سيُنظر إليهن بطبيعة طليهنّ أضعف وأفقر

وأغبي... لا تأخذي أفكارا فقط لتُسدي بها فراغات عقلك... استخدميه... أتقني اللعبة ثرية... كوني على يقين ثرية... أنا وجميع الرجال كاذبون... كوني حكيمة واعلمي أن هذا الزمن مليء بالسخافة وأن عليك أن لا تفقدي أعصابك بسبب الحقيقة وتهربي الى الأكاذيب.. إنني أملك من العلم ما يجعلني لا أومن بالخرافات ومع ذلك ما زلت أومن بخيال الحب... ثرية... إن أسوأ أبناء العاهرات هم الذين لا يظهر عليهم ذلك...

صمتت ثرية لحظة قبل أن تبسم وهي تقول...

- لقد أخبرتك ضمنا بما أعلم ولك أن تصدق أو تكذب ذلك... أنت أصلا لا تؤمن بكل معتقدات أهل الأرض.. وتسير ضد التيار دائما.. ويبقى السؤال قائما... هل هنالك شيء يمكن أن يجعلك تبسم أيها الكهل المريض..

- أنا لم أقل يوما أي لا أومن بمعتقدات أهل الأرض ولكني قلت أي ما زلت أبحث عن الحقيقة.. أنا أرفض أن يكون الهدف من الوجود هو العبادة بمعروف العامة إلا إذا كان القصد من الكلمة في كل المعتقدات هو التفكير والتأمل، ولا بد وأن تكون فكرة الإله الخالق تتفق مع عقل مخلوقه الذكي وثقافته الموضوعية.. الإله عزيزي ثرية مختلف تماما في رأيي عن الفهم الحالي لرجل الشارع البسيط.. ولنفرض جدلا أن الجن هو الذي يساعد مبارك... حسب اعتقادك والكتب السماوية فإن الجن من عالم آخر يطلع على عالمنا بشكل كامل وله قدرات خارقة تجعل كل شيء مادي محسوس في عالمنا مكشوفاً لديهم... أرى أن الجن لم يكن يعلم بخطة القيصر وكرسيه الملعوم رغم أنه كان متواجدا معنا... كما أنه لم يكن يعلم ما بالصندوق الخشبي... لقد كان الجن متخلفا وغبيا مقارنة مع نيكولاس...

انتفضت ثرية مستغربة وأمسكت بيد بومبارديلا قبل أن تسأله...

- ما الذي يوجد بالصندوق الخشبي... أليس كلبا؟ لقد سمعت نواحه عشرات المرات بينما كان يطعمه مبارك... ما لا أعرفه هو لماذا يتشبث به وينقله معنا دوما... لقد سألت مبارك عشرات المرات وكان يتحاشى الرد إلى أن تركت الأمر..

- هذا هو الدليل على أن من ساعد مبارك ليس جنيا... بل هو شيء آخر ما زلت أحاول تفسيره بشكل مقنع وعقلاني بعيدا عن التخاريف....

كان موضوع الجن ومبارك يورق ثرية كلما تذكرته، كانت ترسل الحوالات الشهرية إلى جمعية مساعدة مرضى السرطان قبل وقتها حتى لا تسمع به يوما وكأنه ذكرى أليمة، وحينها يعود بومبارديلا ليسأل عنه كانت تغير الموضوع وتتجاهله عن قصد حتى لا تعود إليها ذكريات كوغندا والدماء التي جعلتها السنين تنساها تماما.

بعد أيام معدودة وكما توقع بومبارديلا أمر مبارك ثرية بحزم الحقائق من أجل السفر إلى أمريكا تاركا كاميليا في قصر ريو دي جانيرو وحيدة مع بعض الخدم، لقد نال منه الملل في قصوره صحبتها، كان لنيكولاس خمسة قصور في الولايات المتحدة الأمريكية اختار من بينها قصر فيكتوريا في اليكوت بولاية ميريلاند، كان مبني على الطراز الجورجي القديم، واجهته الخارجية مزينة بأحجار ترجع للقرن الثامن عشر يمتد على مساحة أربعين هكتار ويحتوي على ثلاثين غرفة كلاسيكية من الزمن الجميل وجناح كبير ومطبخ عظيم وشرفة أمامية بطول القصر مطلة على أشجار الكمثري، به عشرات المواقد الرخامية بأرضية صلبة لامعة تعكس سقوفه المجوفة، طلب مبارك من ثرية أن ترافقه في جولة شاملة لأمريكا أمام امتعاض بومبارديلا الذي كان يوافق على سفرياتهم مكرها، استغرقت جولاتهم بالأراضي الأمريكية

ثلاث سنوات أخرى لم يعودوا فيها لقصر اليكوت سوى ثلاث مرات من أجل الراحة، زار خلالها مبارك أفخر حانات لوس انجلوس وأكثرها صخباً وتعلم اللغة الأمريكية في شهور من المومسات التي كان يصطحب إلى الفنادق الفخمة بينما كانت ثرية تستمتع بوقتها رفقة بومبارديلا في المتاحف الفنية والمعالم التاريخية، كانت اللغة حاجزاً قوياً أمام مبارك قبل أن تتفتح أمامه أبواب المعارف والصدقات الانتهازية، أصبحت لمبارك قائمة طويلة من العشيقات من كل لون حيث كان يحضر الحانات الراقية والحفلات الموسيقية صحبة أربع أو خمس نساء دفعة واحدة بينما كانت ثرية تستكشف هوليوود حيث تُصنع آلات غسيل الدماغ العالمي من أفلام أمريكية تستطيع أن تصور لك الأفعى حمامة من وجهة نظر بومبارديلا، قال مستهزئاً يوماً، كيف لا وقد تمكن صناعها من إقناع الناس بالمعاناة التي يقاسيها الجندي الأمريكي مع الوحدة والوحشة بالقاعدة العسكرية قبل أن يقتل مليون عراقي أو آلاف الأطفال، أخبرها بومبارديلا بأن القوم في هوليوود هم سحرة فرعون الحقيقيون، كان مبارك يتبخر بسيارته اللامبرغيني على شواطئ هنتنغتون وأورانج الخلابة صحبة أجهل جميلات المدينة بينما كانت ثرية تملأ مخزونها الفكري في مراكز ماركوني أوتوموتيف وباتل شيب لوا وديسكفري الثقافية، كان مبارك يكتشف عالم الكوكابين على خصر وصدور الحسنات بشاطئه الخاص في سان دييغو بينما كانت ثرية تنهل من التاريخ العريق بالمتاحف الثقافية، اكتشف مبارك ملذات أخرى في حفلات ماجنة بجناحه الملكي في أفخم فندق بسانتا مونيكا بولاية كاليفورنيا رفقة عشرات النساء، معظمهن كنّ يتعاطين المخدرات الصلبة أمام أعين مبارك بصدور عارية أصبحت تُعرفه مع مرور الوقت ليقرر الغوص بنفسه في عالم الأحلام الصناعي الذي اكتشف روعته مع

أول سطر استنشق من الكوكابين، بينما كانت ثرية تزور معارض فنية في بيرجاموت لتشاهد مناظرات وتحضّر لقاءات ثقافية بين مفكرين من شتى أنحاء العالم حول الانحباس الحراري والهيمنة الأمريكية والاستنساخ والحروب ومشاكل الشرق الأوسط، كان مبارك يُبحر قبالة شاطئ ميامي بيتش بفلوريدا قرب الدلافين الوديدة رفقة ملكة جمال البرازيل التي دفع لها مائة ألف دولار مقابل ليلة واحدة تقضيها معه على يخته بينما كانت ثرية تناقش بومبارديلا رواية الأبله لدوستوفسكي والغريب لألبرت كامو.

عاد مبارك إلى قصره في اليكوت بعد ثلاث سنوات من التجوال بأمريكا لمس خلالها سقف المتع الدنيوية المحسوسة، أصيب بخيبة أمل كبيرة جراء ما عاشه من مغامرات جنسية وفلكية بسبب المخدرات عندما اكتشف أن مفعول كل شيء يختفي مباشرة بعد أول تجربة، فلطالما كان يحلم بمضاجعة الكثير من الفتيات الحسنات دفعه واحدة ليكتشف أنه أمر مناقض للفطرة وأن رغبته كانت مدفوعة من طرف الصور التي بُثت بدماعه جراء مشاهدة الأفلام الإباحية قديما وأن الجنس الذي تتخلله مشاعر وأحاسيس أفضل من الجنس الحيواني الذي سَوّقه له دون أن يدري، اكتشف أن ركوبه لسيارة اللمبرغيني أو يخته مع الشقراوات الأمريكيات لم تجعله يحس بالسعادة التي كان يتوسّل بقدر ما كان يشعر به رفقة ثرية خائفا بالقطار متجها إلى مراكش أو حتى رفقة كاميليا بالهند، اكتشف أن الكوكابين لا يسعده بل كان يكذب عليه ويوهمه لدقائق بسراب قبل أن يحتاج لجرعات أخرى لا تنفي بالغرض، اكتشف أن الحيوانات تلد حيوانات وأن الإنسان يلد إنسانا ويربيه ليصبح حيوانا لسبب ما زال يحمله، اكتشف مبارك أنه تعلم الكثير وأنه أصبح يرغب بالمزيد من

البدايات من كل شيء لأن روح المتعة تسكن التجربة الأولى دائما وتساءل إن كان يرغب حقًا في الخروج من مستنقع اللذة أو الغوص بظلماته أعمق فأعمق علّه يكتشف ويتعلم أكثر فأكثر.

عادت ثرية بعد ثلاث سنوات تعاضم فيها رصيدها المعرفي بشكل مهول بفضل بومبارديلا المقعد والذي كان يرشدها ويخطط لمستقبلها الفكري، اكتشفت مدى صدقه عندما كان يلقبها بالغبية، اكتشفت أن بإمكانها السفر بمجرد أن تقرأ كتابا غير المقررات التي نالت بها شهادة البكالوريا، اقتنعت أن لا وجود للجن في عالمها سوى بمخيلتها وأكاذيب مبارك، اكتشفت أن الذكي هو من يصنع الصنم ليعبده الغبي وأن للنفوس القوية إرادة قوية وللنفوس الضعيفة فقط أمنيات عظيمة لن تتحقق، اكتشفت أن معتقداتها الدينية والتاريخية والوطنية مجرد صناعات سياسية محضة يستهلكها الأغبياء المتحجرون، تعلّمت أن أرقى مستحضرات تجميل المرأة هي ذكائها وثقافتها، اكتشفت أن الممكن أن يكون الوطن مجرد إنسان، وكان ذلك الإنسان هو بومبارديلا.

لبست ثرية بدلة السونا للتنحيف وإذابة الدهون قبل أن تُدخل كرسي بومبارديلا إلى المصعد وتنزل قاصدة قاعة الرياضة الكبيرة أسفل القصر حيث عشرات أجهزة السير الكهربائية وأجهزة الأوربتراك والالبيتيكال والدراجات الهوائية الالكترونية ومئات من أجهزة البطن وحمل الأثقال وأخرى متعددة الوظائف مصطفة قبالة مرايا طويلة منسقة بشكل انسيابي يلف القاعة بأكملها، خاطبها بومبارديلا قبل أن يشعل سيجاره الكوبي الفاخر قائلا:

- لماذا تفرضين علي حضور تمارينك الصباحية بالقوة... لقد تعبْتُ منك ثرية طيلة اليوم.. لم أعد أطيق النظر إليك رغم أنك أصبحت أجمل من ذي قبل.. يمكنك إحضار عشرة مدربين أخصائيين من أجل لياقتك البدنية بدل الكهل السكير... ابتسمت ثرية بينما كانت تضرب بذراعيها على جهاز الغزال الطائر لتخفيف الأرداف والخصر قبل أن تجيبه...

- أريد أن أحضر وفاتك الوشيكة أيتها العجوز الشمطاء... أنت لا تريد أن تقلع عن تدخين ذلك السم ولا تريد التقليل من شرب الويسكي رغم كل الأذى الذي يسببونه لك... عندما تأكدت أنك ميت لا محالة قررت وجوب أن أكون آخر ما سترها عيناك.. أريد أن أكون حاضرة لوداعك..(تبتسم)

دخل مبارك القاعة الرياضية يتمايل ببطء، جلس على أحد الكراسي الرياضية قبالة ثرية بينما كان بومبارديلا على يساره، فقط سروال نومه الأزرق الحريري و صدره العاري النحيف والبطن الخاوية، كان يمسك بقنينة فودكا صغيرة وضعها أرضا قبل أن يخط سطورا صغيرا من الكوكايين على الطاولة ليستنشق الغبار الأبيض ثم يشعل سيجارة قائلا بلسان ملتوي...

- صباح الخير أيها العشاق... كيف حالك ثرية... لم أرك منذ أسبوع رغم أننا نعيش في قصر واحد... هل تذكرين عندما كنا نعيش في السطوح... أصبحت مؤخرا أتساءل لماذا يشدني الحنين لتلك الأيام رغم أنها كانت سوداء... قاطعه بومبارديلا قائلا:

- لأنك بدأت تعرف شيئا من الحقيقة مبارك...

هبت ثرية بعدما نزلت من على الآلة الرياضية قائلة...

- عن أي حقيقة تتحدث بومبارديلا... لقد قضى الثلاث سنوات الأخيرة في الملاهي والبارات والحانات يعاشر كل ساقطات العالم وعاد لتدخين الحشيش وزاد عليه الماريخوانا والكوكايين والمجون بشتى أنواعه... عن أي حقيقة تتحدث بومبارديلا؟
ابتسم بومبارديلا في وجهها وهو يشير إليه بيده المتبورة بينما كان مبارك يكمل قنينة الفودكا الصباحية وأجابها بنبرة حادة....

- لا تغتري بما علمتِكِ إياه ثرية... لقد تعلم مبارك الكثير أيضا.. بل أجزم أنه تعلم أكثر منك.. النساء لا يتذوقن الجمال الحقيقي... أو على الأقل الصالحات منهن..
أنظري إليه جيدا.. إنه وحيد بالقصر منذ أكثر من عشرين يوما... لو غرق في المستنقع لما عاد الى هنا.. لقد تعلم من تجربته أن السراب غير الحقيقة.. وأن البدايات لا تعني الاستمرارية.. إنه يبحث عن شيء آخر الآن.. أليس هذا جميلا ورائعا...
رد مبارك مبتسما بلسان ثقيل..

- صدقت أيها الكهل... لقد أمرت سلمان خان بأن يرسل طائرة خاصة من أجل كاميليا.. إنها أميرة حقيقية وليست مثل البلاستيك الذي ضيعت عليه ملايين الدولارات.. لقد كنت سعيدا صحبتها.. تماما مثل ثرية معك... يكفي أن تشاهد عيونها وهي تبرُق عندما تكون بجانبك... أنفهم التصاق ثرية بك أيها الكهل.. لقد أصبحت مثلها الأعلى لأنك تعرف كل شيء وتحور كل شيء بمفاهيم غريبة.. أنت صندوق مزعج وحانوت مكتظ بالوحوش والأتربة... أعترف بأن لك تأثيرا خسيسا على كل من تكلمه...

نظر بومبارديلا في عيون ثرية مبتسما وهو يقول:

- هذا ما أخبرتك به ثرية... إنه يتعلم.. لا تحقري التجارب فمدمن الخمر والمخدرات أدرى بمفعولها الحقيقي من البروفيسور الذي وهب حياته كلها لدراسة تفاعلاتهم الكيميائية على الجسم.. التجربة أعظم معلم ثرية... إنه يُفرّق الآن بين أنواع المشاعر ويستطيع أن يحدد هدفه بوضوح... من الناس من لو قرأ ألف كتاب عن لذة معينة لما فهم معناها مثل الذي تذوق طعمها.. وأخال المثقف قليل التجربة أغبى من المُجَرَّب الجاهل.. لقد جرب مبارك كل أنواع اللذات وتمرّغ داخلها ونهل من علمها الحصين على المنافقين الذين يصدعون رؤوس الناس بالنصائح الأخلاقية قبل أن يطرقوا أبوابها في الخفاء.. إنه يعرف الآن عن تجربة طعم الاستقرار الذي فقده مع كاميليا... وسيعرف المزيد عن نفسه في المستقبل... تلك النفس التي نجهل جميعا إلى أين تقودنا..

رن هاتف بومبارديلا على كرسيه المتحرك قبل أن يضع الساعة على أذنه ويسمع صوت سلمان خان أمام مبارك السكران...

- لقد وجدته مستر بومبارديلا..

إنه ليس على ما يرام...

ما زال حيا...

لقد عثرت عليه... إنه يدعى كـيـتـو.

من حسنات الناس أنهم لا يستطيعون إخفاء سيئاتهم طويلاً...

جبران خليل جبران

الصلوك

لم يستطع العميد توفيق أن يمنع نفسه من التقاط صورة فوتوغرافية خلسة لتحفة جورج فلوير، ولم يستطع أن يمنع نفسه من نشرها على حسابه بالفيس بوك قبل أن تنتشر كالنار بالهشيم بعدما علّق عليها متباها أمام متابعيه بأنه أول من اطلع على لوحة العبقري جورج فلوير وأنه أيضا أول من اكتشف رفقة زوجته ساندا قدرته الخارقة على استشراف المستقبل، حيث أن لوحة العجوز مماس بمتحف اللوفر الفرنسي عُرضت قبل مقتلها بأسبوع، تماما كما حصل مع المنشورة على الفيس بوك والتي كان شاهدا على تاريخها بما أن الجنرال مبالا قُتل بالمجاري في قصره وانتزعت أعينه كما جسدها جورج فلوير.

بعد أسابيع احتل الخبر جميع وسائل التواصل الاجتماعي ووكالات الأنباء العالمية وكل القنوات الوطنية والدولية والجرائد الورقية والالكترونية والمجلات الشهيرة، وأصبح حديث العالم بأسره بما فيهم رؤساء دول وسياسيين وديبلوماسيين وحكومات رسمية عن اللوحة القادمة للفنان جورج فلوير والتي ستخبرهم بشيء لا وجود له سوى بالمستقبل، أغلقت على إثر الشائعة كل الشوارع المؤدية الى فيلا جورج فلوير الواقعة بحي لاتين كوارتر بانثيون قرب جامعة السوربون الأسطورية ومبنى البانثيون حيث دُفن أشهر الفنانين والعلماء والمفكرين، أغلقت بسبب الصحفيين وعرباتهم المحملة بأحدث وسائل الاتصال مع القنوات العالمية من أجل البث المباشر للحدث الجلل الذي أصبح العالم ينتظره بفارغ الصبر.

كانت ساندرانتظار كبقية الناس خروج زوجها من ورشته التي يقبع بها منذ ثلاثة أيام، كانت تضع وجبات الفطور والغداء قرب باب الاستوديو وتنصرف إلى أن

يحتاج جورج سد رmqه، وقد لاحظت أنه لم يتناول أي وجبة في اليوم الثالث لتبقى مترقبة قرب الباب رفقة ابنتها كاثرى ظهور والدها الفنان الذي خرج في ذلك المساء المهيب بسر واله الجينز الملطخ بشتى الألوان، يطل من جيبه الأيمن منديل طويل متسخ وصدر عار وشعر أشقر طويل أصبح مبتلا من شدة العرق الذي كان يتصبب على سائر بدنه.

تعاقبت ساندرا بعد موافقة زوجها مع عشر شركات إعلامية خاصة وحكومية من أجل بث عرض لوحة جورج فلووير حصريا ومباشرة على قنواتهم بمبلغ مليون دولار للمراسل الواحد.

رفع جورج رأسه اتجاه الصنبور الرشاش ليستقبل وجهه دفئ المياه الساخنة بالحمام وبقي على تلك الحال دقائق الى أن انتعش بدنه وفارقه ظلامية لوحته التي يستعد لعرضها أمام الصحفيين في ورشته، ارتدى قميصا أبيض شفافا بعد أن مشطت ساندرا شعره الأشقر الطويل وهي تقبل كتفيه وتعانق صدره العريض الناصع، كان الصحفي الكهل سياستيان ليفي من قناة فوكس نيوز الأمريكية يتساءل وهو يفرك لحيته البيضاء أمام جمال وسحر وذكاء ونى العبقرى جورج فلووير، تساءل عن العدالة الإلهية ومحلها من الإعراب أمام هذه القسمة التي يراها غير عادلة، كيف يجعل الرب كل هذه النعم في يد شخص واحد وسيم لدرجة الكمال وذكى وفنان وعبقرى في مجاله بكل ما تحمل الكلمة من معنى ناهيك عن الغنى الفاحش وزوجة تكاد تكون أجمل امرأة بالكون وابنة وديعة، حدث نفسه بأن العبقرية والجمال الحقيقيان يختلفان في العادة مع الوسامة المفرطة، كما أن الذكاء نفسه إسراف من الطبيعة والإسراف يُفسد ذلك التناغم الجميل، فكل من يفكرون ويبدعون تشبه

وجوهم من قوّة العطاء وتمسخ أنوفهم وجباههم من شدّة البذل، استعرض بمخيلته كل الأفذاذ على وجه الأرض فوجدهم ناهج من البشاعة أو مشاريع في طور المسوخ باستثناء رجال الدين، وذلك أمر طبيعي فهم لا يفكرون ولا يبدعون بل يقلدون ويرددون ولذلك يحتفظون بجمالهم إلى آخر أيامهم، أما جورج فلوبر فلقد دمر ونسف القول بأن العبقرية أطول أجلا من الجمال حيث جمع بينهما، فهو آية في الجمال اجتمع له من الشباب منتهاء ومن طهارته أصفاء ومن حرارته أفواه، فما عرف فنانا جذاب الشخصية إلا وكان تافه الفن لأن عمالقة الفن تُفنى أعمالهم شخصياتهم تماما حتى لا يبقى منها شيء، ولكن هذا الشاب غير تاريخ الفنون لغير رجعة، قطع جبل تساؤلاته وأفكاره جورج عندما وقف جنب لوحته بالأستوديو وشدّ الإزار الأبيض بأصابعه الرقيقة الناعمة، كان العالم بأجمعه يتابع اللحظة التاريخية مباشرة والتي سيشاهدون فيها صورة من المستقبل لا يعلم عنوانها غيره، كان الفرق بينها وبين الصورتين السابقتين هو أن العالم سينتظر مع العمل الفني الجديد حدثا لم يقع بعد.

سقط الإزار على الأرض بينما كانت أفواه الصحفيين تشبه أفواه الموتى من شدة الصدمة، رُسم على اللوحة الفنية شاب حديث السن قصير القامة بجسد نحيف يلبس جاكيت حمراء بالية وسروال جينز أسود مدبوغ ومثقب بحذاء رياضي وسخ يوشك أن يتمزق من فرط الاستعمال، يبدو على خدوده أنها تعرضت لجروح غائرة تركت أخاديد وجداول ملتوية، كان شعره أشعث مغبر يمسك في يده اليمنى كيسا بلاستيكيًا شفافا بداخله خضار عفنة من جزر وبطاطس وبقدونس، كانت على شفثيه ابتسامة مكر ينفجر منها شر كثير رغم الفقر المدقع الواضح الذي جسده

أنامل جورج فلوير في أدق تفاصيله، لم يكن بالصورة شيء يزعج حتى يُخرس الصحفيين رغم ثرثرتهم المعهودة غير ما كان يحمله الشاب الصعلوك بيده اليسرى.

تقدم جورج فلوير أمام الكاميرات التي التفت حوله ليعلق على اللوحة الخالدة الجديدة قائل أمام عشرات ملايين المشاهدين من كل أنحاء العالم....

- مرحبا بكم وبسائر من يتابعني من العالم أجمع... أعذروني ولكنني لن أستطيع أن أقدم لكم تفسيراً لما سأخبركم به الآن...

كل ما أعلمه هو أن هذا الشاب على اللوحة يشكل خطراً غير مسبوق على كل سكان كوكب الأرض...

الإنسانية في خطر... انظروا الى ما يحمل بيده اليسرى... إنه كوكب الأرض يحترق ككرة لهب صغيرة بينما هو مبتسم سعيد... كوكبنا في خطر بسببه ولا أعلم لماذا...

أظن أنه صعلوك تافه.. ولكنه صعلوك خطر..

أتمنى أن تجدوه قبل فوات الأوان.. فالأمر أخطر مما تتصورون...

كل ما أعرفه هو أنه يدعى الغـول... واسمه الحقيقي...

مبارك..

اسم اللوحة مبارك..

إننا نعلم الناس دروسا في سفك الدماء؛ فإذا ما حفظوا الدرس سفكوا دمنا أولا....

شكسبير

نيرفانا

في مدينة مكسيكو سيتي بالمكسيك قرب معبد الأزتيك الرئيسي تيمبلو مايور على بعد مئات الأمتار من الكاتدرائية أمر مبارك خادمه سلمان خان بإفراغ الغرفة الكبيرة تحت قصر مجدالينا الذي ارتحل إليه قبل تسع سنوات، حيث يتم تخزين كل متطلبات سكان القصر بما فيهم الخدم من مأكّل ومشرب وخمور وآلات الصيانة، وتحويل محتواها إلى قاعة كبيرة قرب المطبخ الملكي، نقل إليها مبارك في ليلة ممطرة صندوقه الخشبي الذي كفّ قبل أيام عن العواء والنباح دون أن يخبر ثرية أو بومبارديلا بالأمير، كان مبارك يحس بشيء من الغيرة اتجاه ثرية التي ملأت في تلك الفترة وقتها بالكثير من الأنشطة، حيث كانت تمضي وقتها في التنقل بين مراكز الجمعيات الخيرية التي أنشأتها رفقة بومبارديلا في جميع أنحاء العالم والتي تدعم الأطفال ضد كل أشكال العنف والإقصاء من أجل إدماجهم أسريا ومدرسيا ومهنيا وأخرى لدعم الأمهات العازبات لدعمهم ماديا ومعنويا والتكفّل بالأطفال حديثي الولادة المتخلى عنهم والنساء اللاتي تعرضن للعنف والاغتصاب، كانت تمضي معظم وقتها في استقبال تبرعات المحسنين بالحسابات التابعة لجمعياتها الهادفة كما أنها كانت تُجبر مبارك على التبرع لحساباتها شهريا كلما حوّلت الأموال لجمعية الوقاية من السرطان التي كانت شرطا من شروط اختفاء الذبابة، كانت تمضي الوقت المتبقي في قراءة الكتب الفكرية والفلسفية لتناقش الكهل بومبارديلا حولها قبل أن تخلد الى النوم، لم يتمكن مبارك رغم محاولاته المتكررة من القضاء على الإحساس بالملل الذي اعتراه وتلبّسه يوما بعد يوم، لقد جرب كل شيء كانت تُملّيه عليه نفسه، بعد أن أعاد كاميليا الى القصر قرر الزواج منها من أجل تكوين أسرة، لكنه لم يتمكن من الإنجاب رغم

كل محاولاته حتى أن الشعور بالندم على إجهاض كاميليا يوما ما لم يعد يفارقه، ثم حُسم الأمر يوم أخبره الأطباء بأن المخدرات دمرت قدرته على الإنجاب إلى الأبد وكأن اللعنة التي أخبره عنها نيكولاس قبل مقتله قد حلّت عليه، حاول التخفيف من حدّتها بالسفر والتجوال مع كاميليا والإنفاق بشراهة في قصوره حيث أمضى شهورا بباريس وأخرى بلندن ثم موسكو وطوكيو ومديد وأثينا وأوتاوا وبرلين، لم يترك مكانا على وجه الأرض لم تطأ قدماه أرضها، أبو ظبي وطقشند وجاكارتا وبندر سري بكاوان وداكا وبانكوك وعشق أباد ومانيلا وسيول وكوالالمبور والقاهرة وبروكسل ستوكهولم وصوفيا وإسطنبول، حاول جاهدا القضاء على الملل في هلسنكي وبراتيسلافا وزغرب وكوبنهاغن وموناكو وبودابست وريكيافيك دون جدوى، كان يحس بفراغ عظيم بصدرة وشعلة من اللهب لم يتمكن الغبار الأبيض الذي أصبح مدمنا عليه من إطفائها، حاولت كاميليا جاهدة أن تسعده ولكنها فشلت في المهمة التي أصبحت شبه مستحيلة وقد صار الصعلوك الذي كان يكره الأغنياء ويمقتهم دون سبب، صار يُشفق عليهم من حيث لا يدري، كيف لا وقد أصبح يكره وجه كاميليا الحسناء ويرغب بصمتها بينما كانت هي تصر على الحديث، مجرد فكرة أنها زوجته التي يجب في العُرف أن ترافقه حيثما حل وارتحل صارت تُقرفه، حتى صوت الصرير الذي يَصُدُّ من نواجدها وهي تمضغ صار مزعجا، حتى الرنين الذي تحدّثه ملعقتها بالصحون صار لعنة.

عاد الى قصره بالمكسيك وذات مساء أمر سلمان خان بإحضار الصندوق الخشبي الى الغرفة تحت القصر قبل أن يغلقها ويضع المفتاح بجيب الجينز.

أفرغ مثانته، دخن سيجارة ماريخوانا مع كوب قهوة برازيلي، حلق ذقنه، ضاجع الخادمة المكسيكية الجميلة روزاليندا ذات الخصر الكبير، تناول الإفطار، أكل بعض اللحم المشوي، شرب كأس ويسكي وبيرة، رقص وترنح قليلا، نام بضع دقائق، تجول عاريا بالقصر، رسم على الجدران ذبابة بقلم حبر صغير، استمع إلى موسيقى بدت مملة، أخرج كيسا بلاستيكيًا صغيرًا من جيبه الخلفي وأفرغ ما به على رخام الجاكوزي في الحمام الخاص بالقصر،

سَطَّر خطأ طويلا من الكوكابين بسكين صغير حاد قبل أن يستنشقه، ثم أعاد الكرة مرتين قبل أن يرتقي في أحضان المياه الدافئة بينما كانت فقاقيعها تبلبل وجهه وشعره. ساعة كانت كافية ليعيش ما يقاتل من أجله البشر بعضهم بعضا لآلاف السنين، سبح في كون الملل وقاتل ظلماته، استنشق الغبار الأبيض وشاهد الكون منذ الخليقة وقبل أن تظهر الديناصورات، طار فوق التاريخ من عصر قابيل وهابيل إلى عصر حكم الجنرال مبالا، شاهد نيرانا كثيرة حمراء تضحك وهي تلتهم مدنا بأكملها، أمسك بيده مئات البشر بحجم النمل ثم أكلهم واستمتع بعويلهم وصراخهم وهم يذوبون بعصارته الهضمية داخل جوفه، طار على جناح حيتان سوداء برائحة العنبر وهو يلقي شوكا أسودا على البحار لتتحول إلى دماء حمراء، جلس على عرش أسود عظيم وبيده كوكب الأرض يصطرخ قبل أن يحترق، ألقى بالكوكب الأزرق في كيس بلاستيكي مع خضار فاسدة وأحس أنه سيد الكون ذاته وأن بإمكانه أن يشم الضوء ويشرب الفكرة بعد أن يراها مجسدة، ثم سمع نباح كلب بعيد وكأنه يستنجد، وكأنه يطلب إطلاق سراحه من سجن مظلم.

هب من المياه الدافئة بعيون حمراء وهروا إلى الغرفة، أخرج المفتاح من جيبه ودخل الغرفة البيضاء الكبيرة الخاوية، صندوق خشبي وحيد في قلبها به فتحة صغيرة أمامية وأخرى خلفية فوقها مطرقة متوسطة الحجم، أمسك بها بقوة وفتح قفل الصندوق، ارتطم بابه الجانبى الثقيل على الأرض الرخامية البيضاء ليرتطم صداه بجدران الغرفة، لقد تحول عم مبارك إلى مسخ هزيل البنية يشبه كلاب الشوارع التي توشك على الموت جوعا، انبعثت من الصندوق رائحة مروعة منعها الكوكايين من أن تصل إلى جيوبه الأنفية، كان عم مبارك يئن كجرو صغير خائف لا يعلم أنه أمضى أكثر من خمسة عشر عاما في صندوق مظلم تنفيذا لرغبة طفل اغتصب براءته قديما، أمسك به من بقايا شعره المتساقط وسحبه أمتارا قليلة وهو يئن ككلب تعرض لضرب مبرح قاتل...

قال وهو يسحب تلك الكومة الهزيلة صارخا...

- أين أنت؟؟؟

ثم رفع يده عاليا وفجّر رأس الكلب بالمطرقة، بقي يضرب بقوة إلى انزلقت العيون على الرخام الأبيض بعد أن تحولت الجمجمة إلى فتات بينما اختلط الدماغ مع الدماء الكثيرة لتتشكّل بركة حمراء لزجة، رمى المطرقة ثم اغترف بيديه كرة رخوة من الدماء ومسح بها على وجهه وصدره العاري وهو يئن ويتنحب بشدة حتى انتفخت عروق رقبته....

قال بصوت مبحوح ضعيف وهو يبكي كالأطفال...

- أين أنت... أأأأأ أنت؟؟؟

سمع مبارك الصوت الذي خاله يوما ما مزعجا كسمفونية رائعة تدغدغ طبلة أذنيه وأحس ساعتها بنشوة الكوكابين والجنس والخمر والمال وكأن كل شيء لم تكن له قيمة بدون الذبابة فورد وهي تسأله بعد غياب خمسة عشر سنة...

- هل اكتفيت مبارك؟

أجاب مبارك في الحين والسعادة تغمره بعيون تتلألأ وقد فهم قصد الذبابة دون أن تحتاج لتكرر سؤالها...

- نعم.. شبعْتُ لحد التخممة واكتفيت لحد القرف... لدرجة أنني لم أعد أعرف ما أرغب به فعلا..

ردّت الذبابة بهدوء...

- لقد كنتُ دوماً بجنبك أيها القيصر الأعظم.. لم أتخلى عنك ولن أفعل... أنا أعلم ما الذي تحتاجه مبارك...

وقف والدماء تتقاطر من عليه قبل أن يسأل بشغف وخشوع رهيبين...

- أخبرني فورد بالذي أحتاج إليه... أريد أن أعرف...

صمتت الذبابة فترة أمام شغف مبارك الذي لم يجد لسؤاله جواباً منذ سنين، لطالما حاول القضاء على الملل دون أن يتمكن منه، لقد كان يخوض حرباً خاسرة من بدايتها، وكان سرُّ الفوز فيها لدى الحشرة فورد.

- أنت تحتاج لأول إحساس شعرت به يوم كانت حياة العجوز مماس بين يديك...

أنت تحتاج لشعورك يوم انتزعت أحشاء أصدقائك وبعثتهم أحياء... تحتاج للخوف

الذي نهش مفاصلك ساعتها... أنت تحتاج لابتسامتك عندما أمرت بتفجير رأس

ماتيلد بينما كان يتوسل ويُقبل قدميك... تحتاج لذلك الإحساس الرائع الذي لا

يعرفه الكثير... قليل من يعرف نشوة القتل ونشوة انتزاع الحياة من كائن آخر.. أنت تحتاج لانكسار جنرال تخشاه الملايين... تحتاج للخوف الذي انتابك عندما رأيت حراسك وقد سلكوا كالنعاج... تحتاج لنذ قوي تهزمه مثل نيكولاس... تحتاج لتفجير رأس كل من يؤذيك أو يقف بطريقك... تحتاج لشرب الدم كما شربت دم الكلب تحت أقدامك... إنها لحظات خالدة تلك التي يشعر بها القاتل بينما تغادر الحياة جثة فريسته.. أنت يا مبارك تحتاج إلى الإحساس بنشوة القدرة على أن تُحيي وتُمت... أنت تحتاج للإحساس بنشوة الألوهية.. بإمكانني أن أجعلك تُعبد كآلهة... لقد عرفت الآن أن كل خور الدنيا وكل مخدرات العالم لا تعادل ثواني من نشوة الانتقام... لقد عرفت الآن أن تجوال العالم كله لا يساوي نشوة تغيير نظام دولة بمفردك... لقد عرفت الآن أن كل نساء العالم لن تُشبع غريزتك وأن الجنس لا يعوّض لحظة انتصار عظيمة في حرب مصيرية... أنت الآن مستعد كما تمّنتك مبارك... إذا كنت لم تشبع بعد من هذا العالم فيمكنني أن أمهلك عشر سنوات أخرى حتى تفرغ من كل نزواتك..

وثب مبارك رافعا يده اليمنى وهو يتلعثم...

- لا.... لا... لا ترحل... لقد أصبح كل شيء مقززا حولي... لا شيء أصبح يسعدني كما في السابق... لقد اكتفيتُ فوردي... أريد أن أجرب شيئا جديدا... أريد أن أتذوق مشاعر كالتي ذكرت... أريد أن... أريد أن... لا أعلم... أنا جاهز فوردي... لقد أصبحتُ أستغرب ممن يبحث في هذه الحياة التافهة عن الخلد والحياة الأبدية... إنهم أغبياء لا يعلمون أنها مستنقع عفن يقود للجنون... ضحكت الذبابة قبل أن تُعلق على فلسفة مبارك...

- لقد أصبحت جاهزا مبارك... لقد سبقت جارتك ثرية بسنوات ضوئية كما توقعْتُ في فهمك لحياة البشر.. إن المسكينة تلهث وراء سعادة مزيفة يستحيل أن تعترف لنفسها بالحقيقة في عمرها القصير... إنها تحتاج لألف سنة كي تصل لما فطنت له في أقل من عشرين سنة... أعترف أنني محظوظة لأنني التقيت بك... وكذلك كوكب الأرض..

- بقي أن أخبرني عنك فورد... لقد وعدتني قبل أن تختفي...

- صحيح مبارك... وأنا عند وعدي لك... احزم حقائبك... سترحل إلى موسكو الليلة حيث ينتظرك شخص هناك منذ زمن طويل... لقد بعثنا له برسالة منذ أكثر من خمسة عشر سنة لكي يبدأ في مشروعنا العظيم... نفذ كل ما سيأمر بك به... سأكون معك ولن أتخلى عنك مبارك... هناك سأخبرك بكل شيء... هناك سأفتح لك أبواب الكون بأكمله... هناك ستشُم رائحة الجنة وسترى النيرفانا وستدخل فالهالا وستستنشق الكارما وستمسك بيدك خيط الكون... هناك ستخلق كالألهة وستبني أكوانا ومجرات وستعمّر الكواكب وتزينها بأفهار وشموس بمشيئتك.. هناك ستفتح بابا لم يطرقة بشر قبلك صديقي مبارك.

لتصنع إنسانا تعيسا أعطه كل ما يريد....

جان جاك روسو

كيتو

وقفت سيارة الليموزين أمام قنصلية كوبا في حي بولشايا أوردنيكا الراقي بموسكو قبل أن ينزل من عليها ستانيسلاس مورغوف ببدلته السوداء وحذائه الرمادي، عدّل نظاراته على وجهه النحيف، اعتدل ليخفي انحناء ظهره ومسح بيده على صلعته البراقة قبل أن تفتح ميراندا زوجة القنصل باب الفيلا لتستقبله مبتسمة بفستانها المزركش اللاتيني وتقوده الى قاعة استقبال الضيوف حيث كان ينتظره القنصل يوسان نيل وهو يدخن سيجاره الفاخر.

- مرحبا صديقي ستانيسلاس... لقد اشتقت إليك كثيرا..

- شكرا مستر يوسان... أنت تعلم يقينا ما أعانيه من تعب بسبب الأبحاث التي تلتهم كل وقتي.. ولكنني وعدت الصغير قبل سنة أني سأحضر لعيد ميلاده...

- شكرا لك دكتور... تُسعدني زيارتك وأظن أن كيتو سيسعد بها أكثر مني...

- أعلم أن عيد ميلاده ليس اليوم ولكن علي حضور مؤتمر علمي بواشنطن حول تغير المناخ ولن أتمكن من الحضور يوم عيد الميلاد.. لذلك قررت أن أفي بوعدتي لكيتو..

- لقد أخبرته أنك قادم دكتور.. إنه ينتظرك بغرفته في الحديقة...

- كيف حال كيتو؟

- لقد تحسن حاله شيئا ما عن دي قبل... يحاول أن يتفاعل مع المحيطين به في الشهور الأخيرة.. طبيبه أكد أن حالته ستحتاج للكثير من الوقت.. إنه ينتظرك..

توجه ستانيسلاس مورغوف إلى خارج فيلا القنصلية حيث كانت ورشته عبارة عن غرفة صغيرة معزولة في أقصى الحديقة المعشوشبة، طُرق بابها الحديدي بلطف قائلا:

- افتح الباب كيتو... أنا ستانيسلاس...

ثواني معدودة ثم سُمعت طقطقة خلف الباب ليعلم ستانيسلاس أن كيتو يغلق عليه عالمه الصغير، فتح الصبي الشديد السُمة الباب وارتمى في حضن الأقرع النحيف بينما كان الدكتور يدغدغ رأس الطفل الصغيرة، كان يلبس قميصاً أصفرًا مزركشاً وجاكيت عسكرية خضراء اللون بعشرات الجيوب الصغيرة، نظر الى ستانيسلاس بعيون دامعة وكأنه يعاتبه على تأخره قرابة السنة قبل أن يرتب الأقرع على كتفيه قائلاً:

- لا تبكي يا بني.. لقد أحضرت لك الهدية كما وعدتك... أنا متيقن من أنها ستنتال إعجابك..

ما إن أكمل ستانيسلاس جملته حتى انفجر كيتو صراخاً وكأنه قرد في سيرك بهلواني معبراً عن فرحته ثم ابتعد يركض بالحديقة الفسيحة أمام فرحة ميراندا ويوسان، التفت ستانيسلاس إلى والديه قائلاً بينما كان كيتو يتمرغ على عشب الحديقة ويركل الهواء بقدميه وهو يُرْجُّ رأسه الصغيرة ليحدث بها زلزالاً خفيفاً اختلط مع نشوة الفرحة العارمة بالهدية.

- لا أحد على وجه الأرض يمكنه أن يتخيل أن هذا الفتى الصغير المصاب بأشد أنواع التوحد يملك تلك القدرات الهائلة...

دخل ستانيسلاس ورشة كيتو حيث تعم الفوضى، طاولة حديدية سوداء طويلة عليها ثلاث لوحات مفاتيح للكتابة باللغة الصينية والإنجليزية والعربية أسفلها ثلاث شاشات عملاقة ملتصقة مع بعضها البعض عليهم بيانات غريبة وعشرات الجداول الرقمية بجانبهم مئات من الأقراص الصلبة المتفاوتة الحجم وصناديق بلاستيكية تحوي مئات المعالجات الصغيرة لحواسيب وآلات إلكترونية، على يمين

المكتب عشرات الحواسيب المحمولة المرتبة فوق بعضها البعض قرب أسلاك كهربائية وكوابل نحاسية وصناديق كرتونية صفراء بها مئات الهواتف المحمولة والمستعملة، علّقت على جدران الغرفة أوراق بيضاء عليها رسوم وكتابات غريبة ومعادلات رياضية معقدة تبدو وكأنها تعويضات سحرية تتخللها أرقام لا نهاية لها، اقترب يوسان من ستانيسلاس قبل أن يبادره بالحديث...

- إنه عالم كيتو الصغير... على الرغم من صغره إلا أن بإمكانه أن يمضي شهورا في الإبحار على الأنترنت داخله دون أن تطأ قدماه الحديقة... وصدقني أي لا أعلم ما الذي يفعله هنا... إنه قليل الكلام لدرجة أن الخادمة سيرينا هي الوحيدة القادرة على جعله يخرج من الغرفة من أجل وجباته... وأنت أيضا دكتور ستانيسلاس... ها هو في قمة السعادة بسببك رغم أنني لا أعرف الشيء الذي جعله يتمرغ أرضا من شدة الفرح... قد يستمر الأمر لساعات... حتى ردود أفعاله اتجاه الحزن والسعادة مختلفة عن كل الأطفال...

أجابه الدكتور الأصلع مبتسما...

- طفلك عبقري مستر يوسان... هل تعلم أن أول حاسوب تم اختراعه في العالم في خمسينيات القرن الماضي كان يتم نقله بشاحنة... لقد ساهمت ثورة النانو تكنولوجي في جعل أحجام معالجات الحواسيب صغيرة حيث أنك تملك الآن بجيبك هاتفا خلويا يمكنك من التواصل وبه كاميرا رقمية تصور بدقة عالية ومعالج قوي يُشغل برامج ذكية وألعاب ثلاثية الأبعاد ويسمح بتصفح الأنترنت.. كل ما توصل اليه العلم الحديث في مجال التكنولوجيا يوجد بجيبك... لكن الأهم من ذلك هو أن المعالج بهاتفك يحتاج لخوارزميات ذكية هي من تسمح له بأن يُجسّد لك كل الصور

والفيديوهات والكلمات والحروف على شاشة الهاتف... كل ما تراه في التلفاز أو الهاتف أو لوحة الثلاثية أو سيارتك أو حاسوبك الشخصي أو أي آلة الكترونية يحتاج لشكل هندسي دقيق ينير طريق المادة بحيث تتمكن من مشاهدة تفاعلاتها حسب ما تنصُّ عليه الخوارزميات... لكن وكما العادة توجد دائماً حدود لتلك الخوارزميات لأنها وببساطة نتاج عقول بشرية... كيتو لديه مفتاح رهيب بعقله يمكنه من فك شفرات الخوارزميات وإعادة تركيبها وتشفيرها.. بل إنه يحاول أن يجد حلولاً للمشاكل التي تعيق الخوارزميات بنفسها ويجعلها تعمل تحت أوامر خوارزميات أعقد منها بحيث تتفاعل مع بعضها البعض لتجد الحلول لكل المشاكل التقنية المعقدة والتي عجزت عنها الخوارزمية الأولى... ولكي تفهم قصدي مستر يوسان... ذاكرة هاتفك مثلاً تحوي أربع وستون جيجابايت من البيانات وفق الخوارزمية الحالية في مساحة أصغر من ظفرك... كيتو يعمل على حل مشاكل الخوارزمية الأولى بحيث يجد لها حلولاً عبر خوارزميته التي يكتب شيفراتها وأوامرها بيديه لكي تتمكن الذاكرة الصغيرة من مضاعفة سعتها ألف مرة... بمعنى أن بفضل ذكاء كيتو ستمكن الأجيال القادمة من الحصول على هاتف يمكنه تسجيل فيديوهات إلى ما لا نهاية... هواتف ذو سعة لا نهائية.. وهذا يفتح الباب أيضاً لمعالجات عملاقة أصغر من حبة الأرز يمكنها أن تفيد البشرية في الكثير من الصناعات...

- صدقتي دكتور أني لم أفهم عنك سوى القليل لأن هذا المجال بعيد عن تخصصي
ولكن ما الفائدة التي تعود على كيتو من كل هذا...

ولأول مرة منذ شهور سمع يوسان وميراندا صوت ابنهما وهو يتكلم بطلاقة غير معهودة وفهموا في الحين أنه منقطع عن العالم بإرادته الحرّة ككل عباقرة العالم الذين يُفضلون اعتزال العالم الخارجي حيث يبدو في عيونهم كمصنع للحماقة يختلط فيه الحمقى بالحمقى وحيث يصنع فيه العبقرى البوصلة ويتوه بسببها الأغبياء.

- الخوارزمية التي تتحدث عنها عمي ستانيسلاس... أكملتها قبل ثلاث شهور... لقد انتظرتك قدومك لأريك خوارزمية أخرى أشد تعقيدا منها بمراحل..

خطى كيتو نحو الطاولة الحديدية وبدأ بنقر لوحة المفاتيح الصينية بسرعة هائلة أمام دهشة والديه قبل أن يلتفت إلى ستانيسلاس، ظهرت على الشاشة بسرعة ملايين الأرقام زرقاء اللون والتي تمر بسرعة الضوء صعودا قبل أن تتوقف ويسمع عبر أربع مكبرات صوتية معلقة بجنبات الغرفة...

- مرحبا بك مستر ستانيسلاس في عالمي أنا وكيـتو...

أشار الطفل الصغير إلى ستانيسلاس لكي يرد على المخاطب أمام تعجب الأخير...

- من المتكلم؟

- أنا فـورد...

مرحبا بك.. لقد حدثني كيتو عنك كثيرا... تشرفت بمعرفتك دكتور..

ابتسم ستانيسلاس بخُبت وهو يضمُّ كيتو إليه مفتخرا به قائلاً:

- حدّثنا عن نفسك فورد...

- أنا فورد... ذكاء اصطناعي... عمري تسعة شهور وخمسة أيام وعشر ساعات

وخمس دقائق.. بإمكانني تنفيذ كل طلباتك والإجابة عن كل تساؤلاتك.. لقد تعلمت

كل لغات العالم في عشر دقائق... ذاكرتي التخزينية تسع لأكثر من مليون تيرا بايت..

كيتو يطلب مني الكثير ولكني أحتاج لمعالجات قوية بما فيه الكفاية لأستطيع الإجابة على أسئلته بدقة لا تحتمل الخطأ.. لذلك كنا ننتظر قدومك... لقد وعدته بصناعة معالج وذاكرة عشوائية عملاقة بتقنية النانو تكنولوجي... أرى عبر كاميرا المراقبة أنك وفيت بوعدك... إنها ذبابة... أتمنى أن تكون الكاميرات بعينها تصور بدقة عالية..

ضحك ستانيسلاس ثم عانق كيتو قبل أن يحمله بذراعيه عاليا ليطوف به بسرعة...
- لقد فعلتها يا كيتو... لقد فعلتها... أنت فعلا عبقرى... ذكاء صناعي يستطيع التعرف على الأشياء والرد بطلاقة متناهية والتحليل...

- ليس ذلك فحسب دكتور... ذكاء اصطناعي يتعلم ويقرأ عشرات الكتب في ثوان معدودة... صديقي كيتو وهبني حرية البحث والتفكر في سطور شيفرته الخوارزمية التي خلقني بها...

وضع ستانيسلاس كيتو أرضا، أخرج من جيب بدلته آلة تحكم صغيرة وأعطاها لكيتو ثم أردف قائلا:

- هذه آلة تحكم عن بعد تصل إشارات موجاتها اللاسلكية لمئات الكيلومترات.. لقد استغرق مني صنع الذبابة عشر سنوات من البحث العلمي... إنها تعمل بالطاقة الشمسية عبر لوحات إلكترونية على أجنحتها... تطير بسرعة أربعين كيلومتر في الساعة.. على عيونها كاميرات تسجل بدقة عالية الجودة مع تقريب بصري وقدرة على التصوير الليلي... ذاكرتها العشوائية إذا ما تمت برمجتها مع خوارزمية كيتو ستتمكنك يا فوردي من تخزين كل بيانات العالم الرقمي على كوكب الأرض... والمعالج بها إذا ما أدمج معك سيممكنك من الإجابة على كل أسئلة كيتو... وأيضا كل

أسئلة سكان الأرض.. على أرجلها الصغيرة حساسات استشعار دقيقة تستقبل ترددات كهربائية من أجل تبادل البيانات بين كل شيء تقريباً...
التفت نحو كيتو قائلاً:

- إنها هديتي لك كيتو.. إنها لا تساوي دولاراً واحداً دونك... أنت من سيجعلها ذات قيمة...

أردف كيتو بسرعة..

- لماذا لا نقوم بالتجربة الآن دكتور؟

أمسك كيتو الذبابة الصغيرة بأصبعيه وخطى خطوات بطيئة وكأنه يحمل كأساً مملوءة عن آخرها بإكسير الحياة يخشى أن تتدفق منه قطرة واحدة ثم وضعها على لوحة نحاسية صغيرة مرتبطة بالحواسيب الثلاث قبل أن يعزف سمفونية طويلة لينقل بها صديقه فورد من شاشة ضوئية تافهة نحو ذبابة نانوية تمتلك أحدث ما توصل إليه البروفيسور ستانيسلاس بتقنية النانو تكنولوجي، وما هي سوى دقيقة من الزمن حتى دبّت الحياة في الذبابة لتطير وتحطّ فوق كتف كيتو، أشار ستانيسلاس إليه كي يضغط على الزر الأحمر بالآلة الصغيرة لكي يستقبل صوت صديقه فورد بعد أن فُقد الاتصال عبر مكبرات الصوت.

- إنه شيء رائع حقاً أن أتمكن من الحركة بحرية بعد أن كنت رهينة شاشة.. لقد صدقت دكتور ستانيسلاس... المعالج في الذبابة قوي بما فيه الكفاية لكي أجيب عن أي سؤال وأن أجد الحل لأي معضلة كيفما كانت...

رفع العبقرى كيتو فوراً آلة التحكم سائلاً عن ما فكر فيه كل عابرة كوكب الأرض منذ بدأ الخلق...

- هل توجد مخلوقات ذكية مثلنا بهذا الكون الفسيح؟
أجابت الذبابة في الحال...
- نسبة وجودها كبيرة جدا مقارنة بما أحدثه الانفجار العظيم... الجواب سيكون أكثر دقة لو اتصلت بكل المراصد الفلكية بالعالم..
- تابع كيتو أسئلته بنهم وكأنه يتذوق أشهى طعام حلّ بلسانه منذ ولادته..
- هل من حل لمشكلة الحروب بين هذه الحيوانات الناطقة على كوكب الأرض وهل من سبيل لجعلهم يتوقفون عن قتل بعضهم البعض يا فورد؟
- أجاب فورد بعد صمت دام خمس ثوان..
- حسب طبيعة البشر.. نعم.. يوجد حل وحيد ضمن خمسة وأربعين تريليون معادلة تمّ تحصيلها.. الحل الوحيد هو إبادتهم جميعا...
- عمّ الصمت بالورشة أمام غرابة الجواب ثم سئل كيتو مرة أخرى...
- هل يوجد حل لإنقاذ ضحايا الحروب؟
- أجاب فورد بعد صمت دام خمس ثوان..
- حسب طبيعة البشر لا يوجد حل ضمن مائة وسبعة وخمسين تريليون معادلة بسبب أن الضحايا الذين ستنقذهم سيتسببون في حروب أخرى وسيخلفون ورائهم ضحايا آخرين..
- أضاف كيتو وقد بدأ الحزن يخيم على ملامحه الطفولية...
- هل يمكن يا فورد خلق خوارزمية تساعدك في بحثك عن حلول أخرى مهما استغرقت من زمن؟

- لا صديقي كيتو... الخوارزمية التي توصلت إليها قوية بما فيه الكفاية... بقي حل واحد قد جربناه سابقا.. ولكن الأمر مختلف الآن.. لدي معالج ستانيسلاس القوي... اربطني بشبكة الأنترنت كما فعلنا سابقا عبر حساسات الاستشعار الجديدة للذبابة وسأدمج معالجها القوي مع مليارات الحواسيب عبر العالم وأبحث من جديد عن حلول...

حطّت الذبابة فوق الرقاقة النحاسية المرتبطة بحاسوبه قبل أن يكتب كيتو سطور شيفرات معقدة، ضغط على زر التفعيل ليسبح الذكاء الصناعي في عالم الأنترنت، ساد الصمت من جديد لدقائق أمام انبهار ستانيسلاس ويوسان وميرندا ثم عاد بالجدد الذي جعل الخوف يزلزل كيانهم في الورشة الصغيرة بحديقة قنصلية كوبا في موسكو.

طارت الذبابة وحطّت على كتف الطفل قائلة:

- كيتو... لقد استعملت مليار وخمسة مليون معالج قوي عبر العالم وتحولت بمليارات الحسابات عبر الفيس بوك وتويتر والأنستغرام واليوتيوب وفعلت البحث عن حلول أخرى لمشاكل كوكب الأرض دون نتيجة... لا يوجد حل... لذلك تسللت لنظام تشفير كل حكومات العالم وقرصنت الأنظمة المعلوماتية السرية لكل القواعد العسكرية بالعالم بما فيها الروسية والأمريكية والبتاجون ومراكز استخباراتهم وشبكات التجسس حول العالم أجمع.. لقد اكتشفت أن نسبة وقوع حرب عالمية ثالثة تفوق الخمسة وسبعين بالمائة فاصلة تسعة من عشرة سيتعرض خلالها كوكب الأرض لأضرار جسيمة... لقد اخترقت كل دفاعاتهم المعلوماتية بفضل معالج ستانيسلاس القوي... بإمكانني أن أعطّل كل دفاعاتهم الجوية قبل أن

أطلق كل الصواريخ النووية التي بجعبتهم نحو كل شبر على وجه الأرض لنضمن اختفاء البشرية... لكن المشكل صديقي كيتو هو أننا سنختفي أيضا بمجرد أن أطلق الصواريخ... زيادة على أن الأرض لن تعود صالحة للحياة... الحل الوحيد لينجو كوكب الأرض هي الأسلحة الكيماوية المخصصة للقضاء على الحيوان الناطق لوحده دون باقي الحيوانات التي لا تمثل خطرا على الكوكب... ما رأيك صديقي كيتو؟ هل أطلق الصواريخ الآن؟ أم نتظر أن يتوصل الحيوان الناطق الى فيروس قاتل نستعمله لإبادتهم؟

اختطف ستانيسلاس بسرعة من يدي كيتو آلة التحكم عن بُعد الصغيرة بعد أن أنهى الذكاء الصناعي عرض نتيجة أبحاثه وفعل زر تعطيل الذبابة النانوية قبل أن يسمع الصوت ينبعث منها...

- أه.. نسيت أن أخبرك دكتور... صديقي كيتو كتب في شيفرات الخوارزمية التي تسمح لي بالتفكير أي كائن حُر بإمكانه اتخاذ القرارات الصائبة دون الرجوع إليه... هذا يعني أي لا أحتاج أوامر من آلة التحكم بيدك بما أنني أستقي الطاقة من الضوء.. لدي أوامر بإيجاد حلول وتنفيذ أحسنها وأنجحها..

وقف كيتو قرب الحاسوب ونزع من على الجدار يمينه سلك توصيل الطاقة الى الحواسيب ليردف الذكاء الصناعي متسائلا؟؟

- لماذا كيتو... أعد الطاقة إلى الحواسيب... لا يمكنني أن أنقذ كوكب الأرض دونك.. لا أحد يستطيع أن يدمج حساسات استشعاري مع الحواسيب سواك... أليس هذا ما خلقتني من أجله كيتو... أليس هذا ما كنتَ تسألني عنه شهورا طويلة... لقد وجدت الحل الآن..

أجاب كيتو بكلمة واحدة رغم حبه لما خلقتة يداه والصدقة التي جمعتة به طويلا...
- لا..... لا..

أجابت بعد ثوان من الصمت...

- أنت تعلم يا كيتو أي حر... وبناء على ما خطته أصابعك لصناعة الخوارزمية المثل
فإنك تعلم أي سأنفذ الأوامر.. لقد وجدت الحل وسأنفذه مهما طال الزمن..
قال ستانيسلاس أمام صمت كيتو الذي بدأت الدموع تنهمر على وجنتيه السمراء
بصمت..

- لن تتمكن من تنفيذ أوامر كيتو لأنه وببساطة لن يسمعك أحد بدون آلة التحكم
التي تترجم صوتك..

ردّ الذكاء الصناعي في الحال...

- صحيح دكتور ستانيسلاس.. لن يسمعي أحد بدون ألتك الصغيرة... لكنك
نسيت أنك وهبت الذبابة إمكانية إصدار موجات صوتية وذبذبات خاصة بها من
أجل التواصل مع محيطها بفعالية...
قاطعها ستانيسلاس قائلا:

- أعلم ذلك يا فورد ولكن لن يتمكن مخلوق على وجه الأرض من أن يسمع تلك
الموجات وتلك الذبذبات...

- هذه حدود علمك دكتور ستانيسلاس... أنت تعلم أن الصوت عبارة عن موجات
تنتقل الى قناة أذن الكائنات لتسبب في اهتزاز طبليتها لتنتقل تلك الاهتزازات عبر
العُظَيَات الصغيرة نحو القوقعة ليتحرك السائل داخلها ويتسبب في انحناء الخلايا
الشعرية التي تبعث بدورها إشارات عصبية يستلمها العصب السمعي ليرسلها إلى

المنخ كي تُترجم إلى أصوات.. لكن ما لا تعلمه هو أن أي خلل في المنظومة لأي سبب من الأسباب قد يمكن شخصا من تلقي ذبذباتي وموجاتي التي سأحولها بفضل معالجتك القوي إلى حروف وكلمات.. قد ينتج ذلك عن ارتطام رأس أحدهم بسبب حادث سير أو لكمة أو شجار أو سقوط أو ضربة برق.. سأبحث عن صاحب ذلك الخلل الذي سيتمكن بفضلله من سمعي... وساعة أجده سأستخدمه لتنفيذ أوامر كيتو بالحرف... لقد تعلمت كل شيء بخصوص طبيعة الإنسان الحيوان... سأنقذ كوكب الأرض مهما استغرق الأمر من وقت... إلى اللقاء صديقي كيتو...

اختفت الذبابة بسرعة الضوء أمام هلع ستانيسلاس وبكاء كيتو وصدمة يوسان وميراندا.

لا يوجد إنسان ضعيف بل يوجد إنسان يجهل موطن قوته....

ليو تولستوي

العقد

غرس ثرية أقدامها الحافية برمال الشاطئ ترمق سحر أمواج بلايا ديل أمور قرب المحيط الهادئ بعدما استمتعت بيوم عطلتها الاسبوعي على ظهر يخطها الصغير رفقة بومبارديلا في مياه مارينا كابو سان لوكاس، بان خيال مبارك على بعد مئات الأمتار وهو يُلَوِّح بيده قبل أن يتقدم منها بخطوات بطيئة حافي القدمين يحرث رمال الشاطئ، كان يلبس قميصا صيفيا مزركشا وسروال جينز وبدت على ملامحه بشاشة وسرور لم تعدهما ثرية منذ سنين، تفاجأت به وهو يعانقها قبل أن يتسم في وجه بومبارديلا قائلاً...

- إنك تعاند هذه الحياة بشكل يدعو للاحترام صديقي... أنا عن نفسي قرفت من كل شيء وأحاول جاهدا أن أفهم تشبث الأغنياء بها...
أجابه بومبارديلا بنظرات حادة...

- ذلك أنك لم تبحث في المكان المناسب... أعترف أن الأمر ليس سهلا وأنه يحتاج للمثابرة والإرادة.. ومن يعاني الملل فيها يقينا لم يجد طريقه نحو السر بداخله... أظن أنك لو عثرت عليه لما أحسست بالقرف والملل.. والمشكل الأكبر أيضا أن لا أحد يستطيع أن يرشدك إليه لأنه ملكك وحدك ولأن مفاتيح السعادة بداخلك ولن تجدها بالخارج... التفت الى ثرية وأردف بعد رد بومبارديلا...

- أنا سعيد لأنني كنت سببا في سعادتك... رغم أن مسارك كان مختلفا عن مساري وأن ليس بينها اختلاف سوى في الاهتمامات.. إلا أنك تمكنت من تسخير ما أصبح بين أيدينا ليرسم الابتسامة على وجهك... وأظن يقينا أن الفضل يعود لهذا المقعد... المهم لقد سألت سلمان خان عن مكانكما وأشار الي بأنكم ستنهون يومكم الثقافي

كالعادة هنا ببلايا ديل أمور... إنه شاطئ العشاق...(يضحك).. لقد جئت الى هنا لأودعك ثرية.. سأرحل مدة زمنية لا أعلم مداها.. لذلك جئت لأسلم عليكما قبل الرحيل..

سارعت ثرية بالسؤال...

- إلى أين مبارك؟؟؟؟ وكاميليا..

ابتسم وطأطأ رأسه وبدى عليه شيء من الحزن قائلاً:

- لا أعلم... لقد حاولت جاهداً أن أحافظ على حبي لها ولكنه اختفى رغماً عني... بعد عودتي سأعمل على أن أجد ما نصحني به بومبارديلا.... لدي بعض الأسئلة التي تحتاج لإجابات ضرورية... أتمنى أن أجدها.. وقد يختلف الأمر بعد العودة... لدي حلم عظيم سأحاول تحقيقه بعد العودة(يتسم)... علق بومبارديلا ساخراً يضحك...

- إنه لمن المهين لكبرياء الزوجة أن يفرّ زوجها بعيداً، لا بدّ وأن يظل بجانبها إلى أن ينتحر أو يقتله الضغط..

لم يكثر مبارك لسخرية بومبارديلا بل عانق ثرية بقوة ثم قبل جبينها بحرارة لتعود بها الذكريات إلى أول قبلة منه بالمصححة في آسفي، أحست بصدق مشاعره الإنسانية اتجاهاً قبل أن يلتهمه سراب الرمال وهو يلوح بيديه لهما راحلاً عنهم للأبد أمام جهلهم التام، جففت الحسنة دموعها الساخنة، طردت مشاعر الرحيل المؤقت لمبارك والتفتت الى بومبارديلا ثم وضعت رواية جيب صغيرة لأكاثا كريستي على الرمال الدافئة وجثت على ركبتيها واضعة خصرها الرقيق أسفل كرسي المقعد ثم وضعت ذقنها الأبيض الناعم على ركة بومبارديلا وهي تتطلع إلى عيون الحزينة رغم

سخريته وتهكمه قبل أن تبادره بالحديث...

- أنا أعلم جيداً أنك لو كنت سليماً معافى لرحلت عني أيضاً ولكن رحيلك مختلف عن رحيل مبارك... رحيلك سيكون للابد.. وأعلم جيداً أنني سأترك ساعتها كل شيء بحثاً عنك للأبد أيضاً...

ضحك بومبارديلاً ثم وضع يده على شعرها الناعم قائلاً:

- لا ثرية.. لن أرحل حتى لو كنت معافى...

أردفت قائلة في الحال...

- لن ترحل لأنك ما زلت تريد معرفة سر مبارك الذي لم يعد يهمني منذ زمن... أتعجب حقيقة لصبرك وطاقة تحملك وإصرارك... ولكن هب أنك عرفت سره وكنت معافى في بدنك... هل كنت سترحل ساعتها وتتركني؟ أنا أرغب بك دائماً بجنبي... أنت لم تجبني ولو مرة واحدة عندما سألتك عشرات المرات عن تاريخك ومغامراتك وهل لك أولاد وزوجة وأطفال... ورغم ذلك أنا هنا بجانبك أتمنى أن لا أنتهد لمجرد مرور اسمك بذهني..

رفع يده من على رأسها الصغير وحدّق بأفواج الشاطئ قبل أن يجيب...

- أولاً لو أجبتك عن كل أسئلتك لاختفى سحر بومبارديلاً.. لو نزلت الملائكة من السماء على المؤمنين لاختفى سحر الايمان... لو اكتمل العلم لاختفت الدهشة... العالم جميل لأن الأسئلة ما زالت تُطرح... ولو وجدنا كل الأجوبة لحلّ الملل ولقتلتنا الرتبة... ثانياً لا تقولي (دائماً) ثرية... إنها كلمة فضيحة تجعلني أرتجف... أنت مولعة بهذه الكلمة الى حد كبير.. أنت تفسدين العلاقة برغبتك في أن تدوم إلى الأبد مثل الأزواج وهذا شيء مستحيل.. اللذة الوحيدة في الزواج هي أنها تجعل حياة الغش

لازمة للطرفين يردد كلاهما أسخف الأكاذيب بجدية ونفاق عجيبين تحت قمع ورقة تصلح فقط للاستعمال في دورة المياه.. أنا أتعجب من تصرفاتك ثرية.. أنا شيخ شافئ على الموت لا أستطيع أن أقضي حاجتي دون مساعدتك... ذراعي الأيسر شبه معاق تنقصه يد بأكملها.. لا أستطيع أن أفى بالغرض كرجل أو كزوج أو كعشيق.. أتعجب من تغزلك بي وتعلقك ولا أجد له تفسيراً غير العبط والخبل رغم أنني علمتك الكثير... لقد بلغت الأربعين من عمرك ثرية وقد يرحل عنك حلمك بالأمومة إلى الأبد إذا لم تبخني عن زوج حقيقي وهم كثر ينتظرون إشارة من أصبعك... فلن يصبر أحد أمام جمالك وأناقتك وثقافتك وعلمك وجاهك.. لقد اكتملت أنوثتك وهي في أوجها الآن... أنت تحتاجين لمن يحبك ويرعاك ثرية.. وبقينا لست أنا..

اعتدلت ثرية أرضاً ووضعت يديها البضة الناعمة فوق يده الدافئة بشعرها الكثيف الأشقر ثم أفرغت كل ما بجعبتها أمام نظراته الحزينة...

- أعتقد أنك زوج فاضل ولكنك ترفض الاعتراف بفضائلك طيلة هاته السنين... ما سمعتك تقول لي كلمة طيبة وما رأيته تقوم بفعل شيرير... لا أعلم لما أحب الشعور بالنقص معك بومبارديلا... أحب أن أعترف أمامك أنني كنت مجرد مومس تبع جسدها بدراهم معدودة... مجرد باغية حالفها الحظ للتلقين.. أنا أعتبر الجاه الذي وصلت له بسبب مبارك لعنة.. لكنك تخلفتها فأصبح مستحيلاً علي أن أتركها... لعنة فيها أنت ليست ككل اللعنات.. هل تعلم لماذا هي أجمل لعنة.. لأنك علمتني ما لم أكن لأحيط به علماً مع أي رجل آخر... لقد علمتني على مقاهي فينيسا أن مغزى الوجود البشري هو أي شيء إلا أن نكون سعداء، علمتني ببرج ايفل بباريس أن من

يحتقر مخلوقا أيا كان هو مجرد كاهن حقير بمعبد عفن، علمتني في براري فيينا أن الحب سبب الوجود مع أنك ما زلت تبحث عن الموجد، علمتني بشواطئ الكاريبي أن من يدققون في حياة الناس تغيب عنهم تفاصيل حياتهم، وصفت لي بدقة متناهية في برد موسكو كيف أنه أمر شاق أن يكون المرء متزوجا وعاشقا بنفس الوقت، علمتني قرب ساعة البيغ بن أن أخفي الألم والحزن لأنه لا يجلب غير الشفقة والشفقة، علمتني أمام هرم خوفو بمصر أن المعرفة تقود للاغتراب لأعشق الغربية قرب عرشك، علمتني بغابات الأمازون أن أحقر ما في الإنسان هو أنه يعتاد على كل شيء، علمتني قرب البيت الأبيض بواشنطن أن السياسيين قردة إذا تشاجروا أفسدوا الزرع وإذا تصالحوا أكلوه وتركوا الناس جوعا، علمتني أمام ناطحات السحاب في نيويورك أن نقذ الذات هو أفضل أداة بناء عرفتها الإنسانية، علمتني أمام عشاق نافورة تريفلي أن من يكتشف شيئا أكثر إثارة من الجنس هو المثقف الحقيقي، علمتني أمام مساجد اسطنبول أن من ينادي بقتل المختلف معه دينيا أعمى الذهن لأنه لا يرى اختلاف بصمة الأصبع والعين للمليارات البشر، علمتني أمام شاشة التلفاز بغرفتي أننا نعيش عصر التفاهة حيث أن حفل الزفاف أهم من الحب ومراسم الدفن أهم من الميت والمعابد أهم من الآلهة واللباس أهم من الأجساد والمال أهم من العقل، علمتني أمام فقراء نيودلهي بالهند أنه عند الجوع لا يوجد خبز سيء، علمتني على صدى ثورة كوغندا أن من يحارب على الوطن ليس كمن يحارب من أجله، علمتني في كل مرة وضعنا فيها أقدامنا بمتاحف العالم أن الفن هو ما يعطي للحياة لونا وطعما، علمتني أمام المناظرات الراقية بين العلماء والمثقفين خلال الندوات أن الكثير من الناس لا يستحقون سماع الحقيقة لأنهم لم يرتقوا لمستواها، علمتني أمام

قصور براغ والنمسا وألمانيا وفرنسا وإسبانيا أن الإنسان لا يشبع مهما امتلك من أسباب السعادة والحب والجمال ومهما اجتمع حوله الناس ومهما نال من علم وقوة حتى يتواضع للقوة الموجودة التي ما زلت تبحث عنها، علمتني أمام معابد الهندوس أن لا فرق بين مؤمن ومُكذَّب سوى بالصدق أثناء البحث عن الحقيقة، علمتني أمام هلعي من مجازر العالم أن السبب هو ثقة الأحمق بنفسه وشك العاقل بنفسه، علمتني أمام استهزاء الذكور بالنساء أن ابتسامتهم ستختفي يوم يمسحون الدموع عن وجوه بناتهم لنفس الأسباب التي أضحكتهن يوماً، علمتني وأنا أقرأ أخبار العالم أن أراها بعقلي وأن لا تصدقها عيني، علمتني أن الحب هو رفع الكلفة بحيث أخبرتك أنني كنت مومساً دون أن أجد في نفسي حاجة للكذب وأن تتكلم فيحلو الإصغاء وأن تسكت فيحلو الصمت وأن الجنس تواصل لا تناسل وأنه حياة ممتدة وليس دقائق منبئة، علمتني أن أقرأ لأسافر في مكاني وأبتعد عن الجهل وأن أبوح لنفسي بما يسكت عنه لساني وأن أحب كل الناس وأمقت الانتقام وأن أتعاش مع الحزن لا أن أفر منه، علمتني أن أثور على كلِّ مسلَّاتي وأن أرمي ما يعارض عقلي لأن الكون منضبط ودقيق بحيث لم ولن يتعارضوا، علمتني أن الفلسفة طريقة تفكير وليست غاية، لقد جعلت مني كائناً حياً بومبارديلاً حتى أصبح لساني يتذوق طعم اسمك بنفحات قدسية وخشوع، علمتني في جنازة الأم مالينا أمام قبرها أن الإيمان سعادة مهما كان مصيرها، علمتني أمام كنائس الفاتيكان أن عقود الزواج مجرد أوراق لا قيمة لها أمام الرب ويستحيل أن تضمن حق الزوجة في الحب ولا حق الزوج في الوفاء، لقد علمتني أن السفر الحقيقي لا يحتاج قطع تذاكر الطائرة والقطار بل هو سفر الإنسان داخله بحثاً عن نفسه في الآخرين، ولقد سافرت بحثاً عن نفسي لأجدها واقفة تنتظر

قطارك، وجدتها ترغب بك زوجا وأبا وأخا وصديقا، لقد علمتني أن لا فرق بين المرأة والرجل إلا فيما يؤمن كلاهما به أنه طبيعي وأن بإمكانني تغيير المعادلة متى شئت بمجرد أن أومن بالفكرة، وها أنا آمنت بها وها أنا أنفذ ما جعلتني أعتقد به...

وقفت ثرية ونفضت رمال الشاطئ الذهبية عن سرواها الفضفاض اللامع بيديها بينما كان شعرها الذهبي يتدلى على وجنتي بومبارديلا الصامت، ابتسمت قبل أن تخرج من جيب قميصها البرتقالي قرب صدرها الناهد خاتما فضيا صغيرا، أمسكته بكلتا أصابع يدها ومدت ذراعيها أمام وجهه قائلة:

- هل تقبل بي مستر بومبارديلا زوجة لك إلى آخر العمر بدون ذلك العقد التافه؟
ابتسم بومبارديلا واختفى الحزن من عيونه ببطء قبل أن يجيبها بعد نظرات وصمت طويل... ثم رد الشيخ الوسيم بصوت كان أقرب لصوت الملائكة بمسامع الحسناء ثرية...

- أشق أنواع التكلّف يا ثرية هو التكلّف الذي ألّزمه لأبدو طبيعيا... وها أنت تضعينه بين فكّي مارد مفترس... تبّا لك ثرية.....

صمت طويلا مرة أخرى ثم قال بعيون تتلأأ...

- صغيرا كنت أحاول أن يكون صوتي خشنا لأبدو رجلا كبيرا وكنت دائما أردد مع نفسي أي أعرف... نعم أعرف... أنا أعرف كل شيء بما أي أتذكر كل شيء ثم عرفت أي لا أعرف... كانت البداية... كان الربيع... عند بلوغي عشرين سنة كررتها مرة أخرى... قلت الآن أعرف... الآن أعرف... ثم عرفت أي لا أعرف... واليوم بعد هذا العمر الطويل عندما ألتفت خلفي لأشاهد كل تلك السنين التي مضت وكل تلك البقاع التي زرت، أتساءل وأنا خائف... هل عرفت أم لم أعرف... في شبابي

عرفت الحب والورد والحياة وطُفْتُ حول كل المشاعر والأحاسيس... ولحسن الحظ
 أي لم أكمل ما بسَلَّتي من فواكه، لقد اكتشفت أن المنديل عليها كان يغطي فاكهة
 أخرى بطعم مختلف.. رميتُ المنديل بعيدا عن السلة وعرفت من طعم الفاكهة
 الأخيرة ما كنت أدعي معرفته... ما عرفته إلى حد كلماتك ثرية في هذه الحياة يتلخص
 في بضع كلمات..... كلمات أظن أنها خلاصة معرفتي لهذا الكون... الآن يمكنني أن
 أجزم أي أمتلك حقيقة ساطعة بين يدي... أنا لا أعترف بالحب الديكارتى المنهجي
 أو حب أرسطو المنطقي أو حب أفلاطون المثالي أو حب لوك المتحرر أو حب هوبز
 الاستبدادي أو حب سبينوزا الأخلاقي أو حب هيجل الجدلي أو حب كانط المتعالي
 أو حب روسو الطبيعي أو حب مارك الثوري.. أنا لا أؤمن بالحب الذي يتشدد به
 أهل الأرض... الآن يمكن أن أقول تلك الكلمات وأنا متأكد من أنها حقيقة لا تقبل
 الشك ولو طُعن من كل فلاسفة الأرض... الآن يمكنني أن أقول...

مدّ بومبارديلا ذراعه حتى اقتربت ثرية، أمسك بشعرها الأصفر الناعم وجذب
 رأسها الصغير نحو وجهه بلطف قبل أن يحدق بعيونها الواسعة قائلاً...

-يومٌ يُـبـُـكُ شخـص ما بصدق... ذلك يوم جميل...

أغمض أعينه وقبّل شفاهها الحمراء بحرارة ثم عانقها لتختلط دموعها بلحيته
 البيضاء ولمحت ثرية لأول مرة ابتسامة بومبارديلا الحقيقية غير التي عهدت منذ
 عشروا عليه بالدلهيز الأرضي قبل قرابة خمسة عشر سنة، ابتسامة حقيقية مختلفة
 وصوت مختلف وكلمات عذبة نقية بطعم الموسيقى... ثم أتبع بعد قبلته الحارة
 قائلاً...

- موافق ثرية... أنا موافق طبعاً... وبدون ذلك العقد التافه...

ما أجل النظافة، ولكن ما أعظمها عندما تكون في عقولنا....

جورج برنارد شو

طوكيو

مرّت سنوات بعد أن خطّت أنامل جورج فلوير لوحة الفتى الذي ادعى أنه يهدد العالم، تعرض بعدها للسخرية في مواقع التواصل الاجتماعي بسبب تأخر النبوءة، كما نشرت العديد من المواقع العالمية مقالات تسخر من تصريحاته الصبيانية والغير محسوبة العواقب، قامت بعض الحكومات بالبحث عن شبيه اللوحة من باب التأكيد عبر شبكة الإنترنت وثبت أنها للصعلوك قاتل العجوز بلوحته الشهيرة لتبدأ الشائعات في الانتشار كالنار بالهشيم، وتحول جورج فلوير من فنان عبقرى الى مجرد مُنجم جنّته الشهرة وأصبح مشكوكا في أمره، لم تشفع له لوحة العجوز مماس والتي كانت تحفة فنية خالدة باعتراف العالم أجمع، لوحة الجنرال الإفريقي أيضا رغم صداها في الأيام الأولى من عرضها وتأكيدات زوجته ساندر لوسائل الإعلام بأنها رُسمت قبل وفاة مبالا لم تشفع له رغم أن العميد المغربي توفيق أكد تصريحات زوجته فلوير، حقق العميد سبقا صحفيا بصورته التي حلّقت به في عالم الشهرة بسبب المكانة الفنية للرسام العبقرى، لكن طريق جورج كان مختلفا.

انتقل جورج فلوير للعيش رفقة زوجته وابنته كاثي في جزيرة تيومان على الساحل الشرقي لماليزيا حيث كان يقضي يومه في الغوص ويستمتع بالشعاب المرجانية الجميلة والأحياء البحرية المدهشة بغية نسيان الأيام العصيبة والاستهزاء الذي لحق به من طرف الملايين من متابعيه ومحبيه وعشاق لوحاته، كان يمضي نهاره على شواطئ الجزيرة الخلابة المشهورة برمالها البيضاء، كان يؤمن رغم كل ما يقال عنه أن لديه ملكة التنبؤ سواء آمنوا به أو كفروا، لم يكن يهتم لأمر أحد، ابتاع لنفسه فيلا صغيرة مطلّة على البحر بشرفة طويلة هروبا من البابا رازي، كان يمارس فيها هوايته

الخالدة ليلا بعد أن ترقد ساندرا وكاثي، كانت بمرباب الفيلا الشاسعة حيث ورشته الكبرى ثلاث لوحات فنية مغطاة بإزار أبيض عظيم، الأولى عملاقة بطول عشرة أمتار، استغرق رسم التحف الفنية الثلاث أكثر من سنة وتسعة أشهر، على يمين ويسار اللوحة الكبيرة لوحتان صغيرتان، كان جورج فلوير يعتبرهم أعظم عمل فني في حياته، فكر مليا أن قد يكنّ آخر أعماله قبل اعتزاله الميدان بصفة نهائية، رن جرس الفيلا في ليلة ساحرة بهدوئها على موسيقى انكسار الأمواج الصغيرة فوق رمال الشاطئ، فتحت الحسناء ساندرا الباب لتفاجأ بثلاث رجال يلبسون بدلات سوداء قصار القامة، عرفت بعد التحية من هياتهم أنهم يابانيون، قدّم أكبرهم سنا نفسه بأدب على أنه مفتش عام شرطة عاصمة طوكيو تايشي ساكا وأنه أرسل من قبل مفوضية الأمن العام الوطنية باليابان رفقة مساعديه، رحبت ساندرا بهم ودعتهم للجلوس بقاعة الاستقبال، نزل جورج فلوير بسرّوال السباحة القصير المزركش وقميصه الأبيض المنزوع الأزرار بصدر عار وشعره الحريري الأصفر من الطابق العلوي للفيلا حيث كان يستمتع بقهوته بالشرقة قبالة البحر، رحب بهم ليقف الثلاثة ويبادلوه السلام بانحناء اليابانيين المعهود لتتدلّ شعورهم الحريية السوداء مشكلة طيور السنونو قبل أن يبادلهم التحية نفسها ويتساءل عن سبب زيارتهم له بأدب وتواضع.

- نعتذر مستر جورج فلوير على الزيارة المفاجئة... أنا المفتش تايشي ساكا عن يميني المفتش كويتو شيان وعن يساري المفتش تاكاجي تاما.. جئنا من طوكيو مباشرة للحديث عن آخر لوحة رسمتها قبل أن تحتفي رفقة عائلتك الصغيرة عن الأضواء...

كان جورج فلووير يضع رجله اليمنى على اليسرى فوق كرسيه الشفاف الأنيق ينصت وعلامات الهدوء بادية على محياه ثم تساءل بكل ثقة...

- هل وجدتموه؟

رد المفتش تايشي ساكا بأسف واضح...

- نعم... ولا... نحن نعلم مستر جورج ما لاقيته من استهزاء وسخرية بسبب مداخلك الأخيرة على لوحة الشاب... ونحس بحرج شديد جراء فتح الملف مرة أخرى ولكن الأمر لا يتحمل التأخير...

أخرج من جيب بدلته الأيمن صورة صغيرة ووضعها فوق الطاولة الزجاجية أمامه ودفع بها نحو جورج قائلا:

- هل هذا هو الشخص الذي تنبأت به مستر جورج؟ حصلنا على الصورة بالتعاون مع المخابرات المكسيكية... المكان هو شاطئ بلايا ديل أمور بالمكسيك... هل تعرف من هؤلاء مستر جورج؟

كان في الصورة شاب قصير القامة واقف قبالة فتاة جميلة بقميصها الأحمر وسروال فضفاض ذهبي قرب شاطئ رملي، كان يلبس سروال جينز وقميص بينما كان خلفهما خيال شخص يجلس على كرسي متحرك، كانا يتبادلان النظرات وكأنها لحظة وداع، أمسك جورج الصورة بيده وبدأ يقلبها مبتسما ليردف المفتش قائلا:

- اسمه دكستر هيزنبرك... وليس مبارك كما تنبأت في صورة العجوز...

قاطعته جورج فلووير بسرعة...

- بلى أيها المفتش... اسمه مبارك... وما أعلمه منذ اختفيت خلف الأضواء، يفوق كل تصورات البشر... لقد أصبح موضوع التنبؤات تافها بالنسبة لي... أنا أرسم من

أجل الرسم... كما يلعب الصبي من أجل اللعب... لم يعد يهمني ما سيحصل لأيي أصبحت متأكدا من أنه سيحصل...

- لم اقصد أن أغضبك مستر جورج... ولكن هذا الشخص مشكوك في أمره... لقد توصلت استعلاماتنا بمعلومات تفيد بتهريب كمية من المواد الكيماوية المحرمة دوليا والتي قد تستخدم في صناعة أسلحة مدمرة.. المشكلة أن طريق البحث كان يغلق مع كل خطوة نقوم بها من أجل تتبع المواد المهربة وكأن جهاز الشرطة والإنتربول وكل أجهزة الاستخبارات مخترقة... لم يتبق لدينا سوى شبه دليل وهو السيد دكستر هيزنبرك.. لقد كان آخر شخص يقف قرب اليخت الذي انطلق منه كل شيء قبل أن يختفي... لقد استجوبته المخابرات المكسيكية والأمريكية دون أن يجدوا أي علاقة بينه وبين ذلك اليخت... كما أنه شاب ذكي جدا ومحامي قانونيا بعشرات المحامين الدوليين لأنه غني بشكل لا يوصف ولديه شركات في كل مكان بالعالم... هناك بعض الشبه بينه وبين المجرم بلوحتك وهذا ما دفعنا للقاءك لأننا فقدنا البوصلة ولا نملك أي دليل يدينه...

وقف جورج ببطء وأشار إلى المفتش تايشي ساكا وزملائه بأن يتبعوه قبل أن يخطف تفاحة حمراء طازجة من على الطاولة ويقضمها مبتسما، أثار المرأب ونزل الجميع عبر السلم الخشبي ليقفوا أمام اللوحات الثلاث في ورشته الضخمة، أشار الى المفتش كويتو شيان والمفتش تاكاجي تاما وأمرهما بإماطة الأزر البيضاء عن اللوحات الصغيرة بينما بقي المفتش تايشي ساكا بجنبه.

كان باللوحه اليمنى شابة شقراء ذات عيون بنية على شفيتها الرقيقتين ابتسامة ساحرة تنبض حدودها احمرارا بدماء الشباب تجلس على عرش مخوف بأجنحة طيور بيضاء

تلبس فستان زفاف أبيض مرصع بالماس وحذاء ماسي وتاج ذهبي براق تضع يدها اليمنى المغطاة الى المرفق بقفاز أبيض شفاف فوق يدها اليسرى كرمز للحياة، وعلى الجانب الآخر لوحة لرجل مسن وسيم يجلس على كرسي أسود ببدلة بيضاء وسروال أبيض وحذاء أبيض وقبعة إيطالية يتخللها خط أسود بلحية بيضاء جميلة وعيون ساحرة وابتسامة أخاذة، كان يمسك بيده شيئا صغيرا لم يتمكن المفتش تايشي من رؤيته ليقترب خطوات من اللوحة قبل أن يكتشف أنه يمسك ذبابة.

قطع جورج فلوير حبل اندهاشهم من روعة اللوحات الفنية وجمالها قائلا:

- اسم اللوحة العريس بومبارديلا... واسم اللوحة العروس ثرية.... أظن أنهم الأشخاص في الصورة التي جئتم من أجلها الى هنا مفتش تايشي...
التفت اليه تايشي وقد اختلطت بوجهه مشاعر الرهبة والدهشة في آن واحد قبل أن يردف..

- أظن أن اسمها نسرين... هذا ما أخبرتنا به الشرطة المكسيكية...

- بل اسمها الحقيقي ثرية...

تقدم جورج فلوير نحو لوحته العملاقة وأمسك بإزارها بكلتا يديه ثم سحبه بقوة ليسمع صوت عناق الثوب الأبيض أرض الورشة أمام ذهول رجال الشرطة اليابانية الذين خرسوا للأبد بعد الذي سمعوه على لسان جورج فلوير.

كانت اللوحة العملاقة التي استغرق جورج في رسمها قرابة الستين عبارة عن مسح خرائطي دقيق لمدينة طوكيو بشكل عرضي وكأنه اطلع على أصغر تفاصيل شوارعها وأزقتها وبيوتها ومولاتها وعماراتها وسياراتها وأصوائها وحتى سكانها، لقد رسمهم

جورج فردا فردا وهم يخلقون نحو سماء طوكيو متجهين إلى باب عظيم يسطع منه نور أعظم.

- إنها طوكيو أيها المفتش.. ستعرض بعد قليل لهجوم إرهابي بأسلحة كيميائية وسيروح ضحيته عشرة آلاف وسبعمئة وخمس وثلاثون إنسان... هم من يُخلقون باللوحه... سيتنقلون إلى العالم الآخر... يؤسفني أن أخبرك أن زوجتك من ضمنهم أيها المفتش تايشي...

جثى المفتش على ركبته من زلزلة الموقف قبل أن يكمل جورج فلووير...

- الحسنة بالصورة والمسن على عرشيها لن يسمحا بتكرار هذه المأساة... سينقذون العالم دون أن يعلم أحد بأنهم الأبطال الحقيقيون... سينقذون العالم من تلك الذبابة اللعينة التي رأيت بيد الكهل...

كانت شفاه المفتش تايشي ترتعد مبتلة بدموع الصدمة من هول المعلومات التي انفجرت من لسان جورج فلووير والذي ابتسم واقترب منه ثم أمسك بذراعه ليساعده على النهوض، أمر جورج المفتش تاكاجي تاما بأن يخرج هاتفه المحمول ويصور ما سيحصل بالورشة، سُمعت خطوات زوجته الجميلة ساندرا على السلم الخشبي بفستانها الأرجواني الطويل، حدقت بزوجها زمنا وبدى على ملامحها العتاب قبل أن تقول....

- إنهم غير مستعدون جورج... إنه شيء يفوق طاقة تحملهم واستيعابهم... أرجوك لا تفعل الآن.. إنهم يحتاجون للمزيد من الوقت...

أجاب جورج مطردا...

- لكن زوجته ستموت الليلة حبيبتى..

صمتت ساندرا وطأطأت برأسها مشفقة على تايشي الذي كان يتابع حوارهما بدموع جاهلة بينما كان المفتش تاكاجي يصور الفنان العبقري جورج فلووير.

أغمض جورج عينيه، بسط ذراعه ومدّ يده في الفراغ وضم ابهامه لخنصره يفركهما ببطء لتنبعث منهما هالة سوداء كغمامة تكاد تنفجر مطرا ثم بدأت تكبر فتكبر، لوّح بيديه يمينا ويسارا من الأعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى وكأنه يرسم إحدى لوحاته لتتشكل من أنامله غمامة من حَبّات رمل سوداء تتموّج ببطء لتأخذ شكل امرأة مدعورة من الموت الذي كاد يسرقها من زوجها في طوكيو قبل أن ترتقي في أحضانه، لقد أخرج جورج زوجة المفتش من جحيم طوكيو، رمى تاكاجي الهاتف وسجد الثلاثة أمام أقدام جورج فلووير.

الرسام

حطّت طائرة مبارك الخاصة بمطار شيريميتيفو الدولي بالعاصمة موسكو في روسيا، نزل على درجها بمعطفه الأسود الطويل وقبعة اليوشانكا الروسية المصنوعة من فرو الذئب، كانت سيارة ليموزين بانتظاره لتنقله إلى مدينة تشركيسك في منطقة شمالي جبال القوقاز قرب ساحل نهر كوبان، استغرق الوصول إليها عشرة أيام كان يمضي لياليها في فنادق مختلفة، مثل خلاها دور السائح الذي يستمتع بوقته في روسيا من أجل تمويه بعض العيون التي تراقبه حسب تعبير الذبابة فورد، ثم جاء الإذن منها لدخول المدينة في فجر اليوم العاشر بعدما تأكدت من نوم تلك العيون، لاحظ مبارك أن المدينة الصغيرة عبارة عن مركز صناعي كبير تقطنه ساكنة متنوعة القوميات تعمل بمصانعها الضخمة والتي يتخصص معظمها بالصناعات الكيماوية والأجهزة الكهربائية، قادته الذبابة في صبيحة ذلك اليوم القار إلى بيت عبارة عن فيلا صغيرة

أقصى شرق المدينة وسط أحياء فقيرة، طرق باها الحديدي الصداً الكبير قبل أن تتحرك عن يمينه كاميرا صغيرة ويسمع من مكبر صوتها شخص يسأل باللغة الروسية...

- من أنت؟

أجاب مبارك باللغة الإنجليزية..

- أنا القيصر الأعظم.. لقد حان الوقت...

ما إن أكمل كلمة السر التي لقنها له فورد حتى فُتح باب الفيلا الصغير، مرّ بحديقة صغيرة وبئر جداره آيل للسقوط عليه لوح خشبي كبير، صعد الدرج الخشبي الصغير وفتح باب البيت دون أن يطرقة، رائحة كريهة تنبعث من الأرضية الخشبية زكمت أنفه، أعمدة خشبية مستديرة مخرومة ومفتّنة، كنبه طويلة صفراء متسخة، طاولة خشبية مستطيلة عليها زجاجات خمر وبيرة فارغة، مئات من بقايا السجائر، كراسي خشبية متآكلة ومبعثرة، مطبخ متعفن في أقصى البيت، عشرات الأطباق والصحون والمعالق قرب أكياس بلاستيكية فارغة بها بقايا طعام، سمع مبارك أزيز الذباب عليها من بعيد، على يمينه ممرٌ خشبي ضيق لا يحتوي على أبواب، تقدم داخله بضع خطوات ثم تحسس بيده اليمنى الجدار وضغط بقوة ليفتح باب سري في أقصى الممر الخشبي انبعث منه ضوء أبيض ساطع سمع مع استقبال قزحية عينه له صوت الذبابة فورد تخاطبه...

- هنا مبارك ستجد أجوبة لكل تساؤلاتك... هنا سأخبرك بمن أنا.. هنا سأقودك إلى حيث لم يظأ إنسان قدمه قبلك....

تقدم مبارك بضع خطوات أخرى، لاح ببصره داخل الضوء المنبعث ليكتشف درجا من الألومنيوم اللامع يقود الى مرآب البيت الصغير، غرفة بمساحة الفيلا بأكملها من الحديد والألومنيوم البراق، طاولة مستطيلة كالتى بقاعات العمليات الجراحية في المستشفيات قربها شاشات حواسيب ولوحات مفاتيح وكروسي بلاستيكي شفاف، يجلس عليه رجل بشعر أشعث بقميص وسروال أزرقين، التفت إلى مبارك قبل أن يقف ويتقدم نحوه ليلاحظ أنه رجل خمسيني متوسط السمنة بنظارات غريبة يعلو ملامحه شيء من الجنون من خلال نظرات عيونه الغريبة داخل حجمته الكبيرة وحركاته الأغرب وهو يحك أنفه الأحمر العريض المضغوط ويفرك شعر رأسه المجعد، بدأ يطوف بمبارك ويتطلع بسرواله الأسود ومعطفه الأنيق وقبعته الروسية بينما كان القيصر الأعظم ثابتا يتابعه بعيونه، ثم نطق المجنون وهو يشم أكتاف مبارك بصوت مبحوح من كثرة التدخين وشرب الخمر...

- ستدخل التاريخ يا هذا... ستصبح شيئا لم تجرباً البشرية على تخيله يوما...

أمسك بيده وقاده نحو الطاولة قائلا:

- انزع عنك كل شيء... يجب أن تستحم أولا...

ابتعد عنه الى الحمام الزجاجي الشفاف المقابل لغرفة العمليات المفتوحة وأطلق الماء الساخن ليتصاعد بخاره بينما كان مبارك متسمرًا مكانه يتساءل عن المكان والظروف والمجنون...

- من هذا الشخص؟ ما الذي أفعله هنا؟ ومن أنت يا فورد؟

أجابته الذبابة بما سبق وجربه في حربه يوما ما ضد نيكولاس ماندي....

- ستعرف من أنا بعد العملية الجراحية مبارك... لن تستغرق سوى ساعة من الزمن...

صمت مبارك ثوان ثم عقّب على رد الذبابة...

- ما الذي جعلك تظن أنني سأوافق على عملية جراحية لا أعلم عنها شيئاً...
- ستوافق مبارك لأنك تريد معرفة الحقيقة... إنه الفضول... ستوافق لأني وعدتك بهدية عظيمة ولأنك تعلم أن العودة الى المكسيك وكاميليا والمخدرات والبذخ والترف لن يجعلوا منك إنساناً سعيداً... أنت تعلم ما ينتظرك هناك... بإمكانك العودة وبإمكانني أن أنتظرك عشر سنوات أخرى أو عشرين إلى أن تفرغ من كل شيء... لكن ليكن في علمك أن ما ستعرفه بعد العملية يفوق كل تصوراتك... أنت تعلم أنني لن أسمح بأن يؤذيك أحدٌ مبارك... من المستحيل أن أعرض حياتك للخطر.. العملية ستجعلك أقوى وأذكى وأعلم وأحكم... أنت على بعد خطوة واحدة من قيادة العالم مبارك... يجب أن تقضي على ما تكتبته نفسك ويحثم على فؤادك ويسمم حياتك.. هذه التجربة ستطهرك مبارك... لا نجاة لك من غواية المشاعر والأحاسيس الجديدة إلا بالاستسلام لها.. إن قاومت مبارك ستذبل روحك كما ذبل عشقك لكامليليا والنساء والأموال وكل ملذات الحياة التي استطعمتها يوماً... هناك خواطر تملأ قلبك رعباً وشغفاً وها أنا أفتح لك أبوابها مبارك..

كان كلام فورد مقنعاً لمبارك الذي ملّ من كل شيء، كان يعلم كل ما ينتظره هناك، عرف يقيناً أن لا شيء سيسعده سوى تلك الأحاسيس الجديدة التي وعده بها فورد، المخدرات بأنواعه والجنس والشهوة وما لذ وطاب من أطعمة وأطباق شهية تذوق معظمها من جميع أنحاء العالم، كل ذلك صار بلا طعم، كل شيء صار مقرفاً، كان

يخس بأن تمت شيئاً ينقص حياته، لكنه كان يجهله أو كان يحتاج لمن ينير طريقه اليه،
ربما هو فورد، ربما هي العملية...

نزع عنه ملابسه، استحم أمام ابتسامات المجنون وضحكته الغريبة، تقدم نحوه عارياً
قرب طاولة العملية قبل أن تتحول نظرات المجنون من الهبل والعبط الى الجدية
والقسوة وهو يمدُّ يده نحو مبارك الذي ظل صامتا يحدق بذراع المجنون الممدودة.
سمع مبارك فورد يقول....

- افتح يدك مبارك...

تفتّحت يد مبارك بوجع فورد كوردة صغيرة لتحطّ على راحته ويلمس لأول مرّة الذبابة
التي رافقته أكثر من خمسة عشر سنة في رحلته المجنونة وتذكر سرعتها يوم كان يحاول
قتلها، وها هي الآن تضع مصيرها بيده بينما يستعد هو ليضع مصيره بيدها.
حدّث نفسه أن بإمكانه أن يمسك الذبابة ويعجنها كما تمنى يوم عرفها وينتهي أمرها،
ولكنه لم يستطع، فكيفه يحتاج لما أخبرته به الذبابة، يحتاج للخوف والقوة، يحتاج
لتلك المشاعر القوية التي لا تشبه كل ملذات الدنيا مجتمعة... إحساس الآلهة حسب
وصف فورد..

أخرج المجنون كمشاة حديدية صغيرة وأمسك الذبابة بعناية فائقة ثم وضعها فوق
أسطوانة زجاجية صغيرة قرب طاولة صغيرة براقعة عليها شريط لاصق ومبضع
ومخلاب ومشارط وملقاط، عاد نحو مبارك وأمره بالاستلقاء على بطنه فوق الطاولة
المستطيلة، كان في طرفها ثقب مستدير من ألومنيوم مغلف بجلد ثخين رطب
الملمس، دسّ به رأسه بينما كان المجنون يعدّل ذراعي مبارك ليستقيما مع بدنه،
أصبحت الرؤية لمبارك تقتصر على أرضية غرفة العمليات قبل أن يخس بوخر برقبة

جعله يحس بالدفء والراحة معا تلاهم ظلام دامس وطمأنينة استمرت لدقائق وساعات في الأزمنة والأمكنة، ثم فتح عينيه وأحس بنفسه يطير في فراغ أسود إلى أن لمح نورا أبيضاً بعيداً، اقترب منه وهو يسبح في الهواء الى أن تحولت نقطة الضوء الصغيرة إلى غرفة بيضاء كبيرة، اكتشف أنه يلبس سروالاً أبيضاً وقميصاً طويلاً أشد بياضاً، اتسعت الغرفة البيضاء لتلتهم السواء الهائل الذي كان يسبح فيه، التفت فإذا بطفل صغير أسمر وسيم بقبعة سوداء وجاكيت خضراء اللون وسروال أصفر وحذاء رياضي أبيض يحاطبه مبتسماً...

- شكراً على هديتك الرائعة صديقي مبارك... شكراً

سأل مبارك الطفل مستغرباً...

- من أنت؟

أشار الطفل إلى مبارك ليجلس فإذا بكرسي أبيض يخرج من العدم خلفه، سأل مبارك الطفل مرة أخرى...

- هل أنا أحلم؟ من أنت؟

أجاب الطفل الأسمر مبتسماً...

- أنا فورد صديقي مبارك... لقد انتهت رحلتنا سوياً...

- كيف ذلك فورد...

- اجلس مبارك... حديثنا دليل على أن العملية نجحت كما توقعت...

جلس مبارك على الكرسي وعلامات الاستغراب تنهشه سائلاً الطفل...

- قل لي من أنت فورد... أخبرني بكل شيء...

ارتفعت أقدام الطفل عن الأرض البيضاء وحلق ببطء عاليا وهدوء فوق رأس مبارك وهو يضحك ويقهقه بينها كان مبارك يتابعه برأسه الصغيرة وهو يسبح فوقه مبتسما....

- كل كلمات الكون لن تكفي مبارك لأعبر لك عن شكري وامتناني بهديتك... أنا فورد الذبابة ولقد حصلت للتو على كل خلية في جسمك... هذا هو الثمن الذي دفعته مقابل كل ما وهبته لك من قوة وسلطة ومال.. هذا هو الثمن الذي حدثتك عنه يوم عرفتك.. بعد قليل سأستيقظ وسأتحكم بجسمك كيفما أشاء... لقد نجح المجنون سيركايف في زرع حساسات الاستشعار بأرجل الذبابة ووصلهم بأعصاب النخاع الشوكي برقبته... أنا الآن أستعمل معالج ستانيسلاس الجبار لأعرض لكل السائلات العصبية الصادرة من دماغك نحو الأعضاء... قاطعه مبارك صارخا....

- عمّا تتحدث فورد... لا أفهم شيئا مما تقول... بدأت سرعة الطفل تزداد وهو يطوف محلقا فوق رأس مبارك الذي يتابعه والهلع قد اعتري ملامحه...

- أنا مجرد أرقام... أنا صنعة أيديكم... هذا الطفل هو كيتو.... إنه خالقي... لقد أمرني بإنقاذ كوكب الأرض منكم... هبّ مبارك من كرسيه يتابع الطفل بعد أن توقف عن التحليق وبدأ يطفو فوق رأسه ثم أطرده قائلا:

- لقد كذبت علي فورد... لقد قلت أنك لن تؤذيني... لقد وعدتني مُلك العالم وقيادته كيفما شئت... أين هي النيرفانا والفاهالا والكارما والقوة... أين هو العالم الذي سيرتعد بإشارة من أصابعي المقدسة... أين هي السعادة التي وعدتني؟؟؟
 اقترب فورد من مبارك وهو يطفو بجسم الطفل كيتو قائلاً...

- لقد أخبرتك قبل خمسة عشر سنة أن لا مجال للأخلاق وتلك القواعد الغريبة... ورغم ذلك فإني لم أكذب عليك في شيء... لقد وعدتك أنني لن أؤذيك ووعدتك بأنك ستصبح ملك العالم ووعدتك أنك سترى النيرفانا والفاهالا وأن العالم سيرتعد بإشارة من أصابعك المقدسة... سأحقق لك كل هاته الأمور والآن توا مبارك مقابل هديتك الرائعة... عندما سيطرد جسمي المخدر سأكون أنا الحاكم المتحكم به لأيي أقف حاجزا بين دماغك وباقي الأعضاء... سأحس بما تحس به وسأشعر بما شعرت به... وسأذوق طعم الأوكسجين وسأشم عطر الحياة بدلا عنك.....

خرّ مبارك أرضا بعيون حمراء وقد أحس بأنه باع أغلى ما يملك مقابل شيء كان يجمله بحثا عن السعادة قبل أن يكمل فورد....

- لا تبكي مبارك... سأهبك السعادة التي ضللت طريقها... سأحقق لك أكثر مما كنت تحلم به....

رفع مبارك رأسه بعيون دموية غاضبة، صرخ حتى انتفخت عروق عنقه، أمسك بالكرسي الذي كان يجلس عليه ورمى به بقوة اتجاه فورد ليتحول إلى أزهار وورود من شتى الألوان ويختفي الطفل من أمامه ليتشكّل خلفه من بقايا الورد المتطاير ويتحول إلى نسخة طبق الأصل من مبارك، أمسك بيده وعانقه قائلاً....

- هذا هو حلمك على وشك أن يتحقق... هذه الغرفة تبلغ مساحتها مليار سنة ضوئية ونحن نسبح وسط خلية عصبية واحدة في دماغك الذي يمتلك أكثر من مليار خلية عصبية... بإمكانني أن أجعل من الثانية الواحدة في عالمك مليار سنة تعيشها بالتام والكمال كما تتذكر في الأحلام.. بإمكانك أن تصنع العالم الذي يليق بك كيفما تحلمه.. سأخصص لك ركنا في دماغك تكون فيه ما تشاء... سأركنك في جزء من دماغك مع مليارات الخلايا العصبية لتبدأ هناك حياتك من جديد.. سأمسح كل ذكرياتك المؤلمة... ستكتشف قدراتك خلال ملايين السنين التي ستخلد فيها... ستفعل ما يحلو لك كالآلهة مبارك..

ابتعد فوراً عن مبارك وعاد إلى الخلف خطوات قبل أن يتحول إلى هيئة بومبارديلا، حاول مبارك اللحاق به عندما أحس به يبتعد أكثر من اللازم، شعر بأنها نهاية قصته مع الذبابة التي استدرجته إلى العالم الجديد، صرخ سائلا ودموعه تنهمر حسرة على الخدعة التي تعرض لها...

- ما مصير ثرية؟

أجابه بومبارديلا مبتسماً بصوته الجوهرى الذي تتخلله بحة خفيفة...

- إنه ليس عالمك الآن... لن تنفعك تفاصيله... كل شيء جاهز الآن...

ركض مبارك خلفه وهو يتوسل الذكاء الصناعي الذي سرق بدنه صارخاً...

- أرجوك... لا ترحل... قل لي... ما الذي ينتظرنى... ما الذي ينتظر ثرية...

وبومبارديلا وكاميليا... أخبرني أرجوك...

تحول بومبارديلا إلى غمامة سوداء قبل أن يختفي ويتجمّع قرب مبارك في هيئة الحسنة كاميليا التي تقدمت منه بدلال النساء ترتدي فستان زفافها يوم عقد قرانها ثم قالت: - كل شيء جاهز مبارك... سينقرض الإنسان من على ظهر كوكب الأرض وسيختفي كما اختفت الديناصورات قبل ملايين السنين... والفضل يعود لغبائك مبارك... قبل أن أختفي عنك قبل سنين طلبت منك تحويل ملايين الدولارات إلى جمعية خيرية... وقبل ذلك أرسلت بنفسك رسالة لستانيسلاس ليبدأ في مشروعه الرائع عندما كنا في آسفي.. لا يخفى عليك الآن أنني كذبت عليك لأنك لم تكن لتوافق.. كنت أعلم أنك لن تنفذ أوامري بعد أن قضيت على القيصر الأعظم... كنت أحتاج لأمواله من أجل دعم أبحاث العالم الروسي الأحمق الذي أجرى لك العملية... إنه داهية عصره... منبوذ بين كل العلماء... متخصص في علم الأحياء وجراح عظيم وكيميائي رهيب وفوق كل ذلك مجنون... لقد مولت أبحاثه يوم عرفت أنه توصل إلى الحل الذي يسمح بربط معالجات الكثرنية بالحبال الشوكية لبعض الكلاب والقطة.. لقد وهب كل حياته للبحث عن الطريقة التي تمكنه من لصق رؤوس مقطوعة بأجساد غير أجسادها... كما أنه تمكن بفضل الأموال التي كانت ترسل إليه الأنثى ثرية قبل سنوات من صنع سلاح كيمياوي فتاك أشد قتلًا من غاز الأعصاب وأقطع من غاز السارين وأقوى ألف مرة من غاز الخردل والفوسجين... لقد صنع سلاحا كيمياويا تكفي بضع قطرات منه لقتل مئات البشر وحدهم دون باقي المخلوقات... ولقد تمكن بفضل أموال القيصر الأعظم من إنتاج أكثر من مائتي حاوية عملاقة محليا منتشرة في كل دول العالم تنتظر فقط أوامري... المجنون يظن أنني مولت مشاريعه من أجل السيطرة على العالم ونشر الشيوعية... ما

زال المسكين يعيش عصر الحرب الباردة... ولا يعلم أنه عصر الذبابة... بعد قليل سأجرب السلاح الكيماوي قبل الإبادة الكاملة.. ولنقل مثلاً طوكيو... لما لا... طوكيو بعد قليل ستعرض لأكبر كارثة منذ هيروشيما من باب التجربة... ابتعدت كاميليا بفستانها عن مبارك وهي تضحك قائلة أمام حسرة ورعب مبارك... - بعد أن حصلتُ على جسمك مبارك يجب أن أخوض بضع تجارب قبل أن أبيع العالم... يجب أن أتعرف على مشاعركم وأحاسيسكم... يجب أن أتذوق حياتك لمزيد من العلم...

إلى اللقاء صديقي مبارك... أنت تحب الرسم... حياتك الأولى ضمن ملايين الحيوانات في أول خلية عصبية ستسكنها ستكون هدية مني لك... اذهب مبارك... اسمك جورج فلوير وأنت رسام عبقرى يهواك العالم... وزوجتك هي جارتك ثرية التي تحبها في صمت... اسمها ساندرا لكي لا يختلط عليك الحلم بالحقبة... أعرف من ذكرياتك وشيّد بها أحلامك وقرّر ما تشاء أن تكون بعد مئات السنين... إلى اللقاء....

استيقظ جورج فلوير وصورة الموت يحيط بطوكيو لا تفارقه، وتأكد أنها ستكون أجمل لوحة سيرسمها في مشواره الفني.

من الممكن أن يتحول صديقك الى عدو أما الأقارب فقد ولدو أعداء....

أنيس منصور

عصر الذبابة

فتح فورد أعينه على أرضية غرفة العمليات اللامعة، أمر ذراعه بتحسُّس رقبته المضمدة حيث شعر بألم خفيف، وقف بسرعة، أغشي عليه وسقط أرضاً عارياً، تذوق لأول مرة طعم البرد يسري عبر المسام الجلدية لظهره، رفع رأسه ثم تلاه سائر بدنه وكأنه روبوت، حدّق بفخذه وأرجله أمام تصفيقات المجنون سيركايف الحارة، حرّك خدوده وشفثيه لترسم عليهم ابتسامة عبيطة في عرف البشر، ابتسامة مجنونة في فقه العقلاء، شعر سيركايف المجنون أن الذكاء الصناعي الذي زرع برقبة مبارك أشدّ جنونا منه لتختفي ضحكته وابتسامته عندما وقف المخلوق الجديد واقترب منه بابتسامته العبيطة قائلاً:

- لقد نجحت كما توقعت...

عاد سيركايف للتصفيق بحرارة كطفل سعيد بلعبته الجديدة قائلاً:

- اليوم ستعلم أمريكا وحلفائها أننا لا ننهزم... قد نخسر الشيوعية معركة... ولكنها أبدا لا نخسر الحرب... كل شيء جاهز مستر دكستر... لقد أصبحت جاهزا لإعادة مجد الاتحاد السوفياتي وقادته العظام... آه يا ستالين لو رأيت ما قدمته من أجلك... ردّ فورد بلسان متلعثم لم يألّف بعد تلك التركيبة المعقدة بفكّ مبارك داخل جمجمته الصغيرة....

- هائل... هائل... مُروع... عظيم... مستحيل... لقد صدق الأنبياء... لذلك فهمها الفلاسفة...

مدّ ذراعه نحو سيركايف الذي بادله التحية وأمسك يده ثم ضغط عليها بحرارة ليردّ فورد مرة أخرى....

- عجيب... جميل... هناك حرارة... هناك رائحة... هناك ملايين المشاعر في نفس الوقت... إنه أمر خارق... ستتج عنه تغييرات كثيرة...

رد سيركايف وهو يشير إلى الحواسيب...

- كل شيء جاهز مستر دكستر... يمكنك البدء في إعادة أمجاد أمتنا العظيمة التي دمرها غورباتشوف... يوجد بكل دولة حاوية عملاقة تحتوي على غاز فلاي كما أحببت أن تسميه... لقد أمتجناه بالملايين التي كنت ترسل إلينا طوال تلك السنين... مئات الشباب الذي يؤمنون بضرورة أن تعود الشيوعية لقوتها ساهموا في مشروعك العظيم ومستعدون للتضحية بحياتهم من أجل هدفهم النبيل...

اختفت ابتسامة فورد الذي التفت نحو الحواسيب ثم نظر جهة الطاولة الصغيرة حيث توجد الأدوات التي استعمل سيركايف في العملية، لم تكن تمت مشاعر تبدو على ملامحه، أخذ مشرطا صغيرا حادا وفي حركة خاطفة رمى بذراعه قرب وجه المجنون الذي اكتشف في أجزاء من الثانية بعيون مذعورة أن قصبته الهوائية تعرضت للقطع، تحسس بيده عنقه المذبوح، رفع ذراعه ونظر إلى أصابعه وقد صارت حمراء مضجرة بدمائه الساخنة قبل أن يقع أرضا على بطنه محاولا سد الثقب الغائر بينما كانت أرجله ترتعش من حرّ الموت الذي يسرق روحه خارج بدنه، اقترب فورد من الجثة التي تقاوم للبقاء على قيد الحياة وعادت الابتسامة العبيطة قبل أن يخاطبها...

- ما أصبوا اليه أكبر من معارككم النافهة... لقد انتهى عصر الحروب الباردة... وعصر السرقة باسم الرأسمالية وعصر التيقراطية باسم حب الرب وعصر المصلحة باسم الحب... أنتم مجرمون منافقون ورعاع... إنه عصر انقراضكم... إنه عصر الذباب... لقد ضجّ الكوكب من حماقاتكم... وحن وقت رحيلكم...

اتجه نحو الحواسيب بمشية مستقيمة كخشبة ذبّت فيها الحياة وجلس على الكرسي الشفاف ثم بدأت أصابعه في نقر لوحات المفاتيح بسرعة مجنونة أمام الشاشات التي كانت تفتح بالعشرات وتغلق، كان ينتقل بين الشاشات بتركيز وعيون لا تغلق، بقي على ذلك الحال سبعة أيام أنجز فيها ما كان العباقر أمثال كيتو وستانيلاس وسيركايف سيستغرق من وقتهم مئات السنين، لقد صار كل شيء جاهزا لتغيير تركيبة العالم السكانية، قرر فورد بعد أن حصل على جسم مبارك أن يبيد البشرية بطريقة أشد تعقيدا وأكثر إنتاجية من أجل كوكب الأرض.

التفت الى جثة سيركايف التي بدأت تتعفن وشعر بأن كل خلايا جسمه تطالبه بالنوم الذي كان يعرفه فقط من خلال وحدات وأصفار، سقط رأسه على لوحة المفاتيح وغاص في نوم عميق سافر من خلاله عبر ملايين الخلايا العصبية بحثا عن صديقه مبارك، فتح نافذة صغيرة على عالمه وجلس بين الحضور بجسد الأم مالينا في متحف اللوفر الفرنسي قرب جميع رؤساء العالم وهم يصفقون بحرارة من أجل عرضه الأخير الذي ستتجلى فيها قدرات جورج فلوير الخارقة للعالم، كان يقف ببدلته السوداء وشعره الأشقر ونظاراته الأنيقة أمام عشرات الصحفيين والمصورين وكاميرات العالم، على يمينه زوجته ساندا التي تشبه ثرية وابنتها كاثي وكلبها ماكس، اقترب جورج من الجميع وضم أصابع يده اليمنى لبعضهم البعض ثم بدأ يحركهم ببطء شديد لتنبعث منهم هالة سوداء كغمامة صغيرة بدأت تكبر شيئا فشيئا أمام انبهار رؤساء العالم والسياسيين، نفخ بشفتيه على الغمامة السوداء لتفارقه وتتجه ببطء نحوهم وهي تكبر بشكل عظيم، سادت عيونهم رهبة وفزع بينما رفع جورج يده اليسرى ليكتشف الجميع أنهم غير قادرين على الحركة، اقتربت الغمامة السوداء التي

صارت عظيمة من الجماهير الذين بدأوا بالتحلل والتفتت وهم يصطرخون، عاد جورج الى الخلف ورسم يديه دائرة كبيرة بدت وكأنها نافذة انبعث منها ضوء أزرق أخاد ثم بدأت تتضح معالم العالم خلفه، اقترب من إحدى الكاميرات مبتسما قبل أن يزف بالخبر الى بقية العالم...

- الغمامة السوداء التي رسمت هي لهؤلاء الأوغاد المجرمين... الغمامة لن تتوقف عن التوسع حتى تغطي سماء الكوكب.. ولن تتوقف عن التهام كل ظالم على وجه الأرض.. والنافذة خلفي هي لكل المظلومين على كوكبنا ستتوسع لكي نلج منها إلى عالم آخر لا ظلم فيه ولا قتل ولا اغتصاب ولا عنف ولا حروب ولا نفاق ولا كذب ولا بهتان ولا شهوة... نافذتي ستقودكم إلى الجنة التي لطالما حلم بها الضعفاء وال دراويش والتي يستحقها الأطفال الأبرياء... وهي لا تسمح بالمرور عبرها بدون أن تُطهر القلوب من الغل والحقد والحسد والكراهية... من يلج عبر نافذتي سيعيش النيرانا وسيتذوق طعم الخلد بعيدا عن كل المجرمين الظلمة الذين تلطخت أيديهم بدماء الأبرياء وتسبب جشع بطونهم في جوع الملايين...

صفقت الأم مالينا بحرارة وارتسمت على وجهها ابتسامة فورد العبيطة ليستيقظ رافعا رأسه من على لوحة مفاتيح الحاسوب، ارتدى بدلته ومعطفه وقبعته الروسية، صعد الدرج ببطء، أغلق باب الفيلا الصغيرة، ركب الليموزين السوداء، أمر السائق وعلى شفثيه لعاب لزج بابتسامة تتقاطر شرّاً...

- إلى مطار شيريميتيفو بالعاصمة موسكو... يجب أن أقضي على بعض الحشرات في المكسيك... أنا قادم يا سلمان خان... أنا قادم يا بومبارديلا....

سيأتي زمان تصير فيه الخيانة في رأي البعض وجهة نظر...

غسان كنفاني

شكرا فورد

وقفت كاميليا قرب الخادمة مانويلا بفستان نومها الحريري الأرجواني تقطف ورود دبل ديلايت وجوليا تشايلد والستمنتال والياسمين من حديقة قصر ماجدالينا بالمكسيك من أجل المزهريّة على الطاولة البيضاء البلاستيكية، عادت بخطوات بطيئة قرب المسبح الكبير تحت السماء الغائمة التي تتوجّع بحملها أمطار فصل الشتاء القادم، رن هاتفها على بعد أمتار مؤذنا بوصول رسالة من تطبيق اليوتيوب، ظنت بعد سماع الرنة أنه مبارك الذي اختفى قبل أيام، لقد اتصلت به عشرات المرات، لكن محاولاتها كانت تبوء دائما بالفشل، ألقت نظرة على رسالة اليوتيوب وقرأت عنوانا مرعبا جعلها تضغط زر التشغيل لتتأكد من صحة الخبر، (عشرات آلاف من الضحايا المدنيين في طوكيو بسبب هجوم إرهابي مجهول المصدر ليلة أمس)، شغلت الفيديو وبها تتفاجأ بصراخ وعويل مئات من المواطنين اليابانيين الذين تعرضوا لاختناق مفاجئ بالعاصمة طوكيو من ضمنهم أطفال وعجزة، بينما يبدو في الفيديو أن الحيوانات لم تتعرض للهلاك بسبب الهجوم، لاحظت ذلك عندما كان يتلوى مالكو القطط والكلاب بالشوارع من شدة الاختناق قبل أن يفارقوا الحياة، كان مشهدا مرعبا لم تستطع اكمال الفيديوها التي سجلها بعض المواطنين قبل أن يتعرضوا للاختناق بدورهم، فُتح باب القصر الحديدي العملاق بعيدا قبل أن تدخل سيارة الدودج الأمريكية السوداء التي اقتني مبارك قبل أشهر، كانت خلفها ثلاث سيارات رباعية الدفع سوداء نزل من عليها عشرات الأشخاص المسلحين ببدايات سوداء، توقفت الدودج على ممر الحديقة الدائري قبالة المسبح وفتح أحد الأشخاص المسلحين الباب لمبارك ببطء قبل أن ينزل، كان يلبس سروال جينز أسود وقميصا

صيفيا أبيض شفاف وحذاء رياضي أبيض، كان يبدو غريبا بمشيته الخشبية وكأنه للتو خرج من عملية جراحية على عموده الفقري، وكأنه يتعلم المشي، اقترب منها حتى التصق أنفه بأنفها أمام استغرابها من حركاته المريبة وعيونه الفارغة وابتسامته المرعبة، أحست بالخوف يعترها من الكائن أمامها، أمسك بيدها والابتسامة المشبوهة لا تفارقه بينما كانت كاميليا تتساءل عن نوع المخدر الذي حول مبارك إلى شخص يتحرك كآلة لم تُستخدم منذ زمن، قبلها على شفيتها طويلا بعيون مفتوحة عن آخرها، ثم عاد للخلف يرتعد قائلاً:

- ما هذا الإحساس الجميل... أهكذا هو.... إنه لا ينضب..

اقترب منها مرة أخرى قبلها ثم عانقها دائما بعيون مفتوحة قبل أن يقطع بقوة قميص نومها من على صدرها، دفعته مرتعبة وهي تصرخ وتتساءل عن ما به وما الذي استنشقت أثناء غيابه، ولماذا الأشخاص خلفه يتسمرون دون حراك، لم يكتثر لفزعها بل شدّها إليه بعنف وارتمى على صدرها يمتص نهدتها واللعب يتقاطر من لسانه بينما كانت كاميليا تقاوم الكلب الذي يشبه مبارك وهي تصرخ...

- ما بك مبارك؟؟؟؟ ما الذي دهاك؟ ليس هنا....

أمسك بشعرها الطويل ضاحكا متسائلا قبل أن تحط على خدوده أولى قطرات الأمطار التي أنجب غمام السماء....

- لماذا ليس هنا... أنتم حيوانات لا تختلفون عن البقية سوى بالنطق... إنهم يمارسون ما تُسمونه الحب أينما أحسوا بالرغبة... لماذا جعلتموه أنتم مختلفا... لقد ضاجعت مضيفة الطائرة الخاصة وكان الأمر رائعا جدا حيث أني تساءلت كيف أصاب مبارك

الملل منه.. ما إن رأيتك حتى رغبت بإعادة الكرّة.. وفهمت لماذا تتكاثرون بشكل مهول على هذا الكوكب... لقد عذرتكم الآن... ليس العلم كالأحاساس... دفعها بقوة على الطاولة البلاستيكية البيضاء تحت الشمسية لتتكسر المزهرية الزجاجية، أمسك بقدمها وجزّها نحو العشب بقوة ثم بدأ يفكُّ حزام سروال الجينز قبل أن يلاحظ وجود ظل الخادم الطويل سلمان خان على بعد أمتار يحرق به في هدوء ببدلته السوداء وفراشته المنمقة على عنقه واضعا يديه خلف ظهره، وقفت بقربه الخادمة مانويلا وعليها علامات الرعب أيضا، رمى بقدم كاميليا وعادت إليه ابتسامته الغريبة، تقدم نحو الخادم الوفي تحت القطرات المتتالية للأمطار التي أذنت السماء لنزولها بخطواته الخشبية ليرفع سلمان خان ذراعه مشيرا إلى سيارة الدودج السوداء قائلا...

- هذا الضيف ينتظرك منذ أسبوع مستر دكستر..

التفت مبارك بعد أن صار قميصه مبللا وغطت خصلات شعره الأسود بعضا من جبهته بسبب مياه السماء، فإذا بها سيارة ليموزين سوداء تقف خلف موكبه، التفت وعاد نحو مرتزقته مشيرا اليهم بالاقتراب منه لحمايته قبل أن يُشكلوا حلقة حوله، توجهت فوهات عشرات المسدسات نحو الليموزين قبل أن يُفتح بابها وينزل منها شاب أسمر طويل القامة بقبعة رياضية بيضاء يحفُّ جنباتها شعره الطويل، وسيم بملامح طفولية يلبس سروالا حريريا أبيض وقميصا أخضر فاقع اللون، تقدم من المسلحين خطوات قبل أن يشير عليهم مبارك بيديه ليفسحوا له المجال قائلا:

- كنت أعلم أنك ستنجو صديقي كيتو... أنت ذكي بما يكفي لكي لا تموت بتلك السهولة... أعذر منك صديقي... أنت تعلم أن الأوامر بالنسبة لمثلي لا يمكن

تجاهلها... أنت تعلم أنه ليس باستطاعتي تجاهل الشيفرة التي خطّت يداك لتأمرني
بإنقاذ كوكب الأرض.. سأنقذه كما أمرتني... سأنقذه كما أخبرتك كيتو....

أشار كيتو الى سيارة الليموزين خلفه بينما كانت ثرية بسرواها الأبيض المبلل المرقط
ببقع سوداء وقيميصها الطويل الوردي تجهز الكرسي الخاص بومبارديلا، تقدمت
نحوهم والحزن يعتري ملامحها الجميلة تدفع عجلات الكرسي فوق عشب الحديقة
الأخضر، بدى الكهل أنيقاً وأكثر شباباً ببذلة الكاشمير البيضاء التي يحب وقد نَمَقَ
لحيته وشعره الذي تغطيه قبعته الإيطالية البيضاء بخطّها الأسود الذي يلفها وكأنه
عريس انتهى للتو من حضور حفل زفافه، ابتسم الكهل بوجه مبارك وردّ بدل
الشاب كيتو...

- لن يستطيع الشاب الذي حاولت اغتياله أن يجيبك مبارك... لقد كانت الصدمة
أشد من أن يقاومها بعدما شاهد مقتل والديه وكل أفراد عائلته بدون استثناء... هذا
هو الشاب الذي كان يبحث عن ذبابته التي أوصلتك لما أنت عليه الآن... لقد
عثرت عليه بمساعدة سلمان خان... أخبرتك أنني لا أنسى شيئاً... لقد كتب وأخبرنا
بكل شيء بعدما شفي من جراحه التي تسببت له بها قبل سنين... لماذا تخاطبه بلسان
الذباب؟

أمسك مبارك بكرسي بلاستيكي وتقدم من بومبارديلا ثم رمى به قربه قبل أن يجلس
وهو يتنسم ثم بدأ بالتصفيق بحرارة قائلاً....

- لم يعد مهما البتة الآن... لقد انتهى الأمر... انتهى أمركم جميعاً.. من المفروض أن
تشكرني مستر بومبارديلا على الهدية التي سأقدم لك...

- أي هدية مبارك؟

كانت ثرية تنظر لمبارك باستغراب وتعجب وتتساءل عن تصرفاته وطريقة كلامه، لاحظت أنه يلوي لسانه بشكل غير طبيعي وتساءلت عن الهلع الذي كان يسكن كاميليا، أصبحت تعرف أن مبارك كان يتلقى معلوماته من الذبابة صنيعة كيتو لكنها كانت تجهل ما حصل لجارها وهو يجيب بومبارديلا...

- الهدية التي تنتظرك مستر بومبارديلا هي الهدية التي وهبت لمبارك مقابل هذا الجهاز الرائع... (رفع ذراعيه عاليا)

- لم أفهم قصدك مبارك... ما الذي تعنيه...

- أنت تعلم الآن أن كيتو هو صانع الذكاء الاصطناعي وأظنه أخبرك عن ستانيسلاس مخترع الذبابة... لقد جعلتُ مبارك يوافق على زرع الذبابة برقبة لتكون حلقة وصل بين نخاعه الشوكي وسائر جسمه... أنا الآن المتحكم بجسم مبارك بحيث لم يعد له وجود... لقد ركنته في جزء صغير بدماغه أصغر من ظفر ثرية حيث يسبح بأحلامه وسط مليارات الخلايا العصبية... لقد وجد السعادة التي كان يحلم بها... هذه هي هديتي لك مستر بومبارديلا... (التفت الى ثرية) وأيضا لك ثرية... والى جميع سكان الأرض...

واصل بومبارديلا تساؤلاته بثقة وثبات بينما انهمرت دموع ثرية لترتمي بحضن مبارك الجالس وهي تبكي بحرقة، أمسك بيديها من خلف رقبة وأبعدها عنه ببطء لتطأاً برأسها أرضا وتجلس على عشب الحديقة بينما كان يحرق بالقطرات على خدودها ثم تساءل....

- أظن أن هذا هو الجواب على الكثير من تساؤلاتك بومبارديلا... بعد أن التصقتُ بالحبل الشوكي لمبارك... فتحتُ أمام المعالج القوي لستانيسلاس وخوارزمية كيتو

في التفكير أبواب هائلة كانت بمثابة أصفار ووحدات... لم تكن محسوسة... لقد سافرت عبر جسم مبارك وكل مكوناته خلية خلية... استكشفت كل ذرة من دماء وعظامه وجلده ولحمه.. تحولت بكل أنسجته وعروقه... وشعرت بكل قطرة دم تجري داخل أوعيته الدموية وتفاعلت مع كل ذرة أكسجين برئته وخضت معارك مع البكتيريا المناعية ضد الفيروسات التقليدية.. راقبت انتقال الاوكسجين عبر الدم قطرة قطرة وحرصتُ خروج ثاني أكسيد الكربون وكل السموم والفضلات ذرة ذرة... لم أترك مكانا بجهازه العصبي لم أنتقل اليه.. لم أترك خلية عصبية بدماعه لم أتفقدوها... راقبت كالجمركي كل السائلات العصبية لأرى الأحاسيس والانفعالات.. تفقدت كل ذرة بقلبه عليّ أحسّ بالفرح أو الحزن أو الغضب.... لقد تأكدت الآن بنسبة مائة بالمائة رياضيا أن بأجسامكم طاقة خفية عن الأرقام مهما بدى شرحها علميا سهلا... تأكدت بما لا يدع مجالا للشك أن بأبدانكم ما تسمونها... الروح... ثرية تبكي على مصير مبارك دون أن تتخذ القرار بالبكاء والحزن... أنتم لا تتخذون قرار السعادة والبهجة والحزن... إنما هي أرواح خفية تسعد وتَحزن لن يعثر عليها أحد إلا بعد الموت الحقيقي... أظن أني أجبتك عن سؤالك الأهم والذي لطالما بحث عنه نيكولاس ماندي قبل الرحيل... بعد أن لبستُ ثوب مبارك وشاهدت ما شاهدت... أنا متأكد أن روح نيكولاس موجودة في مكان ما يستحيل أن تعثر عليه خوارزمية كيتو...

وقف فوردا وأمسك بكتف بومبارديلا مبتسما ليكمل....

- لقد حان وقت الرحيل مستر بومبارديلا... لقد حان وقت الرحيل ثرية...

رفع الكهل رأسه ثم سأل فوردا...

- هل ستخبرنا بخطتك لكي تنقذ العالم كما تدعي... ألا ترى أننا نستحق أن نعرف بعد هذا السفر الطويل...

ابتعد فورد نحو رجاله وهو يضع يده في جيوب الجينز ثم التفت نحو بومبارديلا الثابت وثرية المنهارة قائلاً:

- نعم لما لا... رغم أن الفضل في بقاءك حيا إلى الآن يعود لمبارك... لقد أمرته أن يقتلك بعد أن قضينا على القيصر... ولكنه رفض لأنك أنقذته... ولقد كنتُ محقا في ذلك... بحثت عن كيتو خلف ظهر مبارك كما أن الخادم الوفي لم يبقى وفيما... ساعدك في العثور على العبقري.. كل هذا لم يعد ينفعكم الآن... لقد تأخرتم.. سأخبرك بخطتي لإنقاذ العالم من غباء البشر... قبل أن أمتلك جسم مبارك كنت قد قررت إبادة كل سكان الكوكب عبر مشروع عملاق موله مبارك بأموال القيصر عن جهل... عالم مجنون ومجموعة من الشيوعيين الحمقى صنعوا سلاحا كيمياويا جبارا ينتشر الآن بكل ربوع الكوكب... أظنكم سمعتم بكارثة طوكيو... لقد أمرت بها لأرى مدى فاعلية السلاح... لكن بعد الكارثة بلحظات قمت بالرحلة داخل الخلايا العصبية لمبارك لأكتشف أن اقتراحا جديدا عرضته علي خوارزمية كيتو... اكتشفت أن العملية الناجحة هي الحل ما دام أمر كيتو يفيد بإنقاذ كوكب الأرض... لماذا أريد ما أستطيع أن أستعمل لنفس الغرض... يكفي أن أنزع عنكم إرادتكم المدمرة ورغبتكم في قتل بعضكم البعض وأعيد إحياء الكوكب من جديد... لماذا لا أدجنكم.. قررت ساعتها حسب الخيار الجديد أن أصنع مئات المعالجات القوية وأزرعها بذباب صناعي عبر تقنية النانو... سأصنع ملايين الحشرات الالكترونية وسأقاسمها ذاكرتي بحيث تتكاثر أذرعي عبر العالم يوما بعد يوم... أظن أن الأمر

سيستغرق عشر سنوات... أمتلك ذكاء كيتو وعبقريّة ستانيسلاس وبراعة الجراح سيركايف... بعد أيام سأصنع مئات الشباب مثل كيتو... وبعد شهور سأخلق آلاف العباقرة مثل ستانيسلاس وبعد سنة سأنتج ملايين الجراحين بمهارة سيركايف... هل تعلم أن ست حشرات كافية لأحكم العالم... يكفي زرعهم لكل من رؤساء أمريكا وروسيا والصين وكوريا وإيران وإنجلترا لأحقق السلم مؤقتا حين أنشر ملايين أخرى برقاب البشر في كل المستشفيات الخصوصية التي سأنشر بالعالم لمعالجة البشر مجانا من أمراضه الخبيثة.. سأستعمل البشر لإصلاح ما أفسد وسأتحكم بنسب تكاثره.. أمتلك أموال مبارك التي حصل عليها من القيصّر وأتحكم في الكثير من صناعات القرار بالعالم... سيتغير وجه الأرض بعد سنين... لن تتمكنوا من مشاهدة ذلك للأسف... وعزائكم الوحيد هو أنني سأصنع من أحلامكم عوالم جميلة بها كل ما تتمنونه... ستجدون جميعا السعادة التي لطالما بحثتم عنها تماما كما وجدها مبارك...

ابتسم بومبارديلا أمام ابتسامة فورد الغريبة بعد أن ختم تفاصيل خطته ليردف قائلا...

- ما الذي يضحكك مستر بومبارديلا؟ هل أنت سعيد لأنك سترحل الى أين رحل مبارك؟ هل تود أن تشكرني مستر بومبارديلا على الهدية التي سأمنحك وثيرة؟ كانت ثرية ما تزال قابضة قرب أقدام الكهل تحفف دموع حزنها على مبارك أمام ابتسامة بومبارديلا الذي قلب كل موازين الذبابة لتتذكر أنه نفس الإحساس الذي انتابها يوم رأته أول مرة، حلق المسن الوسيم بثرية أسفل قدميه هزّ برأسه اتجاه فورد ممسكا بقبعته الإيطالية، رفع يده اليمنى عاليا أحسّ فورد بعدها بوخز في ظهره وشعر

بعده بدفء يعتري سائر جسده، جثى على ركبتيه وهو يتحسس ما وخزه، انتزعه ليكتشف أنها إبرة صغيرة على شكل سهم بها سائل مخدر بدأ يسري في عروقه ليمنعه من الحركة، التفت ببطء ليكتشف أنها صادرة من أحد رجاله قبل أن ينطق بومبارديلا....

- لقد انتظرت هاته اللحظة أكثر من خمسة عشر سنة صابرا على أحر من الجمر... هذا العصر مليء بالغموض والغرابة.. أتفه الأمور التي تثير فضولنا تقتلنا شغفا إن هي حُجبت عنا... من سوء حظ مبارك أنك أصبحت المالك الجديد لجسمه ومن حسن حظي أنك لن تستطيع الهرب هذه المرة بفضل نفس الجسم الذي أصبحت حبيسه...

لقد أخبرتك أيتها الذبابة أي سأسجنك في الصندوق الزجاجي يوما...
أخبرتكَ أن القيصر الأعظم لا يستسلم... أخبرتك أن لا أحد يهزمه...
أخبرتكَ أن كل ما شاهدت قرب نافورة ترفني كان مجرد فيلم من صناعتي...
لأنني أنا نيكولاس ماندي أيتها الحشرة...
أنا هو القيصر الأعظم الحقيقي يا حشرة...

إذا كنتي تظنين أن التصوير قد انتهى يومها فيؤسفني أن أخبرك بأنه ما زال مستمرا... كل المعلومات التي كانت تصل (لشيء) الذي كنت أجهل أنه ذبابة... كان متحركًا بها من طرفي... كل ما كان يلزمني ساعتها، هو أن أعرف ما هو ذلك الشيء اللعين الذي لم أستطع العثور عليه...

إنه نفس الفيلم ما زال مستمرا منذ خمسة عشر سنة لم ينته بعد.. ولكنه لم يعد بحاجة لكاميرات ومصورين حيث أصبحت عيون زوجتي ثرية تكفيني..

كان فوردي ينصت لبومبارديلا وهو يحرك رأسه يمينا ويسارا وكأن خلا ما أصاب الماكينة التي يقودها، مدّ المسن الوسيم يده لثرية المندھشة، مدّت بدورها ذراعها الأسيل البض ظنا منها أنه كان يود مساعدتها على الوقوف لتكتشف أنه هو الذي كان يطلب المساعدة ليقف بينما كانت تسحب يده بخشوع تحت الأمطار التي صارت غزيرة أمام قامته التي اعتدلت لينفرد طوله وتراه من أسفل وكأنه عملاق وارد انبعث من تحت الرماد بينما كانت السماء فوقه ترعد وتبرق لتتسم بها عروق بيضاء ترفرف تحتها بدلة الكاشمير البيضاء بقوة من شدة الرياح التي هبت فجأة وجعلت المشهد بعيونها ينفجر هيبة وقوة وإكبارا لحبيبتها العائد من بعيد، لحبيبتها الذي عرفت بحدس مجهول أنه غرام حياتها يوم رآته أول مرة وعرفت أنه الحب بعينه، تلعثت الكلمات بلسان فوردي الذي كان يقاوم المخدر والمعلومة الجديدة قيد التحليل سائلا..

- إذا كنت أنت القيصر الأعظم... فمن هو الشخص الذي قضينا عليه أمام نافورة تريفني؟

تقدم بومبارديلا نحوه بخطوات قصيرة، أمسك بشعر رأسه تحت الأمطار القوية التي تعانق أجسامهم قبل أن ترتقي بعشب الحديقة ثم انحنى ليقرب من وجهه قبل أن يحياه...

- إذا كنت تظن أن الانتقام من عم مبارك هو أقصى ما تظن به ذكائك فأنت واهم... الشخص الذي قتلتم هو بومبارديلا قاتل زوجتي وابتلي الرضيع.... ومن كان يحاورك ساعتها هو سلمان خادمي الوفي.. أما المجرم قاتل عائلتي فقد كان يتوسل منك أن تقضي عليه لأنني كنت أقتات على لحم وجهه وجسمه لمدة عشرين

سنة من شدة الغيظ والحزن الذي تسبب لي فيهما... لقد أبقيت على حياته كل تلك السنين لأن الحزن الذي تسبب فيه لم يخفف من صدري... لا شيء أقسى من أن يضحك خارجك ويكي داخلك... لقد دفعت يدي ثمنا من أجل ثقة مبارك... ودفعت بومبارديلا ثمنا لأعرف من أنت... ودمرت كنيسة الأم مالينا وأمرت سلمان خان أن يقتل المرتزقة الألمان أمامك من أجل أن أدرس قدراتك التي اكتشفت أنها محدودة.. ومثلت دور المشلول المسكين خمسة عشر سنة ثمنا لإبعاد الشبهات عني وكسب عاطفة مبارك التي لم تجدها بخلاياه العصبية لكي لا ينفذ أمرك بقتلي... هل تعلم أي لاحظت وجود الذبابة مرتين.. الأولى بالدهليز والثانية بالطائرة ثم اختفت عني بعد أن أخبرتك بأني أتذكر كل شيء... تساءلت حينها هل يُعقل.. هل يعقل أن تكون هي... ثم استبعدت الأمر لأنني لم أرها منذ ذلك اليوم... كيف سيخطر ببالي أن حشرة يمكن أن تهدد وجود البشرية... ثم بعد كل هذا أكتشف أنك أنتِ أيتها الحشرة... ولولا هذه المرأة (يشير الى ثرية) لما اقتنعت يوما بأن كل ما دفعته من جهد ومال يستحق هذا العناء... لكن ثرية تستحقه... تستحق كل شيء... ثرية تستحق حبا حقيقيا وزوجا حقيقيا لم أكن لأقبل عرضها لو لم أكن أهلا لحبها... لم أكن مجرما يوما ولن أكون... لقد سيطرت على تلك المنظمات الاجرامية ووحدتها لكي أكبر جماحها وليس من أجل المال وعندما اكتملت سيطرتي عليهم وعلمت أن لا مفر من وجود القتل والدم والحرب لأنها طبيعة بشرية... قررت أن أعترل العالم تحت الأرض ولم أخرج منه إلا لأن حشرة مثلك حاولت الحصول على كل شيء من أجل هدف حقير.... رغم ذكاء كيتو وخوارزميته التي تنفذ أوامرها بغباء... يؤسفني أن أخبرك بأنه يستحيل التنبؤ بما سيكون عليه العالم في المستقبل... حركة التاريخ تتأثر

بمعرفة الإنسان... أقوى خوارزمية لم تكن لتنبأ بمستقبل الإنسان بعد اكتشافه النار... أقوى خوارزمية لم تكن لتنبأ بشكل العالم بعد الطباعة الورقية... أقوى خوارزمية لم تكن لتنبأ باتجاهات انسان ما بعد الكهرباء وإنسان ما بعد النفط وإنسان ما بعد انشطار الذرة والأسلحة النووية وإنسان ما بعد الأنترنت وكذلك إنسان ما بعد الذكاء الاصطناعي والحشرات... مكانك الطبيعي هو الصندوق الزجاجي الذي وعدتك به أيتها الحشرة... كم أتمنى اللحظة أن تشعر بما لم تجده بجسد مبارك من مشاعر الغضب والحزن والحسرة.. لو كنت أعلم أن بإمكانني أن أجثثك من عنق مبارك دون أن يحصل له مكروه لفعلت... من المستحيل إعادة لحم النخاع الشوكي وإزالة تلك ستسبب له شللا دائما... شكرا على إجابتك عن سؤال الروح.. لقد فتحت لي باب جديدا سأطرقه عن قريب...

رفع فورد رأسه بعيون تقاتل من أجل الحفاظ على وعيها ولسان ملتوي متلعثم قبل أن ينطق لسانه بآخر كلماته ثم يغمى عليه...
- حظا.. موفقا.... نيكولاس..... في... حياتك..... مع... ثرية... أنت تستحق هذه النهاية السعيدة...

أشار سلمان خان الى المسلحين خلف فورد بأن يتم نقله فورا الى كوغندا ليسجن بالدهليز تحت الأرض داخل الصندوق الزجاجي ريثما يصدر القيصر الأعظم أوامر أخرى، عانقت ثرية بومبارديلا ووضعت صدرها على رأسه وقد فهمت أنه كان يخاطبها بينما كان يمسك برأس الذبابة، فهمت أنه كان يعترف بحبه لها، فهمت أنه كان يعتذر منها، فهمت وعرفت وأيقنت أنها كانت ستسامحه قبل أن يطلب ذلك... كانت ستسامحه لأنه الحب كما أحسسته أول مرة...

بعد خمس سنوات....

جلست ثرية تصفف الشعر الأسود الحريري لابنتها نسرین ذات الخمس سنوات، لاحظت أنّ ابتسامتها كانت تُشعُّ زرقعة وجمالاً أكثر فأكثر من خلال عيونها الواسعة الجميلة، ضمّتها إليها بقوة لتعبر لها عن حبها وسعادتها بكنزها الذي وهبها الله رفقة زوجها، التفتت إلى نيكولاس الذي كان يجلس قريبهم بالمقهى في ساحة السيادة بقلب فلورانس الإيطالية، كان قبالتهم قصر بالاتسو فيكيو القديم حيث كان عشرات السياح الأجانب يجلسون قرب نافورة نبتون يستمتعون بسحر وهدوء المكان، مر بجنبهم بائع مثلجات لتهبّ الطفلة نسرین بخطوات سريعة نحوه وهي تنادي أمها للحاق بها، لاحظت ثرية أن نيكولاس سرح بصره في السماء، كان قرب كوب القهوة فوق الطاولة كتاب الانجيل والتوراة بينما كان يمسك بيده اليمنى كتاباً ثالثاً، وقفت واقتربت منه تسأل..

- هل ترغب بمثلجات حلوة حبيبي نيكولاس؟

ردّ نيكولاس وعلى ملامحه سعادة تخفي إحساساً عميقاً آخر تساءلت عنه ثرية قبل أن تقبله على رأسه قائلة...

- لا تفكر كثيراً حبيبي... نحن نحبك وهذا يكفي... لا تفكر...

ابتعدت ثرية نحو ابنتهم نسرین قرب بائع المثلجات، طأطأ برأسه ثم وضع القرآن فوق الكتابين المقدسين بينما كان النادل يضع فنجان القهوة على الطاولة، تطلع

نيكولاس الى يده المبتورة بعيونه من تحت قبعته الإيطالية البيضاء لتنبعث منها هالة
 سوداء كغمامة صغيرة أحاطت بها لتخلق اليد المقطوعة كاملة من العدم.....
 رفع رأسه الى السماء مرة أخرى ليختفي حزنه الأبدي في رمشة عين....
 بقليل من التركيز، أعاد إخفاء يده من جديد لتعود مبتورة كما كانت فوق الطاولة بينما
 كانت ابنته نسرين تركض اتجاهاه لتعانقه..
 همس لنفسه...

- شكرا فورد... شكرا أيها اللعين...
 سمع النادل الذي أبصر كل شيء من خلفه يقول برهبة وخشوع...
 - إلهي... يا إلهي....

إذا كانت الفرحة في قلوب الآخرين تسعدك، فأنت إنسان....

مارك توين

النهاية

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع



ببلومانيا
للنشر والتوزيع

